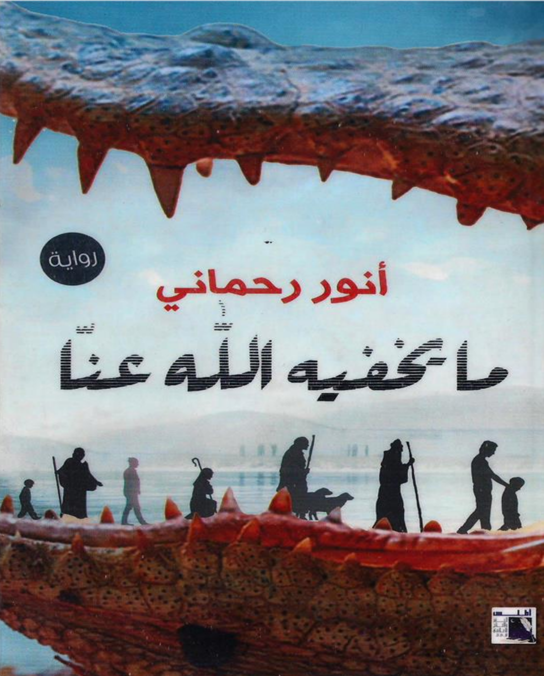
رواية
أنور رحماني
ما يخفيه الله عنا

مايخفيه الله عنا

رواية

إهداء

إلـى التماسـيح التـي أكلت عقولنـا، إلـى تلـك المقدّسـات التـي جعلتنا نكره بعضنا بعضًا، إلى حماة المعبد، إلى جميع المستبدين، جميع الظلمة، إلى كل سلطة سياسية بالعالم تستعمل دين الشعب للإلتواء عليه، إلى كل تاج ملعون فوق راس كل حاكم حقير، إلى رجال الدين اللذين لطالما كانوا عبيداً للإستعباد، إلى ذلك التنويم المغناطيسي الذي يجعلنا نؤمن بأننا اقل قيمة منهم، هذه الرواية هديّة لكل شخص يشعر انها تتحدث عن آلامه، إلى الشعوب المظلومة والتي تحمي الظلم بيديها ولا تدرك ذلك.

أنا حرّ يا زوربا...

كلاّ لست حراً كل ما هنالك أنّ الحبل الذي في رقبتك أطول قليلاً من حبال الآخرين...

(نيكوس كزانتزاكيس)

الفصل الأوّل
الظهور المقدّس

كانت تصرخ بعمق وكأنّها تناجي الله في ولادته، أو تلدها هي ذاتها، تلد الآلهة في جسم جديد، أو تجعلها تسقط من عالم النور إلى هذه الأرض السحيقة، من ذلك المكان الذي يأخذ شكل زهر الشوكِ مخرجاً له، ذلك المكان الخجل والمتوحش والمتفتح ذات وقت كأزهار الربيع والبشع كالحياة في وقت آخر، تلك الحياة التي تبصقنا إليها ثمّ تمتصنا من جديد، تبصقنا وتمتصنا وتعيد بصقنا مرّة أخرى.

من صوتها الحاد كنّا نفهم هذا العالم البائس ومغبّة المجيء إليه، لقد كانت تصرخ بقوة رهيبة وكأنّ أحداً ما يسكب الزيت في بطنها ويضرم الجحيم، لكن لم يرد رأسه أن يخرج منها، لقد كان ضخما جدا، كان الأمر شبيها بمعركة صوتية بينها وبين النار المتوقد أمامها في قنديل صغير لدرء الأرواح الشريرة،كان صراخها يرتفع عاليًا صوب السماء كالنباتات المتسلقة، ومن ثمّ يسقط على رؤوسنا كالمطر البارد ويتدحرج ملتهبًا في أعماقنا يسمعنا نبضات قلوبنا على حفيف القطرات الباردة، يتجمع بأمعائنا القطنية،

ومن ثم يدفع الخوف فينا إلى التمادي في تكوّنه، فأشعر بذلك بنفسي، أحوم في ذاتي متصوّفة في عالمي الخاص، أحاول جذب هذا الرأس بسرعة من تلك الخزانة المتجبرة، المتحجرة، ولكن هيهات، يبدو أنّه متمسّك بذلك العالم الداخلي لا يريد السقوط في عالم دين التماسيح الفاسد.

مسح الطبيب الراهب جبهته، ومن ثمّ ردّد ثلاث مرات، المرة تلو الأخرى، بتهد خافت، تفصل بين الجملة والأخرى لعنات بادية على وجهه وكأنّه الشيطان، وهو يحاول جذب ذلك الرأس الكبير منها وأنا أساعده:

﴿يا له من مهبل جاف﴾... ردّد ذلك الراهب وهو يرتدي وشاحًا أحمرًا مطرّزًا بالأسود و وشاح أصفر يتدلى من كتفه ليعود ويجتمع في زر أخضر موصول مع الحلق الذهبي الموضوع على سرّته يصف درجته الدينية المرتفعة.

نعم لقد كان مهبلا جافا حقًا، كجفاف هذه القرية المنسية وفقرها المدقع، و كهذا الطبيب الذي لم يدرس الطب أبداً، كل ما يعرفه عن الطب هو ما ورثه من أبيه وما ورثه آباه من أجداده، إنه طب موروث من زمن كان الناس يموتون فيه من شدة الضحك أو هكذا تقول الأمثال، الطب هنا كل شيء يسري بإرادة التماسيح أيضًا، فهي المعلّمة هنا، والآمرة الناهية.

هنا لا احد يموت ضاحكًا، حزينًا ربما، او صارخًا او ماقتًا غاضبًا او حتّى خائفًا، إمّا ضاحكاً، فهذا من المستحيل في القرية البائسة هذه، بالأحرى في قرية التماسيح الموشّحة بالأحمر والأصفر هذه إنّه عالم ديني في منتهى الفساد، تقدّس فيه التماسيح ومعابدها، لاحياة هنا ولا موت إلاّ باسمها ولأجلها.

وهنا أغلبنا يموت بشخرة واحدة،هكذا فقط يموت بتفاهة، يموت بدون أي مشاعر بلا نكهة، يموت ميتة الموت، الموت البسيط، العادي والناشف، الاارادي والإرادي في نفس الوقت، والنسيان و.... وكأي يوم آخر في الحياة.

بحث الطبيب عن أي وسيلة لمساعدة تلك المراة على الولادة، أخرج زجاجة صغيرة من زيت الخروع وزيت الأفعى، وربما ايضا زيت إكليل الجبل من حقيبته، ليساعد مهبلها على التفتّح، وبعض النباتات المخدرة أعطاها بعضًا منها منقوعة في ماء دافئ، ولكنّها كانت تبدو منهكةً حقًا، جعلها الم الولادة تذوب من بشرتها إلى اسفل العالم، وبالرغم من كونها بدات تئنّ بلطف، ولكنّي كنت أشعر بصراخها من تحت جلدها وهو يتشبّث بالسماء، يظهر على صدرها وشم غير مفهوم كنت اتأمّلها في رداءها الأسود الموشّح باسود اقتم منه و قطعة قماش كانت تتدلى من الحائط إلى الأسفل منها، تتّخذ اللون الأزرق، كما كان يقطعه بعض الأحمر

المخضب ببشاعة هذا البيت القصبي المركون في عتبات النسيان، في جزء لا إرادي من الكون، جزء مشبّع بالألم إلى أبعد النجوم ،تحت هذه السماء اللااكتراثية التي تجمعنا ككائنات ليس لديها الحق في الحياة، في ضفاف نهر بلا فائدة مائه كجفافه ، تأملته بتعجب وهو يحتسي بعض الشاي ويقرأ بعض الآيات من الكتاب المقدّس فسألته بغضب:

﴿هل ترى هذا الوقت مناسبًا فعلاً لجهلك وتفاهاتك؟ إنها تموت ألا ترى ذلك؟﴾

لم يرد على سؤالي، ربّما قد كان يجد الوقت مناسباً لذلك الجهل المقدّس الذي كان يمارسه، أو إنّه لم يلاحظ انها تموت وقد بدا صوته يخفت شيئًا فشيئًا، كانت تتطفا امامه، أمام إيمانه الشديد بالتماسيح وازدرائه الماقت لحياة الإنسان خاصة النساء منهم، كانت نظرته تخفي الكثير من الشر الذي لا يجب ان تحمله روح الأطباء أبدا، لقد كان هو عرّاف القرية و طبيبها، هو كاهنها وساحرها واحد رهبانها، ولا أحد في القرية كان يجب ان يقف في وجهه، فمكانته الدينيّة العالية تحول بينه وبين درجتهم الدينية المتدنيّة بصفتهم مؤمنين وعبيدًا فقط ليس إلاّ.

تجاهلني وكانّي لست موجودة في هذا العالم، وكانّي غدوت شفّافةً مثل فائد هذه البلاد الفاسدة، و انا المسكينة التي اختارها

يوم ولادتها في اليوم المحرّم لأن تكون خادمة المعبد ففي إلى الأبد بلاد التماسيح هذه لخدمة هذا النهر الذي لا نشرب منه ولا نغتسل منه كل من يولد في اليوم الذي تحرّم فيه الولادة وهو آخر يوم من السنة يحكم عليه أن يكون عبدًا للمعبد إلى الأبد، نشرب منه ولا نغتسل منه، ولا نرى وجوهنا فيه، من شدّة الطين الذي فيه، و لكنّنا نقدّسه نضطر لكي لا نموت من شدة العطش نأتي بالماء من مكان يبعد من هنا بُعد السماء عن الأرض، والنهر امامنا نقدّسه ونعبد تماسيحه ولا نشرب منه .

وضع بعض الزيت على مهبلها و قد بدا صوتها يضمحلّ رويدًا رويدًا بعد أن فقدت آخر حبالها الصوتية، كان يبدو الطفل عنيدًا جدًا لم يستسلم كان يتشبث بقوّته بداخلها، حاولنا بكل قوّتنا إنقاذه وإنقاذها، ان ضاف زيوت اخرى، وراح يبخّر بعض اعواد العنبر فوق رأسها، ويردّد كلمات غير مفهومة، اقسم بكل ما قد كفر به أجدادي انّه كان يردّدها من وحي خياله، بدون أي معنى، ففي الأخير سيدفع صاحب البيت له ثمن كل تلك المواد أضعافًا مضعّفة، وبالطبع سيدفع له ثمن تلك الكلمات التي ليس لها معنى، كما يفعل الجهلة دائمًا، وكما يستغلّهم تجّار الدين.

كنت اتأمّله و أنا في البيت القصبي هذا على أعتاب النهر المليء بالتماسيح، تلك التماسيح المقدّسة التي تنتظر بشراهة أي

لقمة لتتمزّق بين انيابها، ساق إنسان ربمّا أو حتى الحبل السري بعد الولادة، أو طفل صغير يقع من أمه في النهر أو بعض الدجاجات وما يتكرّم المعبد عليها من طعام بعد أن يسلب من الفقراء الجهلة القاطنين بمقربة من هذا النهر، وبالرغم من وجوده أمامها لم يشفع للقرية سوى بالجفاف، أمّا أهل القرية فقد حرموا على أنفسهم في ديانتهم المحليّة الشرب منه إنّه خاص بتلك التماسيح التي يعبدونها نفس التماسيح التي تلتهمهم، أمّا تلك القوارب الصغيرة المجدّفة من حولنا فكانت تترك بداخلي أثرها على الرغم من كوني كنت غائبة تمامًا الوعي بكل ما حولي، حيث كنت مندمجةً بكلّي و حسّي بهذه المرأة التي تحاول أن تقدّم الحياة من احشاءها في حين يحاول الموت سلبها، محاولةً تخليص هذا الطفل من أعماقها وجعله يتنفّس رغمًا عنه عبير هذه القرية البائسة، عبير هذا العالم الديني الفاسد، عالم التماسيح، إلاّ أنّ صوت التجديف في الماء كان يتردّد في مسامعي كصوت متمرّد على حالتي، يذكّرني باستمرارية الحياة رغم الألم.

كان ذلك المهبل الجاف والمتشقّق والمنصهر من شدّة الفقر والجوع و الحرمان، في أبشع حالته، كان يتمزّق و ينشي بين اليدينا محاولاً التجمّد قدر الإمكان ليسع هذه الحياة المقرفة، إذ يقوم بمهمته على أكمل وجه لينفّذ عمليّة الإلقاء الوجودي، كان يبدو

متوهجًا جدًا وكأنّه قنديلّ روحاني من حجم الزيوت التي غمرته، شكله كان بيديه حزينًا وكأنّه يبكي الحياة كريح الخريف إذ تحادث الخلاء، و يترنّح في ذاته كفيلسوف كبير فقد القدرة على الحديث، ويتّخذ أشكالاً مختلفة في كل لحظة، دائري فمثلث فمربّع، حياة فشبه الحياة فموت، ومع تغيّر أشكاله كانت هي تعزف بصراخها على انقباضات بطنها الملتهب، كان مهبلها متأهبًا للانقضاض على نفسه في محاولة دنيئة للانتحار، لقد كان لئيمًا جدًا، حاول وحاولت ولكن دون جدوى، تملّكتني صورته حدّ الهذيان، تخيّلته كل شيء، شبّهته لتلك العلامات التي تتشكل على جذع الشجر بمفردها مع مرور الوقت لتدل على عراقة ذلك الجزء الغريب من جسد الانسان، المعبد الحقيقي و منبت كل روح تمشي على الأرض منذ بداية الحياة، تخيّلته جثّة مطفئة لعصفور فقد ألوانه، شبهته لكل شيء، تأمّلت مهبلي، تأمّلته وشعرت بألم مهبلها يمتدّ كخيوط شفّافة إليه ليجعلني أشعر بألمها بدلاً عنها، كان الأمر غريبًا، أوّل مرّة يحدث معي هذا، في عالم التمساح.

لقد كان بإمكاني أن أرى صورة النار وهي تنعكس من فصيه المزيّتان، كان مهبلها يتفتح و ينغلق كتنفس الصباح و كان الطفل يعود بإرادته إلى الداخل، يكبر راسه أكثر فأكثر وكان شيئاً ما بداخله ينفخه كلما اقترب من الخروج، لقد كان عنيدًا فعلا ولم

يكن بوسعنا سوى أن نحاول و نحاول دون جدوى، أشعل الطبيب الكاهن مزيدًا من أعواد المنبر بالغرفة القصبية تلك وقد ذاق تنفسي حينها واختنقت شيئًا فشيئًا بسببه فذقت ذرعا وقمت بإطفائها، ودفعت الطبيب بقوّة بعيدًا عن مسرح الولادة، حاولت إنقاذ الطفل بسرعة وكانت بذلك الأم قد ماتت بعد أن خنقها بخور المنبر و أتعبها الألم الفظيع.

قال لي الطبيب معاتبًا، إذ يبدو من عينيه الغضب، ولكنّه لم يفقد سيطرته على ذاته و كأنه يعلمني سرا جديدا بدلا من أن يؤنبني أو يعاتبني ليظهر في ثوب الحكيم:

﴿لقد ماتت لأنّ الأرواح الشريرة قد ملأت الغرفة بعد أن أطفأت البخور﴾

أجبته بغضب بعد أن رأيت فيه الحجم الفظيع من التزييف والبرود، و كأنّ المرأة لم تمت، و كما لو كانت روحها حقيرة لدرجة أن لا نأبه لموتها وأن نفكر في الأرواح الشريرة بدلاً عنها، وعوض أن نولي بعض الإهتمام لروحها التي انطفأت أمامنا كان علينا بكل نذالة أن نهتم لأعواد المنبر؟

﴿الروح الشريرة هي أنت أنت تعلم هذا وماذا سنفعل الآن هل نترك الطفل يموت أيضا؟﴾

ـجاب بـدم بـارد: «طبعـاً هـذه هـي قوانـين المعبـد ويجـب أن تحتـرم»

لكن مـاذا عـن قوانـين الحيـاة لـو مـات تمسـاح مـا أو حتـى قـرد في أعلـى الجبل كان المعبد ليقـدم لـه قداسـة واهتمامـا أكثـر مـن هـذه المـرأة هنـا فنحـن كبشـر لسـنا إلا طعامـا لهـا.

أمسكت السكين و دفعت الراهب بقوة وقلت له:

«فليذهب معبدكم و قوانينه إلى الجحيم»

شـققت بطـن الأمّ و سـحبت الطفـل، صاحـب الـراس الكبيـر، سـحبته منهـا بسـرعة وكانّـي أسـحب السـماء مـن مخيـال الإنسـان، و قـد صـرخ و بكـى كترحيـب بالحيـاة، حينهـا قطعـت حبلـه السـرّي وامسـكت الطفـل بـين ذراعـي، ومـن ثـمّ ووضعتـه في صـدر امّـه الميّتـة وبكيـت معـه علـى صدرهـا ورميـت الحبـل السـري للراهـب وقلـت لـه:

«تفضّل أطعم هذا لتماسيحك اللعينة»

التقـط الأب ابنـه، ولـم يسـأل عـن زوجتـه الميّتـة أبـدًا، لـم يكـن مشـهدها السـاكن بـلا تنفـس يـكاد يحـرك فيـه قيـد أنملـة أو شـعرة، فـرح الأب بابنـه صاحـب الـرأس الكبيـر وحمله بـين ذراعيـه بلطـف، إنـه ابنـه الأوّل، فلـذة الكبـد الأولـى، ولكـن الراهـب قـال لـه بخبـث يشـبه الحكمـة وكـأنه يلتقـط السـماء بـين يديـه ليقذفهـا بحـب في وجه

الأب الا إنّه كان يقذف الموت: ابنك محرّم على الحياة أمّه قد ماتت قبل ولادته يجب عليك أن تلقيه للتماسيح في أقرب وقت.

رأيته وجه الأب حسرةً كبيرةً لبعض الوقت كردة فعل غريزيّة، ولكن سرعان ما وجدته يتحرّك صوب النهر متوسّلا رضاء ورضى تماسيحه، ووجدته يرفع ابنه مستعدا ليلقيه، كانت المسلّمات الإيمانية للأب أقوى من محبّته لابنه، ولكنّي جريت صوبه حينها ولاقفته من بين يديه في اللحظة الحرجة و من ثم قلت له :《في قوانين المعبد لا يجب أن يلقى في النهر إلا بعد مرور اسبوع على وفاة أمه》

تأمّل الأب الراهب متسائلاً بنظراته تلك إن كان الأمر صحيحا مثلما قلت له:

تأمّلني الراهب بغضبٍ، مجيبًا له بنعم، ثم دفعني بقوة ثم هز رأسه للأب و قال لي: 《 هيا اصعدي المركب》 هذا المركب الخشبي الصغير والذي يشبه حذاء طويل، كان بجسّد التواضع للتماسيح، تلك التماسيح المقدّسة والتي تجول في نهرنا ذاك، بحريّتها ويقيودنا العبوديّة لها، ركبنا فيه بوقار متصنّع وكلانا يضمر الحقد للآخر ورحت أجدّف لوحدي دافعة به نحو المعبد، فمكانته كطبيب تمنع عليه التجديف، تأمّل الأب و قال له: 《سنعود قريبًا بعد أسبوع لنطبق مراسيم الطهارة منه لنلقيه في النهر》

كنت اتمنى في تلك اللحظات ان اتخلّص منه، ان القيه هو من على متن القارب بدلاً عن ذلك الرضيع البريء الذي خسر أمّه لتوه، وخسر عطف ابيه، بسبب قوانين دينيّة فاسدة،وانا اجدف بغضبٍ شديد كنت أحيانًا أهزّ القارب طمعًا في سقوطه عن طريق الخطأ في النهر، فتاكله التماسيح المقدّسة فأرتاح منه، كم كنت أكرهه.

ترجع حكايتي قبل ولادة هذا الرضيع التعيس الحظ الذي قد يكون كنيره من الملعونين وجبة دسمة للتماسيح، يوم ولدت، في يوم كانت فيه امّي تترجّاني، أن أبقى في أحشائها إلى اليوم الموالي، ولكنّي ابيت إلا ان اولد في اليوم المحرّم، سقطت كتفّاحة الشؤم، سقطت غير آبهة بموعد العبوديّة، سقطت وكانّي اظنني اولد في يوم يشبه باقي الأيّام، وضع الراهب اسمي مباشرة في الدفتر:

﴿ألجا ابنة كيشاريتي خادمة مطيعة للمعبد﴾

بكت امّي على حظها التعيس، لطالما كانت تريد ابنة لتكون رفيقتها في الحياة، وهي أم لستة ذكور، كان لبدّ عليها من أن ترعاني إلى سن الرابعة او الخامسة إلى أن يقرّر المعبد اخذي كما تقول الأعراف، ومن ثم ياتي الراهب ليحملني مباشرة إلى القلعة الكبيرة التي تقع في أعلى الجبل،ولأفقد بعدها أي اتصال خارجي مع العالم.

امّي كانت تعاملني بدلال كبير، كنت دائمًا ما الهو والعب معها على الرغم من سنها الكبير، امتار كانت تجاريني في حقل القمح الذي كان يبعد عن بيتنا بضعة امتار، واخوتي الستة يشكرون الإرادة العليا للآلهة في أن خلصتهم مني مباشرة بعد ولادتي، لم يكن احد فيهم يريد ان يحمل عناء العار فأن تكوني انثى في عالمنا فهذا يعني أنك لست سوى مهبل، كذلك المهبل الجاف الذي غدى جثة جاثمة قبل قليل.

لا اتذكّر الكثير من تلك الفترة إلا بعض الومضات التي تلسعني احيانًا لتذكرني بأمي التعيسة، لازلت اتذكّر وجهها الطيّب ورائحة صدرها التي كانت تملأه بالزهور كل يوم لتجعله مشمًا بالحنان، كاوّل يوم لتشرين، و لازلت اتذكّر، كانّ الأمر يحدث الآن امامي يوم جاء الراهب ليسرقني من امّي، فالأمر يتكرّر كل نهاية سنة في المعبد، بنات وذكور في عمر الرابعة يدخلون المعبد إلى لارجعة في اليوم المنتظر، وهم يفترشون البصر في المعبد الكبير وسقفه، ولا يفهمون شيئًا ممّا يحدث معهم.

امّا في الأسبوع الأخير فقد عانقتني امي مطولا، عناق الوداع الذي لم افهمه، انا في ذلك الحين لسذاجة الطفولة، وكنت قد لاحظت انّه كلما مرّ يوم آخر كانت تعانقني اكثر فاكثر وتبكي ومن ثم تردّد اسمي مرارًا وتكرارًا: ﴿الجا الجا الجا ابنتي﴾

كانت تستعمل اسمي لكي لا تشتاق له بعدها، تردّده على مسامعي، أو بالأحرى على لسانها، إذ لن تتمكن بعد أيّام فقط، بعد لحظات ربّما، من أن تردّده ثانيةً أو تلمس وجهي.

أمسكتني في اليوم المنشود، واصطحبتني إلى حقل القمح، الذي لم تنبت حبّاته سوى بعض الإخضرار، الذي يبدو كحشيش يانع فوق التراب، لاعبتني آخر مرّة، جرينا معًا حول الحقل، وفي الأخير عانقتني مجددا، وابتسمت بعد أن ضحكنا مطولا وقالت لي:

﴿ألجا ابنتي :الحياة كهذا الحقل ورائك أناس يزرعون وأناس يحصدون وآخرون يبيعون وآخرون يأكلون و لكن القمح يواصل الحياة فالسنابل تبدو كما هي دائما لا تختلف بعضها عن بعض كل فصل كل موسم ولكنها ليست سوى وجه آخر للحقل يماثله يشابهه و لكنه ليس هو الحياة يا ابنتي كفاح و ديمومة بعض حبات القمح تأكل البعض الآخر يواصل الحياة و يزرع ثانية لتحصد حباته عزيزتي ألجا: تذكري جيدا السنبلة الطيبة تنثر حبة منها في الأرض قبل أن تحصد﴾

لم أفهم كلامها جيداً، ولكنّي فهمت بعدها، ألجا بلغتنا القديمة تعني حبّة القمح، وفهمت جيدًا لما كان عليّ أن أدفع الثمن، حينها واصلنا حديثا و قد أهدتني عقدها و ناولتها بعض

التراب، لم يكن لديّ ما أناولها غيره، وفي لحظة سرمدية بين أغشية السماء وكفر الرب، بدى سراب رجل يبدو راهبا من بعيد خلف ظلال الخيال، أو الحقيقة، ومن تشعّب الذكريات في المي الداخلي، ومن ثم تبيّن أنّه ذاته الراهب المختطف يقترب منا رويدًا رويدًا، امسكتني امّي من راحة يدي وشدت عليها ورأيت عيناها تغرقان في دموع تمازجت مع إخضرار القمح ورائنا هيبة السماء، امسكت سنبلةً في يدي في حين اقترب هو اكثر منّا، قدّم التحيّة لأمي وهو يتأمّلني بكل شهوة وكأني ساغدوا وجبة دسمة للتماسيح، مدّ يده يحاول أخذي في يده ولكنّي لم اناوله إيّاها اما امّي فلم تكن تريد ان تفلتني من يدها هي الأخرى ولكن الراهب أصرّ على ذلك.

لم افهم أنا شيء في ذلك الصمت الذي كان يلف ضبابية المشهد، التفتت امي لجانبها وافلتتني أصبعًا أصبع من يدها، وراح هو يجذبني إليه قادني بسرعة، و أنا انادي امّي باقصى ما لدي من عتاب والم، ولكن بدى انّها لم تتنبه لصراخي، ساكنةً بشكلٍ مطلق، غير أبهة بي، ولا بصراخي، لم افهم ما كان يحدث بداخل راسها، كيف كان بإمكانها تركي، ناديتها بشكل اقوى وحاولت الفرار منه، ولكنّه سحبني بقوّة ومن ثم وضع ما يشبه الأساور في يدي اليمني واقفل الجانب الآخر منها في يده الشمال

لكي لا افرّ منه، لمّ وجدتني في الموقف المخيف ذاك، والذي بدى ككابوس أسود، صرخت باكيةً، كنت حينها قد وصلت القارب الذي كان بانتظاري في النهر، وضمني أولاً به ثم ركب هو الآخر وراح يجدف بقوّة مسرعًا نحو مكان لا أعرفه، إذ لم تغادر قدمي أبداً أقدام أمّي، لم أرى في حياتي مكانًا آخر إلاّ حقل القمح الذي كان هو نهاية العالم بالنسبة لي، امّا أنا فقد اهتز كياني بأسره ووقعت أسيرة الخوف، وحينها فقط استفاقت أمّي من سباتها وراحت تجري على امتداد ذلك الفرع من النهر، وهي تصرخ بكل جوارحها:

﴿الجا.الجا، عودي يا ابنتي العزيزة عودي﴾

أو بالأحرى مجرّد حبّة قمح، تزرع وتحصد وتباع و تؤكل، لا شيء كان يبدوا غاليا أو ذا قيمة في جسدي سوى ذلك العقد الذي كان يزين رقبتي، كان عقد تلك المرأة التي كنت احبّها اكثر من اي إنسان في العالم، وقد تخلّت لتوّها عنّي.

بعد لحظات اختفى صوت أمّي، ومن ثمّ اختفت صورتها كذلك، و مازال هو يجدّف في نهر التماسيح تلك بين عشوائيات البيوت والتماثيل المنحوتة على الصخور، ومن ثمّ حقول قصب السكر التي لم تضف أي نكهة على المذاق المر للخوف الممزوج بالجهل الذي كنّا نعيشه ولازلنا في هذا العالم المتديّن.

لم أفهم شيئا حينها، إلاّ أنّي كنت شاهدت قبل ذلك ابن جارنا وهو يقدّم كقربان للتماسيح، كنت خائفةً جدًا وفي نفس الوقت لم تكن هناك ادنى حيلة في يدي التي فُكّت الأساور لتوّها من معصمها، لترتبط للأبد بها مدى الحياة.

واصل الراهب التجديف إلى إن وصلنا نهاية الفرع الثالث للنهر، كان هناك مسلّم طويل من أدنى السهل إلى أعلى الجبل، كانت سلاليمه مرتفعةً نوعًا ما مصنوعةً من الحجارة الضخمة تزيّنها التماثيل عن جهتيها يمينًا ويسارًا، ونباتاتٍ مزهرةٍ كانت تتدفّق منها كشلاّل من الورود، وكان بها الكثير من القردة والحيوانات الشبه بشريّة، وفي أعلى الجبل حيث تنتهي السلالم كانت هناك قلعة كبيرة جميلة بحجم ما هي مخيفة في نفس الوقت ومن عدة أدوار، كان بمقدوري أن الاحظ أدقّ التفاصيل فيها من مكاني في أسفل المرج لضخامتها، لم أكن بمفردي هناك، كان الكثير من الأطفال من حولي ينزلون من على متن القوارب تمسكنهم الدهشة و الخوف، هم الملعونون، أولائك الذين قُدِّر لهم أن يُولدوا في اليوم المحرّم فسيقوا إلى هنا ليستعبدوا إلى الأبد.

أنستني الدهشة بذلك البناء الكبير أعلى الجبل في الخوف الذي كان ينتابني، حملني الراهب فوق كتفيه، تمامًا كما كان يَفْعَلُ باقي الرهبان مع باقي الأطفال المخطوفين من قراهم وطفولتهم،

وراح يصعد السلالم درجةً فدرجة، وانا اتأمّل تلك القردة السعيدة على الواجهتين والغطاء النباتي الكثيف، وتلك الورود الجميلة التي تفتحت هنا رغمًا عنها بالرغم من توغّل فصل الشتاء البارد نوعاً ما فيها، وانا اتامل تلك المناظر المثيرة للدهشة وقعت عيني على فتاة اخرى يحملها راهب آخر، كانت عيناها توشك على البكاء، والشكل الذي ارتسم على شفتيّها ومنه على باقي وجهها، يظهر انّها كانت تغرق في حزن كبير، لا اعرف لمَا ابتسمتُ لها في ذلك الوقت ولكنّي فعلتُ ذلك، امّا هي فتأمّلتني مطولاً بنفس نظرة الحزن وسبقنا الراهب الذي كان يحملها في صعود السلالم فاختفت عن انظاري وسط باقي الرهبان والأطفال، انّها «بِيبيترام» وستكون صديقتي المفضّلة فيما بعد.

واصل الراهب صعوده السلالم الملونة تلك، كنّا نرتقي إلى عبوديتنا الأبديّة، إلى أن وصلنا ومعنا باقي الرهبان وباقي الأطفال على أكتافهم إلى بوّابة القلعة وفُتحت لنا على باحة كبيرة تتوسّطها نافورة مائيّة وزهور يانعة، والكثير من الأوشحة الملوّنة فإذا بالكثير من الأطفال هناك يرحبّون بنا، وهم يلقون الورود وبعض الأوراق الذابلة الملونة في الهواء وعلى رؤوسنا ويوزّعون علينا الحلوى والعصير، وفي الوقت ذاته كانت تنبعث الموسيقى على مسامعنا من مكان نجهله في القلعة، حيث كانت تُعزف لنا

ألحـان جميلـة، ويحيطنـا رقـصٌ مبهـج لـم أعـرف سـببه إلـى ذلـك الحـين، كل مـا كنـت أفكـر فيـه هـو أمّـي، لـم أسـتطع أن أفكـر في أي شـيء آخـر سـوى أنّـي كنت حزينـة جـدا مشـتاقة لهـا في حفلـة اختطـاف رائعـة، دامـت لبضـع سـاعات ثـم توقّـف الجميـع فجـأةً دون أي مبـرر وجماعيًـا وفي وقـت واحـد، وتوقفـت الموسـيقى اصطـفّ الجميـع و قلّدناهـم بدورنـا نحـن عبيـد اللحظـة الجديـدة، كل طفـل بجانـب الراهـب الـذي أتـى بـه ودخل إلـى باحـة القلعـة راهـب يبـدو من شـكله أنـه أكبـر سنًـا حيـث كنّـا نهيـم في الدهشـة والريبـة، وفـرح لا أسـاس لـه مـن الصحـة، وقـف هنـاك ووضـع يـده اليمنـى فـوق يـده اليسـرى وهـو يرتـدي ثوبًـا طويـلاً مـن الحريـر ملونـا بالأصفـر ومزركش بالأحمـر وفي يـده الأخـرى عصـى طويلـةً مـن مـادة براقـة تحمل رأسَ تمسـاحٍ كبيـر، وقـف بهيبـةٍ كبيـرةٍ وسـكن كل مـا في القلعـة عـن الحركـة في سـكون رهيـب ثـم خطـب فينـا فقـال:

﴿يـا خـدّام الإلـه الأعظـم إلـه النهـر و المـاء و خالـق التماسـيح تباركتم و تبـارك وجودكم أنتم من اختاركم الـرب الكبيـر أن تولـدوا في يومـه المحـرم في جميـع شُـعَبِ النهـر علـى مـدى أجيـال كثيـرة و مـن كل قريـة مـن بطننـا الأسـري الكبيـر نحـن أبنـاء أولوهـو العظيـم نحـن الأوّلـون و الآخـرون إنّ الـربّ قـد اختاركـم لتكونـوا مقدسـين لتخدمـوا المعبـد و قوانينـه أينمـا كنتـم و لتصاعـوا لأوامـر الراهـب

الكبيـر جاكوشـا الحافـظ للسِرّ والأمـين علـى الخزائـن والمحـدِّث للنهـر والناطـق باسـم التماسـيح.

سـتبداون بعـد أيـأم أوّل دروسـكم في ديننـا الحنيـف والجليـل وسـتكون بمباركـة اولوهـو جدّنـا الأكبـر رُهّابًـا وراهبـات...﴾

واصل هـو خطابه ذاك الـذي لم افهم منه شيئًا في ذلك الوقت سـوى كلمـة تماسـيح التـي كان يردّدُهـا بطريقـة متواصلـة و التـي كانت أبشـع مخـاوفي في تلـك الآونـة تسـاءلت مـع نفسـي كثيـراً بعـد تلك اللحظـة عن سبب هـوس هـذا القـوم بالتماسيح تلك ألـم يخلق ربُّهـم سـواها؟

ثم صرخ وهو ينظر إلى السماء: ﴿لا اله الاّ الصنم﴾

ثـم راح الجميـع يـردّد ورائـه: ﴿لا إلـه الاّ الصنـم، لا الـه إلاّ الصنـم المتخيَّـل، رب الأربـاب؛ أولوهـو العظيـم.﴾..

بعـد ذلـك عـاد الراهـب الكبيـر إلـى القلعـة وعـادت الموسـيقى وقـرع الطبـول واصـوات المزاميـر، وتركنـا الرهبـان واصطفّـوا يشـاهدوننا مـن بعيـد، في حـين راح الأطفـال الأكبـر منّـا سـنًا وهـم يرتـدون أوشـحة قرنفليـة، هـؤلاء الملعنون بالـولادة في اليـوم المحـرّم ممـن سبقونا إلـى هـذه القلعـة يـدورون حولنـا، كل فيهم يختـار لنفسـه أحـد الوافديـن الجـدد مـن الأطفـال، ليلاعبـه، ويحـاول حثّـه علـى

الرقص، لقد كانوا يبدون في قمّة سعادتهم، تلك السعادة الكاذبة التي بتُّ أتقنها أنا كذلك مع مرور الوقت،- السعادة التي تأتي على ظهر الخرافة، ظهر الكذب، التي تغرينا بمنصب كاذب في السماء، وكذلك في النهر.

اقتربَ مني طفلٌ يكبرني ربّما بسنتين تقريبا، كان أصلعا تمامًا، يرتدي نفس ما يرتّديه أقرانه، وعلى رأسه كان هناك صباغ أصفر على شكل شريطان متوازيان، وابتسامة عريضة كانت تزين وجهه الذي يبدو في قمّة السرور، ومن ثمّ مدّ كلتا يداه إلى يداي وراح يدفعني إلى الرقص، ومن ثمّ راح يديرني بقوّة وهو يقهقه ضاحكًا، أمّا أنا فلم يرق لي الأمر في البداية ولكنّي اندمجت معه في النهاية رغما عنّي، اندمجت مع طفولتي و مع المرح من حولي، ورحت أرقص غير آبهة بشيء كما كان يفعل جميع الأطفال من حولي.

كان عمري أربع سنوات أو خمس، لا أدري كيف كان بإمكاني أن أرقص كذلك ولكنّي فعلت، أربع سنوات أو خمس وتلك الأيّام، التي كنت أقضيها جريًا مع أمي في حقل القمح كانت كفيلة بأن تروض قدماي و جسدي على الالتواء في مكانه، وأحداث بعض الحركات واللعب، حيث لاعبنا الأطفال وجرينا مع بعض ومن ثم أمسكنا يد بعضنا البعض ورحنا نلتف ومن ثم نغيّر اللّفة

إلى الجهة المقابلة في دوام فجائي، في كل مرة كان يصرخ أكبرنا لأن نفعل ذلك، لقد كانت محاولة بائسة لجعلنا ننسى أننا قد اختطفنا لتونا من حياتنا الطبيعية، وسقنا إلى مضمار المعابد الحجرية، الدين المتوهّج بالجهل، ككل ديانات البؤس والخنوع.

لهونا إلى أن تعبنا وتورّدت خدودنا، ثمّ ارتفع صوت مزمار كبير من أعلى القلعة تلك، فاصطفّ الجميع و عاد الراهب يمسكني من يدي وكأني قد أفرّ منه إلى عالم لا أدركه، في قلعة دينيّة كل ما فيها موصد بالحديد والحجارة الضخمة، وأقرب نافذة لي تبعد عني بعد الطيور عن الأرض، ومن هناك ساقني الراهب مثلما سيق الجميع، و ذهبنا إلى المطعم و هو صالة كبيرة برواق واسع تتوسطها مائدة طويلة منخفضة إلى الأرض حيث كنا نجلس على طريقة الصلاة.

دخلتها خائفةً، أراقب سقفها المرتفع المنحوت و المرسوم بالكامل، وكتابات كانت تغطيه وحيطان كانت تعلوها نوافذ كان يدخل الريح منها ليهز أجراسًا صغيرة كانت معلّقة في السقف، ممّا كان يجعل من المكان مثيرًا الحيرة و التساؤل والإعجاب في ذات الوقت، فقد كان يسود المطعم جو روحاني رهيب، كانت الأجراس الصغيرة تلك تزيد من جماليته، كنت أشعر بتوهجي الداخلي وكأنّي أملك هذا السقف و ما فيه، وأنا في الحقيقة

لا أملك حتى حياتي هنا، ولا يوم مولدي، ولا شيء كان يجب عليا امتلاكه، حتّى كينونتي، فكلنا هنا لأجل الصنم الكبير، لأجل أولوهو، ثمّ انتظرنا الطعام فإذا به أصناف متنوعة من اللحوم و الخضروات و الأرز و الخبز والعصائر المختلفة، لقد كانت وليمةً كبيرةً لم أرى مثيلا لها في حياتي، في قريتي البائسة، فكّرت في تلك اللحظة في أمي، أتذكّر أنّي نظرت إلى الراهب وسألته ببراءة:
«هل يمكنني أن آخذ القليل من هذا لأمي فيما بعد؟»

إبتسم الراهب ابتسامة طويلة، وقد كان وجهه يشبهه تلك الوجوه الشريرة التي أراها أحيانا في الكوابيس، ابتسامته الطويلة تلك كانت كل إجابته، فهمت بعدها الكثير، كما لم أفهم شيئا في ذلك الوقت.

وقف الرهبان يتأمّلوننا، ونحن نهمّ في أكل بشراهة، الأ بيترام، كانت حالةُ استثنائيّة، كنت أشاهدها تتأمّل الطعام وهي حزينة تماماً،كانت تشبه دمية مصنوعة من خرقة قماش تالفة، بل أتلف، كانت تشبه أول شيء قد يراه الإنسان في اللحظة الأولى من ولادته ولا يعرف ماهيته، لا يعرف معناه ولا شيء فيه، كما لا يعرف اي شيء، كانت تبدو ضائعة جدا وضعيفة، لم تضع أي لقمة في فمها، أمّا راهبها فكان يدفعها بيده لتأكل، ولكنّها لم تفعل، توقفت لبرهة عن الأكل و تأمّلتها وابتسمت لها للمرّة الثانية في ذلك اليوم، ولكنّها لم تبادلني الإبتسامة، وإذا بدمعة تسقط

من عينها اليسرى، دمعةً واحدة فقط كانت كفيلة في أن تذكرني في حقيقة ما نحن عليه، لقد كنّا في حفلة اختطاف، إنّها عمليّة سحريّة لغسيل المخ وطريقة مثالية لمحو ذاكرتنا تماماً، ولكي ننسى إنسانيتنا ونتحول لعبيد المعبد، كانت بيترام الطفلة الوحيدة التي لم تنطلي عليها الخدعة، لم تتبهر بالماديات ولا بذلك الجو المزيف من الاحتفال، لقد فهمت منذ البداية، أنّه كان عليها أن تحزن، أنّها لم تكن سوى إحدى العبيد الجدد لألوهو، الخدم، ومخادعي الغد، وخاطفي الأطفال مستقبلا، إحدى أولائك الذين ولدوا في اليوم المحرّم، وإحدى الذين سُرقوا من حياتهم إلى الأبد لعبادة التماسيح، بيترام لم تبتسم معنا، لم ترقص معنا، لم تأكل معنا، لم تفعل شيئا معنا، لقد كانت فريدة من نوعها، أو نحن من كنّا فريدين عنها، لم أعرف أين هو الأصل فينا نحن أم فيها؟ في من تفره الألوان و الماديات أو في من يقف محافظا على عواطفه وأفكاره إلى النهاية وفيا للحقيقة ومعها؟، بيترام لم تكن غبيّة البتّة، كنت ارى في عينيها جرحا عميقا، وهي تتأمّل الأطفال من حولها في بؤسهم ذاك، كانت تبدو وكأنّها تشفق عليهم، وكأنّ لسان حالها كان يقول: ﴿كيف يمكنهم أن ينسوا أحزانهم و كل ماضيهم بهذه السرعة؟﴾ بيترام كانت حكيمة، تلك الحكمة التي تجعل الإنسان يعيش كطائر مهاجر في حزن أبدي إلى الحزن المؤبد، وكان بين الحزن والحزن حقيقة مرّة تسمى الذكاء.

عندما انهينا طعامنا، أمسكنا الرهبان المرافقين لنا إلى غرفة النوم هناك انقسمنا إلى فوجين؛ فوج للذكور وفوج للإناث، حيث لكلّ فوج غرفته، ومن ثمّ انصرفنا نتشعّب في أروقة القلعة، إلى أن وصلنا إلى المكان المنشود. وفي الحقيقة لم تكن غرفةُ نوم فقط، بل بيتًا كبيرًا هو الآخر تتسع أروقته وتجمعه أسرّة كثيرة واوشحة ورديّة وحمراء وبرتقاليّة وحيث المرايا كانت تتجلّى فيه كحقيقة مطلقة من كل زاوية، وكان به الكثير من البيفاوات المزيّنة بالألوان؛ خضراء وحمراء وزرقاء والوان اخرى، لم اكن افهم سبب وجودها هناك، ولكن لم ابالي كثيرا بها في تلك اللحظة، أعجبت بألوانها وذلك وحده كان يكفي طفولتي للانبهار، ولمّ دخلنا الغرفة تركنا الرهبان وانصرفوا، ومن ثمّ اتت ثلاث راهبات يرتدين جلابيبًا بيضاءً طويلة وشاح أسود يتوسط احواضهن، وشعرهن كان أسودًا طويلاً للغاية منسدل على ظهورهن، نادينا بالاسم وقد دلونا على اسرّتنا بعد ان عرّفونا بانفسهم؛ ميرات وكوستا وبيراجي خادمات غرفة الإناث وحارساتهن.

لأوّل مرّة اصبح لدي سرير أنام عليه، قبل ذلك كان صدر امّي كفيلاً بذلك، لقد كان سريري الجديد أكبر من حجمي، فعرفت أنّ وجودي هنا سيكون لمدّة طويلة من الزمن.

لم يحن موعد النوم بعد، مازالت الشمس ترقص في السماء وهي تثقب الغيوم الرمادية لفصل الشتاء، تظهر أحيانا و تختفي أحيانا أخرى، لم أفهم لما قادونا إلى هنا في هذا الوقت المبكّر، إلى أن جاءت بيراجي وقفت أمام الحائط الخلفي لغرفتنا العملاقة ضغطت على ثلاثة أزرار كبيرة كانت عليه، ثم تحرّك الحائط وانفتح كبوابة صغيرة، فإذا به عالم قنديلي مريب، غرفةً طويلةً تملأها اضواء الشموع، شموعٌ تبدو أنها لا تنطفأ، وقناديل زيتية مبهرة وكبيرة، وفي آخر المكان كان هناك قبر يعلوه تمثال امراة وقفت بيراجي أمامه وقالت لنا:

هذا قبر أمكم و أمنا زوجة الوهو ((مريسا)) وهي من بنت هذه القلعة إنها من نصبت الإنسان خادما للطبيعة ليفديها ولو بلحمه، وكل تلك الأسماء هناك الموضوعة على الحائط هي موضع رماد كل راهبات المعبد، ممن قد سبقننا والآن عليكن انتن الخادمات الجديدات، أن تخترن مكانا لَكُنَّ على الحائط لكي يوضع فيه رمادكن بعد عمر طويل..

اختارت كل فتاة فينا موضع رمادها على الحائط إلاّ أنا طلبت مني كوستا أن أختار بسرعة، دفعتني بيدها. فاخترت بيدي مكانُه بجانب قبر مريسا وتأملتهن بحزن أشرت لهن بيدي ((هنا))

احتارت الراهبات وتأملنني بدهشة ثم قالت كوستا:

﴿لا يمكنك أن تختاري هذا المكان عليك أن تختاري مكاناً على الحائط﴾

لكني رفضت ذلك وأصرّيت على ذلك المكان بقوّة...

ساد جو من الصمت بين الراهبات، ثم صَفّقت ميرات وطلبت منا الخروج، فخرجنا و انغلقت الجدران، في ذلك الوقت فهمت أنّنا قد سِقنا إلى هنا إلى الأبد، وبِحجزنا لمكان لنا بين الأموات هناك نكون قد قرّرنا بأنفسنا أن نخدم المعبد الى النهاية.. إلى الموت.

أُغلِق الجدار وعدنا إلى غرفتنا تلك، وانصرفت الراهبات وقبل ذلك قالت لنا بيراجي: ﴿تصرّفن بحرية يا بنات﴾

الحريّة هنا، لم تكن الحرية التي قد تفهم تجريديًا من خلالها، ولا تلك الحريّة التي نتعرّف عليها من خلال الممارسة، بل هي حريّة مزيفة، ففي كل وقت يقال لك أنك حر عليك أن تبحث عن جواب -لكن- بعدها، فالقواعد هنا صارمة جدا والحجم القليل من الحرية الموجود هو كل الحرية التي قد نتخيلها

لا يزال الوقت مبكرا جدا على النوم. مزال نور الشمس ساطعًا بين ثقوب الغيوم. في الحقيقة كان ذلك الوقت جيدا

للتعارف بباقي المستعبدات، وبمجرد ذهاب الراهبات تحولت الفتيات اللائي استقبلننا بحفاوة وابتسامة إلى وجوه عابسة وغاضبة دفعتني إحداهن ثم قالت لي:

﴿تريدين مكانا لك مع الأم الكبرى إذن من الأحسن أن تبدئي بحرق نفسك من الآن لأني ساعمل على تحقيق امنيتك عن قريب﴾

ثم راحت الفتيات إلاّ الجديدات منهن يقهقهن ضحكا.

لقد كانت تلك أوّل مرّة أتعرّض فيها للمضايقات، ولم يتغير الأمر بعدها قريبًا، لقد كانت تلك الفتاة هي الأكبر سنا بيننا في عمر الثالثة عشر فابتداءا من عمر العاشرة يمر الخدم على امتحان ليصلوا لدرجة راهب صغير هي لم تفز بها ثلاث مرّات ولاتزال هنا معنا لم تكن لتسمع أبدا لأي فتاة أن تستحوذ على مكانتها كمسيطرة على غرفة النوم وعلى الفتيات فكلهن كن قوادات عندها فهي كانت الأكبر سنا والأقوى..

تصرفت بخوف يومها؛ لم اكنْ أعرف أحدًا هناك ولم يكن بامكاني أن أدخل حربًا لا حليف لي فيها، لذلك لم أرد عليها، كان عليّ أن اربح الجميع، بمن فيهم هي، اتجهت لسريري وجلست لأرتاح غير آبهة بشيء، وإذا بالببّغاءات تردّد كلّها بصوت مرتفع ما قالته لي:

﴿تريدين مكانا لكي مع الأم الكبرى إذن عليك بحرق نفسك﴾

لقد رأيت في نظراتها خوفًا شديدًا وهي تحاول أن تسكت تلك الببغاءات... كانت تصارعها ببّغاءً فببغاءً، كانت تترجى صمتهم ولكن دون جدوى، إلى انسدَمت ما كانت تقوم به لم افهم لما كانت تفعل ذلك راقبتها إذ لا تدري ما تقوم به واجهتني قائلةً بغضب: ﴿كل هذا بسببك يا أيّتها التيمية، كلّ هذا بسببك، أنت سعيدةٌ الآن أليس كذلك، لعنة التماسيح عليك يا أيتها الغبيّة﴾ ولم تلبث لحظة وهي تقول ذلك الاّ وقد عاود ببّغاء آخر كلامها.

سكتت جميع الفتيات و جلسن في أماكنهنّ ورحن يتحدّثن في أي شيء إلاّ عمّا حدث، كنّا يمثّلن دور البائسات، الجاهلات، والبريئات، حتّى لا يقحمن أنفسهن في المشكلة الكبيرة التي وضعت.

كنّ يحاولن إخفاء ضحكهن، مما كان يسيل الابتسامة من وجههن، ضحك الشماتة في الصديقة الأقوى التي كنّ يشجّعنها على التصرف بطريقة فضّة مع الوافدات الجديدات، هناك من ضحكت فعلا، ضحكت لأنّها لم تستطع ان تخفي شماتتها في تلك الفتاة، ولكن كانت تلك الفتاة الأكبر سنًا والتي هاجمتني وحيدة تبكي في مكانها، تبدو خائفةً جدًا ومرعوبة، راقبتها جيدًا، لم انزع عينيّا منها، كنت اظن أن حديث الببّغاء يؤلمها بطريقة ما، لقد كانت متوترة جدًا، أمّا تلك الببّغاءات الملوّنة فلم تصمت كانت تواصل ترديد نفس الجمل، وكأنّها تحاول فضحها...

جاءت كوستا الحارسة وراحت تتنصّت لكلمات البيضاءات، صمت الجميع وساد هدوء كبير، مزالت تحاول فهم كلمات البيّضاء، وبعد مدّة قصيرة فهمت من أصواتهم أنّ أمرًا سيئا وشريرًا غير كان قد وقع في المرقد وقد فهمت أنّي أنا من كانت الضحيّة فنادتني وسألتني:

﴿من ذايقك يا عزيزتي﴾

لم أكن أريد أن أجيب، التزمت الصمت، لم أكن خائفةً فقط بل أشفقت على تلك الفتاة المسكينة، سألتني ثانية: ﴿هيّا قولي من هي لا تخافي فأنا أعرف من هي تلك الكبيرة التي هناك أليس كذلك﴾

تأمّلت كوستا مشفقةً على حال الكبيرة، وكأنّني كنت أطلب منها أن تعفيني من وشاية تلك الفتاة لم أكن أريد أن أشير لها حتّى، فبوجود الحارسة، فسيكون هناك حتمًا عقابٌ ما، لم يمرّ الكثير من الوقت فإذا بإحداهنّ تجري صوب الحارسة وهي تشير لها:

﴿إنّها هي من فعلت هذا أنها هي﴾

ثمّ انهارت الكبيرة تبكي وهي خائفة و مذعورة، انهارت وكأنّ السماء قد سقطت عليها، يبدو أنّ العقاب المتعوّد عليه كان كبيرًا جدًا ليستحقّ كل ذلك الخوف.

خاطبتها كوستا بنبرة قويّة و هي غاضبة:

﴿لن تتوقفي أبدًا عن إثارة المتاعب يا كوجرا، الفتيات في سنّك الآن راهبات، حتى من هنّ أصغر منك هنّ اليوم يتحضّرن ليكنّ كذلك، أمّا أنت فمازلت تتصرفين كالأطفال، متى ستكبرين يا غبيّة﴾

حاولت كوجرا (الفتاة الكبيرة) أن تدافع عن نفسها محاولة أن تنكر فعلتها تلك، ولكن كوستا كانت واضحة معها، واضحة لدرجة التهديد:

﴿كوجرا أنت تعلمين أني لا أتهاون أبدا مع المخالفات و أنت تعلمين أن أقصى عقوبة هي رميك للتماسيح و لكنّي كنت كل مرّة أعفو عنك و أضعك في الغرفة الفرديّة حيث العناكب و الفئران رحمة وشفقة عليك، أمّا اليوم لن أعاقبك بقسوة يا كوجرا لأنه يوم احتفال ولذلك فستكون عقوبتك أن لا تحضري العشاء الكبير في حضرة جاكوشا العظيم وأنت تعلمين أن جاكوشا يحل البركة على الحاضرين وساحرمك من البركة و لكنّي أقسم لكي باسم أولوهو أنّك ستكونين لحما طريًا في فم التماسيح المباركة (عسى لها أن تغفر لي ذنوبي) في المرّة القادمة إن تكرر الأمر..﴾

ثمّ انصرفت كوستا بكلّ غضب، وقبل ذلك كانت قد طلبت من الفتيات أن يساعدننا على اختيار الملابس:

﴿هيا ساعدن القادمات الجدد في اختيار ملابس الإحتفال التي تليق بجاكوشا﴾

راحت بعض الفتيات تسحبنني إلى الخزانة الكبيرة، إلى مكان الذي كان فيه اسمي معلّقا على باباه، ألجا ابنة كيشاريتي، وكانت هناك أردية كثيرة من ألوان كثيرة وأشكال مختلفة، ساعدنني على اللباس أمّا أنا فكنت أفكر في تلك البيغاءات التي لم يكن وجودها للزينة فقط بل لكي تتجسّس علينا لقد تغير مفهومي للجمال كليًا في تلك الفترة و فهمت أنه لكل شيء دور في حياتنا من حبة القمح الهاربة من حقل القمح بجوار بيتنا التي أصبحت اسمي فيما بعد إلى تلك البيغاءات الشيطانية التي تعمل على إفشاء أسرارنا إلى الراهبات.

لم تكن تلك الأفكار وحدها تؤرّقني في تلك الفترة، فقد أشفقت فعلاً على الفتاة الكبيرة، أو كوجرا، التي كانت مرميّة عند أعتاب النسيان هناك، و كلّ الخائنات اللائي كنّ حولها قد تركنها وحيدة هناك و كلهن شماتة فيها.

اختارت الفتيات لي ثوبًا أصفرًا فاقعًا طويلاً، وبعد ذلك أخذنني من يدي إلى الحمّام، مع جميع الفتيات، الاّ كوجرا طبعًا، كانت تتأمّل حركتنا بغيرة كبيرة، حيث كان البخار يتكاثف عاليًا، يتكاثف كالإيمان، استحممت بمساعدتهن وقد قضينا وقتًا ممتعًا

هنـاك، ونحـن نلعـب بالمـاء، نلعـب بذلـك العنصـر الـذي يحـرّم علـى الشـعب اسـتهلاكه مـن النهـر، كنـت أرى المشـاهد وهـي تمـرّ ببـطء شـديد، والمـاء ينصـب علـى وجهـي وجسـدي وطاسـة المـاء النحاسـيّة تتحـرّك مـن يـد إلـى أخـرى، في هـذا الحمّـام البرتقالـي المبخّـر، والفتيـات يضحكـن و يقهقهـن وهـنّ في كامـل سـعادتهنّ، وكان المـاء يجـد مفـرًا الـى عالمـي الداخلـي؛ تذكّـرت ذلـك النهـر الـذي قادنـي الـى هنـا، وتذكّـرت أمّـي تذكّرتهـا ونحـن نغتسـل معًـا وهـي تسـاعدني علـى ذلـك، تسـاعدني علـى فـرك ظهـري، وغسـل شـعري، تذكّـرت كل بقعـة مـن المـاء في ذاكرتـي ومـن ثـم وقعـت عينـي للمـرّة الثالثـة علـى بيتـرام، وهـن يغسـلن جسـدها و شـعرها، كانـت هـي جاثمـة هنـاك كالشـبح وهـنّ يصببـن عليهـا المـاء، لـم أكـن أفهـم أن كانـت تبكـي أو أنّ المـاء الـذي كان يتدفّـق فـوق عينيهـا بذلـك الشـكل المخيـف الـذي يبـدي وجههـا وكأنّـه يـذوب ليختفـي ليظهـر مكانـه تمسـاح المعبـد كالجميع،مـن كان مسـؤولاً عـن رسـم تلـك اللوحـة الزيتيـة الحزينـة التـي كانـت تشـرق مـن وجههـا كالغضـب، إذ كان وجههـا ينصهـر في مخيلتـي، و أتذكـر مـن خلالـه وجهـي الدفـين الـذي لـم أعـد أجـده في هـذا البخـار المترامـي في هوائنـا هنـا، و حيـث كان دفء الحمّـام يذكرّنـي بصـدر أمـي الغائـب عنـي والمخطـوف في نقطـة غارقـة في الماضـي.

بعد أن أكملنا الاستحمام جفّفتني إحدى الفتيات ومن ثم ألبستني ثوبي الأصفر، وراحت تمشط شعري بمشط خشن، ثمّ كحّلت عيني، ثمّ انصرفت لترتدي ملابسها هي الأخرى، في حين ارتدت بيترام ثوبا أحمرا فاقع اللون، يتوسطه حزام أسود كالذي كان في خصري أنا الأخرى.

تجمّلت كل الفتيات، وارتدين أثوابهنّ، ومن ثم شرعنا في الانصراف، إلاّ كوجرا كانت لاتزال في مكانها جاثمة تبكي، لم تتحرك من سريرها ولو خطوة واحدة، وقفت وأنا أتأمّلها باحثةً عن اسمها في لساني لعلّي أناديها فتغدو للحفل معنا، ولكن جموع الفتيات سحبنني، وتُركت هي هناك، تتأمل ذاتها في وحدتها البائسة، وخطأها الذي ارتكبته لم يكن سوى أنّها حاولت أن تجعل منّي ضحيّة سهلة لها لتخرج فيها أوجاعها النفسية، أو لأنّها قامت بشت تلك البيضاءات الجواسيس أو أنّها ربما تفكّر في جسدها وهو يتمزّق كلقمة لذيذة في فم التماسيح.

ذهبنا لوحدنا، لم ترافقنا الراهبات، بل كنّا نتمشى لوحدنا في باحات القلعة ثم في الحديقة الكبيرة، وقد كان الليل قد حلّ علينا في بدايته، إذ لم تضلم السماء بشكل كلّي، فمازالت تتلّون باللون الأزرق المسود والفاتح، وكانت القنادل تضيء الحديقة والطريق إلى قاعة الاحتفال حيث ينتظرنا جاكوشا، الذي اكتشفت فيما بعد بكونه غير مرئي، وغير قابل للموت.

وقد لحق بنا الذكور من الجهة الأخرى، الجهة التي تمتلك قضيبا بين رجليها وعادة يعاملون بطريقة أحسن من الراهبات، فهم رجال المستقبل حسب المعبد، ذلكم أنّ الذكور يمتلكون من القوّة الجسدية ما يكفي لفرض الغرور الديني السلطوي حيث كان بعضهم يتصرّف بوقار كبير بينما الآخرون الأكبر كانوا يسترقون النظر للفتيات وهنّ يمشين بكل استعراض بجمالهن بابتسامة وحياء مصطنع.

رأيت أحد الذكور يشير بيده وهو يقوم بتحيّة إحدى الفتيات بخفية، وقد انحنت الفتاة الأخرى كما لو كانت تساعد إحدى الفتيات الجديدات في توضيب هندامها، وقامت بتقبيله من بعيد، وهي تبتسم سعيدةً بانجازها ذاك، بينما هو ردّ لها القبلة وسط فخر أصدقائه وضحكهم، ثمّ أكملت طريقها معنا، ودخلنا الصالة الكبيرة الذهبيّة؛ حيث التماثيل المزخرفة و القاعة الرخامية المزخرفة، وكان بآخر القاعة سلّم مرتفعٌ وأصفر، ينتهي بعرش ذهبي مغطى بقماش من حرير ويبدو بداخله خيال إنسان، وأمّا حرّاسه فمطليين بالأزرق و الأسود على شكل خطوط متتالية وكأنهم حمير وحشية ربما حمير آدمية، وكانت القاعة تعمّ بالرهبان وبالكذب، وعشاء رائع كان يزين موائد هذا الاحتفال كالعادة لإغواء غرائز الإنسان الجائعة.

اندمج الجميع في السهرة تلك، وكان الفتيان يسترقون النظر لأرداف الراهبات، أمّا الفتيات فكنّ يتخاصمن، ويتجادلن حول الذكور، يمن كان الأجمل فيهم يا ترى،ذالك أم ذاك؟

ومزالت يبترام حزينةً تكتفها الحيرة والتساؤل، أمّا أنا فقد سكنتني الأجواء، وتخلّيت عن تاريخي بسرعة، واستوطنتني تلك الجماليات التي كانت تستعمر جو هذه القلعة المبهج...

بعد مضي وقت كافٍ من الإحتفال والسعادة الفنّية، ساد الصمت أرجاء القاعة وراح أحد الرهبان يصرخ: ﴿ الآن سأقرأ لكم رسالة جاكوشا الراهب الكبير باحترام و قدسية﴾

فسجد جميع الرهّاب، سجدوا وكأنّهم لا يعرفون القيام بشيء آخر الأ هذا.

ثم صرخ الراهب: ﴿جاكوشا العظيم يطلب منكم الوقوف﴾

ثم راح العديد من الرهبان يمثل دور السعيد بكرم جاكوشا الذي سمح لهم بالوقوف للإستماع لرسالته عوض السجود وهم يبتسمون.

ثم راح الراهب يقرأ رسالة جاكوشا على لسانه مردداً قبل ذلك: ﴿ لا إله إلاّ الصنم، رب الأرباب، أولوهو ابن التمساح، وخلود النهر﴾

﴿أعزائي الرهبان، عزيزاتي الراهبات، الطلبة الكرام، أحببت في هذا اليوم السعيد أن أذكركم بولائكم لي، وإخلاصكم لي الذي يطهركم كل يوم من ذنوب القرى التي تنتمون إليها، و يذكركم بعبوديتكم للتماسيح التي خلّصت أولوهو وجعلتنا أسياد النهر طيلة زمن بعيد، لولاكم لما استطاع معبدنا ولا ديننا أن يواصل مجهوده في خدمة التماسيح ولا في الحفاظ على نهرنا السعيد، أنتم من تحافظون على مقامات الشعب، لأنّكم تتشاركون في يوم ميلاد واحد، وتتشاركون في إخلاص واحد فأنتم تتشاركون في روح واحدة أمام أولوهو العظيم.

روح الراهب أنقى روح على الأرض و هي من روح التماسيح بكم تمطر السماء ولأجلكم حصاد كل موسم فكونوا على قدر مسؤوليتكم﴾

هكذا واصل الراهب قراءة الرسالة ثمّ طلب من الفتيات القادمات جديداً الوقوف معاً في صف واحد ليختار أميرة السنة؛ وهو منصب خادمة الجنس لجاكوشا الراهب الكبير، حيث ستلقى معاملة مميزة على مدار حياتها و سيكون لها المجال لكي تدخل غرفته.

جاء الخدم بوشاح أبيض شفاف كبير وأمسكوه من أطرافه ليستطيع جاكوشا الوقوف دون تمكننا من رؤيته، فهو مقدّس لدرجة انه لم يكن مسموحًا لنا ملاحظته حتّى أو التساؤل عن شكله،إلاّ

البعض القليل منـا وعلـى رأسـهم الأميـرات اللائـي يختارهـن كل سنة، على حدّ ما كنت أظنّه إلى ذلكم الحين وقف جاكوشـا وبـدى ظلّه مـن خلف الوشـاح ثم رفـع يـده ليختـار.

اختارنـي أنـا في البدايـة ومـن ثـم بيتـرام، فوقفنـا أسـفل السـلم ننتظـر منـه أن يختـار إحدانـا لتكـون أميـرة السـنة.

أنـا في ثوبـي الأصفـر وبيتـرام في ثوبهـا الأحمـر وكلانـا في خـوف وذعـر، ومـن ثـم رمـى جاكوشـا كـرة تبـدو بلوريـة، فراحـت تتدحـرج ثـم وقفت أمامنـا أنـا وبيتـرام في الوسـط تمامـا وبعـد لحظـات مـن توقفهـا تحركت صـوب بيتـرام فاختارهـا جاكوشـا لتكـون أميـرة السـنة.

وهكـذا كانـت بيتـرام أميـرة وحظيـت بمعاملـة تليـق بشـخص حكيـم ومفكـر طيلـة الوقـت بعدهـا جـاء الخـدم وألبسـت بيتـرام تاجـاً فضيـاً يتوسـطه حجـر أحمـر بـرّاق وصفـق الجميـع لهـا بحـرارة وانظمـت إلـى الأميـرات ولكنّهـا لتـزال كئيبـة منغلقـة علـى جوفهـا لا يبـدو منهـا الاّ الحـزن لـم تفهـم أي بلـوة أخـرى ابتلـت بهـا اليـوم نظـرت إلـيّ بـكل غضـب وكأنّهـا تؤنبنـي بقـوة علـى اختيـار البلـورة لهـا أمـا أنـا فكنـت لازلـت محتـارة في أمـر تلـك البللـورة فمـا الـذي جعلهـا تتحـرك مـن تلقـاء نفسـها وتختـار بيتـرام.

الأميـرات لـم يكـنّ في الحقيقـة سـوى لخدمـة جاكوشـا جنسـياً وغرائزيـاً و كان يختـار كل سـنة طفلـة صغيـرة جديـدة تضـاف إلـى

الحريم لتمتني بهن الأميرات الكبيرات لجعلهن أكثر لذة في الجنس لجاكوشا ذلك الغريب المقدس.

هكذا مرّ يومي الأوّل وأنا في حيرة تماما من نفسي لقد نسيت بسرعة أمر قريتي و نسيت أمّي في تلك الحفلات الراقصة التي أفقدتني صوابي فلم يكن قد مرّ عليّ هناك سوى يوم واحد فقط حيث مازال الاشتياق لم يختر أن يؤلمني بعد. حيث كانت مسافة صغيرة تملأها الضجّة بيني وبين أمّي وقد مر اليوم ببطء وسرعة في نفس الوقت.

عندما وضعت رأسي على الوسادة شعرت بالوحدة و الغربة شعرت بعملية الاستئصال التي فصلتني عن صدر أمي عن عالمي الحقيقي حيث قادتني إلى السراب الملوّن هذا، لا لشيء سوى لخدمة كائنات بأنياب حادة تسمى تماسيح.

استشعرت النعاس من داخلي وقد بدى لي منه صوتا يشبه الصمت وانطفأت تعباً و أنا أغني أغنية الحصاد في قلبي لأخون الوحدة التي اكتنفتني في تلك القلعة الملوّنة والكئيبة.

هلّمي يا مناجل الحب

واحصدي سنابل القمح

بيننا وبين الشمس صوت

فلنقطع معاً هذا الدرب

أحصدوا أحصدوا سنابل القمح

لقد مرّ ذلك اليوم البائس بفرح مزيّف وفلسفة عقيمة لم أفهمها جيدا في ذلك الوقت و لكن مع بزوغ نور اليوم جديد كان لي معود مع حادثة قلبت موازيني العقلية وجعلتني أفهم هذا الواقع المرير.

صباحاً نهضنا مع أوّل سطوع للشمس و خرجنا إلى الغابة، فتحت البوّابة الكبرى وانسدلت علينا ظفائر الشمس المتوهّجة في هذا اليوم الفريد من فصل الشتاء، حيث كان الجو مناسباً جداً لهذه الرحلة الاستكشافية، بيترام كانت في الصف الأوّل مع الأميرات الصغيرات وهنّ يمتطين أحصنة صغيرة، أمّا نحن فقد كنّا نمشي على أقدامنا، ومع ذلك فإنّ هذا لم يشفع لبيترام لتكون سعيدة بذلك، نظرت إليّ مرّة أخرى و بقيت تتأمّلني بنفس الوهج الحزين بين الحين والآخر أمّا أنا فقد كنت أسترق النظر إليها ولحصانها الصغير دون أن تلمحني وأنا أقوم بذلك.

واصلنا المشي إلى أن وصلنا المكان المنشود وقد توقف كل شيء في شعوري عن العمل واستوقفتني الدهشة على غير العادة، حيث ولأوّل مرّة في حياتي أشاهد فيلة أمامي تلعب بالماء بخراطيمها

الطويلة أمام البحيرة تلك وهي تصدر أصواتها المرحّبة بالشمس، وقفت الراهبات وطلبت منّا أن نساعد في تنظيف الفيلة وفي تقديم الأكل لها، لقد طرت فرحا بذلك وتحوّلت أمسي في ذلك الوقت السعيد من المرح ولأوّل مرّة في عداد الموتى، كنت ألمس تلك الفيلة وهي تحضنني بخراطيمها الكبيرة وتدغدغني وأحيانا أخرى تقذف الماء علينا وهي تلهو أمّا نحن فقد كنا نجري هربا ونحن نضحك ونلهو كذلك، حينها تساءلت مع نفسي لما لا نعبد الفيلة الجميلة، لما قد اختاروا التماسيح بالذات هل لأنها أداة مثلى للخوف، فالآلهة التي لا تخيف ليست آلهة بالحجم الكافي لإذعان الشعب كاملاً، ولا يمكن لإله طيب أن يسيطر على الفقراء والمساكين والضعفاء، لا يتمكن من هذا سوى إله متوحش بأنياب طويلة كأنياب التماسيح.

لقد كانت تلك الفيلة مثالا يحتذى فيه في الإندماج الطبيعي، لقد كانت طيبة جدا، تقذف الماء من خراطيمها في السماء فترسم بذلك لوحات جميلة حيث يتمازج الماء مع نور الشمس فتبدو السماء كقطعة زجاج متكسرة يتخلّلها الربيع، لقد عشقت تلك الفيلة وتمنيت لو كانت آلهة عوض تلك التماسيح، وقد علمت بعدها أنّ الفيلة تلك كانت تستخدم لتنقل الرهبان الكبار أو للغزو، كما تستخدم لحوم بعضها لإطعام التماسيح كون لحمها

كان المفضل لديهـا، الطيبـون لإطعـام الأشـرار كالبشـر تمامـا.

أتذكـر إنّـه كان يومـا سـعيداً إلاأنّنـا كنّـا مـع موعـد مـع صدمـة كبيـرة مـع عودتنـا إلـى القلعـة، فحيـث كنّـا شـاردات الذهـن نتذكـر لحظاتنـا مـع تلك الفيلـة وعنـد إقترابنـا مـن البحيرة المليئة بالتماسيح قامـت كوجـرا بإلقـاء نفسـها محاولـة الانتحـار ورحنـا نحـن نصـرخ طلبـا للنجـدة وقالـت إحـدى الراهبـات ببـرود.

لا تخفـن أعزائـي لا تخفـن كوجـرا قـرّرت أن تكون طعامـا للآلهة فلنتمتـع بهـذا المنظـر التعبـدي الخاشـع، ولنسـأل الوهـو العظيـم أن يعطينـا الشـجاعة للتقـرب منـه.

ولكننـا لـم نتوقـف عـن الصـراخ وكوجـرا تقتـرب مـن التماسـيح لإلتهامهـا، في الحقيقـة هـي كانـت تريـد الإنتحـار بطريقـة تحفـظ لهـا مـاء الوجـه ولكـنّ التماسـيح أبـت أكلهـا لقـد حاولـت وحاولـت ولكـن التماسيح لـم تكـن تبـدوا جائعـة فخرجـت كوجـرا مـن البحيـرة تبكـي وأكملنـا طريقنـا وكان شـيئا لـم يكـن وفي غـد ذلك اليـوم حوكم على كوجـرا بالإعـدام لمحاولتها الإنتحـار وتم إلقائها إلى النهـر أمـام جمـوع الرهبـان وفي ذلـك الأسـبوع أيامـا بعـد صـدور الحكـم مـن جاكوشـا قـد شـاهدنا بـأم أعيننـا كوجـرا وهـي تلتهمهـا التماسـيح بـكل وحشـيّة، كانـت تتنـاوب تقطيعهـا، كل تمسـاح يريـد أن يظفـر بقطعـة منهـا وهـي تمزقهـا وتلتـوي عليهـا وقـد تحـول النهـر إلـى اللـون

الأحمر ثم انقشع اللون تدريجيًا، ثم راح الرهبان يصفقون بحرارة وهم يضحكون، كيف للبشر أن يتحولوا إلى كل هذا الحجم من النذالة؟، لقد صدمت حقا في ذلك الوقت ولكن مع تكرار الأمر بين الفينة والأخرى أصبحت أصفق مثل البقيّة وابتسم.

فهكذا يمتص المعبد منك إدراكك للأشياء ويجعل منك عن طريق التكرار والتخويف إنسانا ممحى قد ترى الشر خيرا وقد ترى الخير شرًا بكل قناعة، وتتبخر تساؤلاتك تدريجيا وتلبس لباس الجميع وتتحول مع الوقت إلى فرد من القطيع بكل ذاتية واستقلالية مزيفة، وكما يبدوا لك وبما جرى تصويره لك من مفاهيم وعلى رأسها الحريّة.

الأمر لم يكن غريبا على أولائك الرهبان، فقد كانوا يؤمنون كل الإيمان بعدالة التماسيح تلك، كان يرون في مخيلتهم أولوهو ويصوّرنه بصور مختلفة، وكان ذلك كافيا لاعتبارة حقيقة واعتبار كل كلامه وكلام جاكوشا منزها عن الخطأ، وكانت تلك السنوات التي قضوها في المعبد كافية لتحويلهم إلى دمى ممسوحة العقل والضمير، بعد أن تم تخويفها بما يكفي، وإغرائها بالمكانة الدينية بما يكفي، فأصبح رجال الدين هم أيضا جزء من منظومة المصلحة في بقاء النظام الفاسد كان كل دورهم في ذاك حمايتها بشتى الطرق لتطويع باقي الشعب، متناسين أنّهم هم كذلك جزء

من الشعب، وليسوا سوى أطفالا مختطفين ولدوا في اليوم المحرّم مهما كبروا سنا ومكانة وبطشا.

في نصوص المعبد كانت عقوبة الإنتحار الإعدام، قانون غبي، ولكن هل من مشكّك؟ لا أحد يتجرأ أن يشكك في مصداقية وحكمة الآلهة، مهما كانت تبعد تلك القوانين عن العقلانيّة والعدالة، كان الجميع يبجلها بدعوى أن عقل الإنسان عاجز عن مناقشة الإله، ولكن من يقنعهمْ أنّهم هم من يحاكمون بهذه القوانين الغبية وليست الآلهة؟ ولو حوكمت الآلهة بنفس تلك القواعد التافهة التي وضعتها لأنتفضت ضدّها وقاومتها وتمرّدت عليها، فكوجرا التي حاولت أن تنتحر في حالة ضعف بإلقاء نفسها للتماسيح لكي تظفر بموت يحفظ لها شرفها بالإستشهاد في سبيلها، لم تكن في نفس حالة الضعف والقناعة عندما حوكم عليها بالإعدام رميا لنفس التماسيح،ففي الأولى كانت لتموت كشهيدة، أمّا في الثانية فكمجرمة، في الأولى كانت قد فقدت كل مشاعرها وإدراكها لحياتها، أما في الثانية فقد كانت مدركة للألم الذي ستنزعه أنياب التماسيح تلك في جسدها، فقد شهدناها تترجاهم أن لا يلقوها إلى الآلهة وأنّها لن تعيد الكرّة بعدها ولكن نفّذ الحكم تحت التصفيقات الحارة للرهبان.

وأتذكّر كذلك في قلعة الدين والخوف هذه يوم سقنا إلى الختان، الذكور إلى اليسار، الإناث إلى اليمين. كان للجنسين جزء لبدّ من بتره، جزء إرادت الآلهة خلقه لتستغني عنه لاحقاً، جزء مؤلم جداً أن يقطع بتلك الطريقة المتوحشة، أتذكّر أنّي وضعت في حجر راهبة، حيث أمسكت هي قدماي ورفعتهما عاليا، وأمسك الراهب جزءا من مهبلي وقطعه بالمقص، كان ذلك الجزء الحاد منه يقطع لحمي بكل برود، باسم الدين والعادات، تدخل ذلك المقص حتى في عضوي التناسلي، لقد رأيت بؤس أولوهو في ذلك الوقت، هذا الإله الذي يقلقه مهبلي، كما قد يقلقه أي شيء آخر، مهما كان تافها ويحشر نفسه في كل شيء تقريبا، في المهابل في القضبان، في أي شيء ، جرى الأمر بسرعة، فتحت فخذيا، وقطع المقص ما أراد تقطيعه، وانسكب الألم الفظيع عليّ كينونتي كلّها، وفقدت السيطرة على كل شيء وأغمي علي.

في الحقيقة كان ألم الإنتظار أشد فقد كنت أنتظر دوري مع الأخريات وكنت شاهدة على ألمهن الواحدة تلوى الأخرى، وألم الذكور، الواحد تلوى الآخر هم كذلك، كان الجميع ينتظر دوره وتحوّل اليوم بأكمله إلى حفلة صاخبة من العذاب والألم.

كانت هذه إحدى تلك الطقوس المؤلمة والغبية التي يقنعك المعبد بقوّته الروحية وباسم الدين للقيام بها، لقد كان الرهبان

والراهبات وحدهم المجبرين على الختان دون غيرهم من باقي الشعب وذلك حسب المعبد والدين للإنقاص من شهوتنا الجنسيّة، لأننا كرهبان محرّم علينا الزواج والتناسل، إلاّ من كان منّا طبيبا فله الحق أن ينجب ذكرا واحدا ليعلّمه الطب فأمّا الإناث ممن قد ينجب فيلقون إلى النهر.

بعد عملية الختان تلك وُضعنا كلنا على أسرّتنا وحظينا بالعناية، أمّا ما بتر من أعضائنا فقد تم جمعه ومن ثم طهيه وقُدّم كقطع مجمعة الى فم التماسيح الشرهة، وهكذا نكون قد قدّمنا عربوننا الأول لتلك الآلهة الجائعة، وأوّل فداء نقدمه لها كان تلك القطع من أجسادنا وكل ذلك الألم الفظيع.

مازلت أحرّك هذا القارب الخشبي، المزدري والمقدّس في نفس الوقت، التالف والفاسد، الطيب والشرّير، المتواضع للتماسيح والمترفع على البشر. كذلك المعبد القذر الموجود في أعلى الجبل، وأنا أدفع بذلك الراهب القذر هو الآخر النتن كرائحة دينه الدموي إلى الأمام وأنا أجدف وكأنّني أطمن النهر ذاك وقدسيّته وأحشر المجاديف تلك فيه وكأنّها سكاكين في صدر ذاك الدين المتعفن الذي قضم الكثير من لحوم الطيبين، وكان فكري يتصبّب عرقا، يتصبّب أسئلة حول حقيقة هذا الدين الشرس، متصلبة ومتشنجة في عروق تلك المرأة البادية على جبهتها أثناء ولادة الموت، رأس

الطفل كان كبيراً جداً، كبير لدرجة أنّه قد قتل أمّه، ولم تسعه فتحة مهبلها الكبيرة على الخروج، وكان عليّ أن أفكر في ألف طريقة لإنقاذه مجدّداً، طريقة ما تجعلني أمسك حبلاً سرياً آخر لأرميه في وجه هذا الراهب مجدّداً بكل احتقار لإنقاذ هذا القاتل البريء الذي لم يكن ذنبه سوى أنّه استوصل من جسد ميّتة، من جثة اقتربت من التعفن في لحظته الأولى الغير مرئية، لإنقاذ ذاك الرضيع الذي قتل أمّه برأسه الكبير الذي تكوّن بأحشائها، رأسه الكبير الذي كان أداة مثالية للقتل، نفس الرأس الذي قد يجعله وجبة للتماسيح، نفس التماسيح التي نصفق لها وهي تقرقع عضامنا بين فكيها وهي تمضغنا بهدوء، وتمتص الحياة من فجوات آلامنا بين صرخة وصرخة أضعف منها، تمضغ وجودنا وكينونتنا، وتجعلنا وضعين لدرجة أن نلقي أنفسنا لها كلما شعرت بالجوع وكلّما شعرنا بالإيمان.

الإيمان هو تلك القناعة العمياء، أي الغير قادرة على الإبصار أي إدراك الوهم دون إدراك وهمه، موكب من العمى والصم والبكم يتجهون إلى عمق المأساة، إلى خيالات يرسمها العجز ويكفر عنها الجهل، إنها ظل الضعف البشري.

أي مراسيم طهارة هذه التي تجعلنا نلقي طفلاً صغيراً رضيعاً إلى التماسيح المتوحشة لالتهامه ؟ أو نرميهم للرهبان وليحولوهم

إلى نسخ متكررة عن نفس المسخ الديني؟ المسخ الديني الذي في كل المؤمنين، العبيد، المتذللين، الجهلة والمجرمين.

هذه التماسيح التي يزداد عددها بكثرة على حساب لحوم الضعفاء وآلامهم، هؤلاء الضعفاء الذين يصدقون التصديق الأعمى بقدسية التماسيح و ألوهيتها، ويقدّمون أجسادهم قربانا لها لتظفر بمكان مريح بجانبها في السماء لتلتهمهم مجددا ودائما كانت أمّي تعيش بداخلي، أمّي التي لم تقل شيئا بعد أن اختفت في السراب وهي تناديني بكل ندم، لم تفارقني صورتها أبدا، كنت دائما أجري ورائها في حقل القمح، في موطني حيث السنابل تراقص الشمس، أمّي التي حرمت منها بعد أن أصبحت راهبة بالمعبد فقدت قلادتها التي كان تذكاري الوحيد لها بعد أن خطفها هذا الراهب من رقبتي وألقاها بالبئر ونحن صغارا، أتذكر أنّي جريت ورائه لاستردادها ولكن بدون جدوى، ترجّوته و تأمّلني وهو يضحك ومن ثم ألقاها إلى لارجعة بالبئر، ثم وضع الراهب الكبير يده على كتفه وهو يربت عليه معبرا عن امتنانه لما قام به، كنت أتأملهما وأنا أبكي، كان مشهدهما يتضبب بين ألسنة دموعي الحارة، كنت أحترق من الداخل، كنت أتفحم، أكثر من هذا كنت أمحى، أمحى نهائيا كألجا ابنة كيشاريتي، كنت أتحوّل تدريجيا إلى ألجا ابنة المعبد، أتحوّل الى معبد بشري وأنا أرى

مـا تبقـى مـن أمـي يغـرق بالبئـر كمـا غـرق كل الشـعب ذاك غياهـب الجهـل والقمـع الذاتـي، كنـت أشـعر بالمـاء وهـو يختـرق رئتـي كسـيوف مسـننة وكأنّـي كنـت القـلادة تلـك وكأنهـا كانـت أداتـي للتنفـس، كنـت أغـرق معهـا، أغـرق فيهـا، أغـرق في هـذا الواقـع المتحجـر وقـد دنـوت إلـى حقيقتـي بعيـدا عـن أمـي كطفلـة ولـدت في اليـوم المحـرّم ليـس إلاّ، وبكيـت إلـى أن انطفـأت طفولتـي ونسـيت أنـي أنـا أنـا، وغـدى المعبـد كل مـا أعرفـه عـن نفسـي، كل مـا أدركـه مـن وجـودي، ومُسِـحتُ حينهـا وانتهـى اسـمي... أصبحـت الراهبـة.

كان لبـدّ لهـم أن يخطفونـي مـن كل شـيء، حتـى مـن ذاكرتـي، مـن خيالـي، مـن أمـي ورائحتهـا، مـن ذلـك الجـزء مـن مهبلـي الـذي بُتـر، مـن شـهوتي ومـن إرادتـي وبراءتـي وحتـى مـن يـوم ولادتـي، ومـن قلادتـي حتّـى، كان يجـب أن أغـرق كخنفسـاء عميـاء..

لا شـيء كان يجـب أن يبقـى حـرّا بداخلـي، كان يجـب أن أتحـوّل إلـى مسـخ كالبقيـة، أطبّـق كل الأوامـر مهمـا كانـت تبـدو غبيـة وشـريرة وأنـا أسـتلذّها، ولأفعـل ذلـك كان عليهـم محـوي وإبعـادي عـن أي ذكـرى تذكرنـي بإنسـانيتي وبكونـي مخطوفـة مـن قبـل مجرمـين يتسـترون وراء الخرافـات الدينيـة لكـي أتحـوّل أنـا الأخـرى أيضـا يومـا مـا إلـى مجرمـة مثلهـم، أخطـف الأطفـال و ألقـي الأبريـاء إلـى الجحيـم.

لا، لا يمكن أبداً للحقيقة أن تكون بين أنياب الألم، الحقيقة في شغف الشك والبحث، والأسئلة المتمرّدة التي تخرج من قشرة العقول كتنين ملتهب يخرج من بيضة صغيرة.. ولكن كم هو صعب أن تقول لا في وجه كل أولائك الذين يقولون نعم، نعم لكل شيء حتى للقهر والإضطهاد، حتى لإلقائهم طعاماً للتماسيح نظير إيمانهم بها.

فبين الأسنان الحادة لتلك التماسيح المتوحشة حشرت تلك القرى والمدن على أطراف النهر، وأصبحت عاجزة عن التفكير لا تستطيع الإستقلال عنها، فحيث كانت القرى تتلذذ بهضمها وتمزيقها على التواء التماسيح، وكأنّ الواحد منهم يولد لكي يرمى يوماً ما لها في كل الأحوال، كانت التماسيح تلك تتكاثر طبيعياً وفي سلام تعيش حياة الملوك ولا تأبه كثيراً لغذائها، مادام للأغبياء لحم رخيص، حياة وضيعة يقدّمونها لها تبركا من لاشيء ولـلاّ شيء.

هكذا استطاع المعبد أن يسيطر على كل القرى والمدن في جداول النهر ويحوّل الانسان إلى كائن مقموع، معصوب العينين، غائب عن وجوده، ومغيّب عن فكره، مغيب حتى عن اسمه واستقلالية شخصه، وكان المعبد يلقي بسمومه الفكرية لتتشعب في قصبات النهر وخلجانه، يتكاثر فيه كما تتكاثر التماسيح وكلّما

زادت هيبتها، والغريب أن أولائك المُقمّعون كانوا أشدّ الناس دفاعا عن الدين وعن التماسيح وتبجيلا لها.

وهذا الراهب الطبيب الذي أمامي كان حالة تفسيريّة عن الانصياع التام، الاستسلام المطلق للمعبد ولقوانينه ومقدّساته، فهو لم يولد في اليوم المحرّم مثلا، بل ولد في يوم الحظ، كان الابن الأوّل لأحد أطباء المعبد فكان عليه أن يرث الطب عن أبيه وأمّا وكل أخوته من جاء من بعده عن طريق الخطأ قد ألقي إلى النهر لتأكله التماسيح ذكرا كان أو أنثى، إذ لم يكن مسموحا للأطباء الإنجاب سوى طفلا واحدا وذكرا.

لم يرى هذا الراهب والذي يسمى (بيشان) أي سقف في طفولته سوى سقف المعبد وكان ذلك السقف أقصى أمانيه، أعلى فكره وأخمص إيمانه، وكان من جزيل الشكر أن يقدّم إخلاصه لآلهة اختارته أن يعيش من دون كل أخوته وأن تحوّله إلى راهب طبيب، يحرص على تمجيده لذات الآلهة وأن يقدّم إسعافاته الأولية لمن يؤمن بها وأن يلقي ببعض الأطفال إلى النهر بدم بارد لينقذ فيهم مراسيم الطهارة.

لقد كان ينفذ الأوامر ويحرص على تطبيق قوانين المعبد بحذافيرها، وكان لا يتحمل رؤية التماسيح وهي جائعة، كان ذلك يؤلمه كثيرا، كانت تلك التماسيح كل أخوته فروحهم تسكنها كما

تسكنه روح أولوهو، ذلك الصنم الكبير الذي قيل لنا أنه يرانا وإن لم نكن نراه، أولوهو الذي سمعت اسمه يوما ما في صراخ عجوز الفيت للتماسيح وهي تترجاه بصوت عالي أن ينقذها منهم وهو الذي أمر بأن تلقى إليهم في كتابه المقدّس.

بيشان، كان يؤمن بكل جوارحه بعدالة ما يقوم به، بعدالة أن يقتل بعض الأطفال، وأن يحيي بعضهم، فحسبه أولوهو الذي أمر بعلاج الفقراء هذا الإله الطيب الذي حرّم السرقة و القتل على الناس أكثر حكمة وطيبة من أن لا يكون عادلا في قتلهم، فإن أمر بإلقاء طفل ما لتمساح لأكله فهو حتما أدرى بما هو افضل له وبالتأكيد سيحتويه في رحمته بعد الموت، فهكذا يخلط الدين سمومه القاتلة في بعض المثاليات الطيّبة، فيخلط على عقل الإنسان كل شيء فيصبح عاجزاً عن التمييز بين الخير والشر ويصبح آلة لتنفيذ إرادة الآلهة.

ولكن كان لبيشان نقطة ضعفه، ذلك الجزء من الإنسان الذي سمح له المعبد أن يبقيه، لقد كانت شهوته وعواطفه على قدر هام من الحياة..

كان مسموحا لبيشان الزواج لينجب طفلا ليعلمه الطب ليضمن استمرارية نسل الأطبّاء هذا على عكس باقي الرهبان وكان عليه أن يختار من الراهبات زوجة له، لقد كان هذا جزء

مـن قوانـين المعبـد التـي كان عليـه تطبيقهـا، وكنـت أنـا الفتـاة المتيّـم بغرامهـا.

فبعـد أن ألقـى بقلادتـي الـى البئـر وشـاهدني أبكـي بـكل تلـك الحرقـة وهـو سـعيد بانجـازه الـذي طلـب منـه القيـام بـه، تحـرّك فضوله حينهـا لمعرفـة سبب بكائي الشديد على قـلادة كان بإمكاني أن أتحصّل علـى واحـدة أحسـن منهـا مـن قبِـل المعبـد، وعنـدمـا علـم أنّهـا التـذكار الوحيـد لـي مـن أمّـي تحرّكت مشاعره وخرجـت إنسـانيته مـن جوفـه ليؤنبـه ضميـره بعدهـا وليتحـوّل منـذ ذلـك الوقـت إلـى بيشـان الـذي يعشـق الجـا ولكنّـي كرهتـه منـذ تلـك اللحظـة ولـم يكـن بإمكانـي أبـداً أن أتخيّـل نفسـي معشـوقته.

لقـد كانـت أقصـى أمانيـه إلـى هـذه اللحظـة أن آخـذه في صـدري وأن أسـامحه، أن أغفـر لـه إلقـاء قلادتـي في البئـر لكـن مـاذا عـن الأطفـال الذيـن ألقاهـم للتماسـيح هـل يمكننـي أن أغفـر لـه هـذا أيضـا؟

ولكن مـا ذنبـه؟ فهـو لـم يكـن سـوى منفـذاً لأوامـر عليـا، قيـل لـه أنّهـا قـد نزلـت مـن السـماء فصـدّق، وكأنّ السـماء قـد فتحـت يومـا فاهـا وطلبت منّـا أن نقـدّس التماسـيح وأن نلقـي أنفسـنا لهـا، ولكنّهـا لـم تفعـل، كل مـا هنـاك أنّنـا ورثنـا الإيمـان والخـوف مـن أبائنـا وهـم قـد ورثـوا نفـس الشـيء عـن أبائهـم، مـن أقـوال وكتـب وصلـت لنـا

بالتكرار والخنوع وصدّقناها بدون دليل،كهذا الراهب الذي ادفعه الأن في النهر، النهر الذي نحمل له الكثير من الوقار ويحمل لنا الكثير من التماسيح ، وفي غفلة مني يوما ما وأنا أضع زهور اللوتس فوق جثمان الماء الراقد تحت تمثال الآله الجاثم في صمت كاي صخرة أخرى وأنا أعطر المكان وأضع بعض الزيت لقناديل الجمال المزيّف والحقيقة الكاذبة، أمسكني بيشان في الركن الحجري من معبد أولوهو الصغير. أمسكني في الزاوية الأرجوانية الضوء خلف الأقواس بين لون شعاع القناديل الحيّة و فتاة ضوء القمر، ومدّ يده إلى خصري وتأمّل صدري بكل تشهي بعد أن أوصد الأبواب دفعته بقوّة ثم أمسكني مجددا ودفعني في الماء، كنت أنتظر منه إغتصابي الاّ انّه تاملني كطفل صغير وقال لي:

﴿اقسم لك باولوهو انّي أحبك يا ألجا ارجوك اقبلي الزواج مني، لم أكن أعلم وأنا صغير إنّها قلادة امّك صدقيني، الراهب هو من دفعني إلى ذلك﴾

تأمّلته بشفقة واحتقار وطلبت منه ان يبتعد عنّي فحاول تقبيلي وحين رفضت رفعني بقوّة إليه وهو يحضنني ومن ثمّ راح يتحسّس جسدي وحين حاولت الفرار أوصد باقي الرهبان الحرّاس ما تبقّى من الأبواب وغلّقوها وراح هو يترجاني، يبكي، يتشهاني، يضعف امامي و يتجبر، يحاول المرور إلى روحي ليخطفها في

جسده، كان يحاول بكلّ قوّته أن ينتشل القلادة من أعماقي وأن يكفر عن ذنبه بجعلي زوجته، أو بالأحرى أم الطفل الأول الذي سيصير طبيبا كأبيه، وباقي الأطفال الذين سيرمون إلى التماسيح لتلتهمهم، لم يكن بإمكاني أبدا أن أقبل الزواج منه، أولا لأنّي أكرهه، أكره فيه تلك الصورة حبيسة ذهني وهو يلقي بقلادة أمي إلى البشر، وثانيا لأنّي لن أقبل أبدا بإلقاء أبنائي أحياء لتلتهمهم تلك التماسيح اللعينة، وما كان أسوء من ذلك في تخيلاتي أن أحبس ابني الى الأبد في هذه القلعة الكريهة وأن أجعل منه رجل دين هو الآخر يلقي بالأطفال إلى النهر أو يخطفهم من حياتهم في رحلة استعباد مقدّسة.

لقد عمل المعبد والرهبان على مساعدته على الإيقاع بي في شراك حبّه، إنهم ينفذون خطتهم في السيطرة على الولادة والموت، في الحياة والفكر والعواطف والغرائز، كنّا ملك للمعبد، للسلطة، وكان عليهم دراسة العقل البشري للتحكم به، كان لبدّ لبيشان من زوجة كغيره من الأطبّاء وكان عليه أن يختار فاختارني، وكان على المعبد بالمقابل مساعدته على ربط جسور العاطفة والثقة بينه وبيني، لم يكن جديرا بالمعبد أن يجبرني على الزواج منه، كان عليّ أن أرضى بذلك، بإرادتي المطلقة، كي لا يتربّى الكره والحقد في أعماقي ضد المعبد، وذلك لكي لا أنجبٌ ابنا متمرداً على السلطة فيما بعد وهكذا عمل المعبد على إبقائي بالقرب

من بيشان لاتعوّد عليه ولكي تبني العواطف نفسها شيئا فشيئا بداخلي اتجاهه، وها أنا الآن أعمل كمساعدة له، أسافر معه في مهمّاته في قرى النهر المختلفة يقوم بتوليد بعض الأمّهات، يداوي بعض المرضى، يلقي بالبعض الآخر إلى النهر ويطعم التماسيح من بقايا لحوم البشر ويحرس على علاجها هي الأخرى أيضا وإن كان يلزمها لذلك بعض لحوم البشر حسب قناعاته وما تعلم من خرافات المعبد، فيكفيه أن يعلن عن حاجته للتبرّع باللحم البشري لتمساح مريض، فيقوم الأهالي بالتبرّع بأبنائهم أو حتى بأنفسهم لها.

إنّ هذه المنظومة التي نعيشها هنا أشبه ما تكون بمناعة من السيطرة السياسيّة باستعمال الدين والتحكم بزمام الأمور في السلطة عن طريق نسج الوهم وكذلك التحكم في عقول البشر وطريقة تفكيرهم، فللسيطرة السياسية أنت تحتاج للمال والقوّة وأمّا للسيطرة الفكرية فأنت تحتاج لدين، لمقدّس ما، لإله، لشيء ما تزرعه بداخل الإنسان، لا أحد سيكون في غنى عن المطالبة بحقّه في الحياة إلاّ إن كان مخدّراً، أشد انتباه لأوهامه وموروثاته من انتباهه لوجوده، لحياته، لعقله، لحريّته، لا شيء سيكبح الحيوان الذي بداخلنا واجعله يختار القفص بيديه سوى استعمال هذه القدرة البشرية على التخيّل، بالتأكيد تخيّل القفص، تخيل الأغلال، ومن ثمّ تخيل أننا لا نستطيع الحياة دونها.

الأمر سهل، استبدل الإنسان بالتمساح،بالقرد، بالكلب، بأي حيوان آخر أو حتى فكرة أو معلومة أو تاريخ، استبدل الحياة بالنهر، بالمقدّس، بالموت، ازرع الخوف بداخل جموع الشعب واجعلهم يحمونه، كأداة مثلى للبقاء، للدفاع عن النفس، امنحهم السكين الذي يطعنون به أنفسهم وابتعد عنهم حتى لا تدنس ردائك بدمائهم، تحكّم في الجنس، في الدين، في العقل، في الحوار في كل شيء، اجعل الانسان يشعر أنّه لا يمكنه أن يكتب رسالة حياته بيديه، لا يستطيع أن يكتب أبسط حروفها حتّى بمفرده، اجعله يربط وجوده بخرافات أخرى، اجعله ينسى أنّه مستقل، امنحه حياة أخرى وهمية ليتناسى ويتكاسل عن حياته الحقيقية، خذ منه ثرواته واجعله يصدق أنها ذهبت لخدمة الآلهة،لخدمة التمساح، ويجعله يتوهم ذلك الصندوق الإدخاري الذي سيضع فيه كلّ تضحيّاته ليجدها فيما بعد في الجنّة.

أين هو الإنسان من كل هذا؟ من كل هذه التماسيح المتكاثرة، المتوحشة والشرسة؟ الزوحية والمقدّسة؟ الملتهمة لوجود الانسان... والتي تذيبه في الجماعة المغيّبة، في المجتمع الموحد في كائن واحد معصوب العينين والإرادة، يروضه الحاكم كما يشاء.

متى ينهض الوحش؟ ويتفتت إلى شموس كبيرة، مضيئة، ويكسر سوط المستفيدين من نومه، من هذه الغبطة الغير سويّة في وجه نفسه، من هذا التنكر لمخالبه، من قوّته، من الفرد بداخله، ومن نور عقله.

من يضربه ضربة السوط الأخيرة؟ ليفتح عينيه ليرى الحاكم صغيراً، ليضعه في مكانه الحقيقي ولتتبخر مخاوفه كدوائر من دخان، كسراب غيمة تتلاشى في عديم الصمت، من هذا الذي يجعله يفهم دور الإنسان بداخله يجعله أقوى، يجعله مبصراً مجدداً، في أن يزيل تلك القماشة السوداء التي ربطت على عينيه، لا شيء البتة بإمكانه أن يوقظ الوحش من عبوديته عندما يكون الحارس هو ذاته الوحش.

لم يسرق المعبد الأطفال فقط، لم يروّض الوحش فقط، بل سرق عقولهم، وجعلهم ينساقون وراء صورة مصنّعة عن عالم مفسر بالمقلوب، وراء رواية مفبركة، زاوية مشنقة ومحرقة من الحياة، حول تفسير سحري لذات لحياة، ومن خلال إرخاء وتر الوجود وجعله يتهاوى في بقعة دنية من التخلف، جاكوشا القائد والراهب الأعظم الذي لم أره في حياتي، لم يره أحد على الإطلاق، لا هو ولا أولوهو الصنم الأكبر المختبئ حول ستارة الضوء في المعبد الأعلى الذي لم يكن يحق لنا الاقتراب من مجده، هذا الصنم الكبير الذي قيل لنا أنه يتكلم ويضيء، وأحياناً يغضب، لم يكن مسموحاً سوى لكبار الرهبان مشاهدته.

لقد سيطر جاكوشا على الجميع، وجعلهم دمى متحركة لحماية حكمه ونظامه، وسخّر الآلهة لصالحه، لم يكن أولوهو

سوى خاتمـا في إصبعـه، في إصبـع السـلطة السياسـية وأهدافهـا، في يد المقربـين والمسـتفدين مـن بقـاء النظـام والمنظومـة الفاسـدان، ولأجـل ذلـك كان علـى التماسـيح دائمـا أن تكـون مقدّسـة ومخيفـة اكثـر واكثـر.

ومـن جملةِ قوانينهـم المريضـة التـي تقـوم علـى الظلـم والأكاذيب وحمايـة لنظـام ديانـة التماسـيح والصنـم الأكبـر الـذي لا إلـه في خيالنـا سـواه، لا إلـه في أحلامنـا سـواه، لا إلـه في آلامنـا سـواه، لا إلـه في منظومتنـا سـواه، كانـت عقوبـة إهانـة التمسـاح، أو نقـد الديـن أو المنظومـة، أو الكفـر بهـا، هـو أن يعلـق المـزدري وسـط قريتـه أو مدينتـه وأن يقطـع لحمـه تدريجيـا مـن قبـل المؤمنـين، قطـع صغيـرة كل يـوم وأن تقـدم أمـام ناظريـه للتماسـيح، وأن تعالـج جروحـه كل يـوم ليعيـش أطـول مـدّة ممكنـة ليتعـذب بالألـم اكثـر وأكثـر وليكـون عبـرة للآخريـن.

ومـن غرائـب هـذا القانـون، أنّـي شـاهدت أمًا تقطـع لحـم ابنهـا الكبيـر وتقـذ القانـون بيدهـا وهـي تبكـي متوسّـلة ابنهـا أن يصبـر وهـي تؤكـد لـه أن هـذا سيشـفع لـه وسـيغفر لـه خطيـاه لكـي يعيـش حيـاة سـعيدة بعـد المـوت وأن يتخطـى العقـاب في الحيـاة الأخـرى، الحيـاة الأخـرى التـي لـم يكـن يؤمـن بهـا أصـلا.

لقد زرعت المنظومة الفاسدة وتجذّرت في العقليّات، الكل يعيش على نفس النمط دون أن يسأل نفسه لماذا عليه هذا؟ لماذا عليه أن يبقى مذلولا ومستعبداً إلى ما لانهاية؟ هو ومن ثمّ أبنائه ومن ثم أبنائهم ومن ثم أحفادهم وهكذا التماسيح أوّلاً ثمّ المعبد ثمّ الإنسان، إلى متى؟ إلى أن يموت جاكوشا؟ ولكن جاكوشا لا يموت، فقد نفخ أولوهو روح الأبديّة فيه، فهو هنا نفسه جاكوشا منذ قدومي للمعبد وقبلي ولأجيال عديدة منذ أن قدّست التماسيح إلى يومنا هذا البائس نعم جاكوشا لا يموت، حتى أنا كنت مقتنعة بهذة الفكرة، جاكوشا يعيش إلى الأبد، ستلتهمنا التماسيح الواحد تلو الآخر وسيبقى هو لكي يحمل كتاب أفعالنا بيديه المقدستين ليمنحه إلى أولوهو.

جاكوشا الذي لا نراه، ما الذي يضمن لنا وجوده أصلا، صورته خلف الستار ليختار أميرته الجديدة من أطفال اليوم المحرّم لتمتعه بالجنس لاحقا؟ أم من خلال وجوده على قيد الحياة كل هذا الأزل من الزمان في خيالاتنا وذاكرتنا الجماعية، وماذا إذا ما كان موجوداً فعلا إلا إنه مع وفاة كل جاكوشا يأتون بجاكوشا جديد إلينا دون أن ندري بوفاة الأوّل ما دمنا لم نره أبداً ولا نعرف شكله ولا صوته، من سيشعر أنه قد استبدل لنا الراهب الأكبر بعد وفاته في الوقت الذي نكون فيه منهكين في تقديسنا للتماسيح

تلك جاكوشا كان الإله الحي في هذه الفوضى الدينية، كان الصوت البشري لأولوهو، أولوهو ابن التماسيح، كان جاكوشا،أو بالأحرى هذه النسخة منه التي أعايشها الآن وأحاول أن أتعايش معها لكي أضمن لنفسي مكانا بعيدا عن أنياب التماسيح ولكي لا أصير طعاما لها، كان متجبرا، لا يرحم، لا يتوانى عن سحق أي محاولة للتمرّد على نظامه، ومن خططه الشريرة المحكمة التي كان من خلالها يسيطر على القطيع أن يخلق المعارضة التي يشاؤها ومن ثم يقوم بمحوها لتخويف أي معارضة حقيقية تنوي البروز...

جاكوشا لم يكن غبيا على الإطلاق كان يعرف جيدا كيف يتحكم بالفرد ومن خلاله يتحكم في الجماعة فيجعلها تتحكم في الفرد مجددا، كان يمحو الفرد ثم يجعله ينخرط في الوجود الجمعوي ثم يجعله نظاماً ثابتاً لمحو الفرد مجددا وتغويل الجماعة، وهكذا يبقى هو الفرد الوحيد، الفرد القوي الذي يمسك الأغلال في يده ويشدّ وثاق الوحش الكبير، ويربط القناع عليه و يعصب القماشة على عينيه، جاكوشا كان رمز الاستبداد المقدّس، رمز الجلاّد الذي يعشقه المستعبدون في الأرض سوى لأنّهم قيل لهم تكرار مكرّرا أنه لسان أولوهو في الأرض...

ومازلت أجدف بالقارب الخشبي، وبيشان يتأملني بتشهي وغضب، مع تكرار رفضي له أصبح ماكرا جدا، يحملني على

القيام باشياء رغما عنّي، كان أحمل أشياء ثقيلة على كاهلي أو أن أجدف بالقارب كأسلوب انتقامي منّي ولكي يجعلني أرضخ لمطالبه واقبل الزواج منه، كنت أتأمله أحيانا بحقد وأحيانا أخرى بشفقة، وأحيانا بهما معا وكان وجهه يمحي بداخلي كل شيء، لطالما جسّد المحو لي، لقد كان هو المحو/ المسح/ التلاشي/ الإنعدام...

فمنذ أن محى ذلك الجزء منّي وأنا صغيرة إلى يومنا هذا وأنا أراه على هذه الطريقة، لم يكن بمقدوري أن أصنع صورة أخرى عنه، إذ لم يكبر بعد مازال ذلك الطفل الطائش والغبي بداخله الذي يفرح بنجاحه في تنفيذ المهمات الموكلة له من طرف المعبد يطفو فوقه كشرود نصفي لقوّاد كبير، ورغما عنه، رغما عن المحو الذي فيه...

كانت طريق العودة للقلعة عامرة بالذكريات، عامرة بالتفكير، لا أعرف لما صورة ذلك الطفل ذي الرأس الكبير بقيت حبيسة عقلي؟ لا أعرف كيف استطاعت أن تسحب قلادتي من داخلي؟ من أسفل البئر الواقع بتجاويفي الداخلية، من ذلك البعيع المريض الذي ما فتأ أن انفجر في صورته، لا أعلم لما جعلتني يا طفلي العزمز أثور هكذا؟ لقد شاهدت بأم عيني العديد من مراسيم الطهارة من أطفال قبله ولكن لم أكن لأتحمل رؤية هذا الطفل بالذات مضغة في فم تمساح شره، ربّما لرأسه الكبير الذي

استطاع أن يملأ كل عواطفي، أو أنّه كان القطرة التي أفضت الكأس، القطرة التي جعلت بركاني ينفجر في وجه كل شيء لمحو كل شيء، لمحو المحو، لأكتبني مجددا...

لقد أمسكت السكين وشققت بطنها، بطن الأم الميّتة، الجثّة التي حاولت أن تعانق ابنها، شققتها، تحركت قطرات الدم في السماء، خرج التمساح بداخلي إلى عليائه وامتطاني ريح صرمدي، خيال امرأة كانت يوما ما طفلة صغيرة في حجر أمّها العجوز، سحبته كما أسحب الماء من بئر القلادة، انتشلته من الموت، كان يجب عليه أن يعيش، كان يجب عليه أن يواصل، فهو يحمل روحين روحه وروح الأم، كان عليّ أن أحميه من الراهب ومن المعبد ومن الدين ومن التماسيح، لقد كان على أولوهو أن يغلق فمه هذه المرّة وأن يسمعني، كان عليه أن يختبيء في معبده أن يخجل من هذه الروح البريئة، كان على أولوهو أن يقف عند حده هذه المرّة وأن يصفق لي وأنا أزدريه وأزدري مقدساته اللعينة، وقوانينه المريضة، كان على كل شيء أن يختفي وأن يغدو الكون شفافاً من كل شيء إلا من حياته كحق أزلي للإنسان، لكل كائن حي، لا لم أرى في حياتي مقدساً أكبر من قدسية تلك الحياة.

ولكن لماذا كانت الحياة بذلك السمر الزهيد في كل ذلك الغلاء الديني؟ في وسط هذا الجو الرهيب من الخنوع والسيطرة المطبقة علينا من قبل معبد لا يعرف قيمة لشيء سوى لقوانينه وأفكاره،

لك الخرافات المقدّسة والتي قد جعل الجميع يصدقونها، يؤمنون بها وجعلهم يتخلّون عن حياتهم لصالحها، الحياة لم تكن سوى ممراً إلى العالم الآخر انطلاقا من ألم المضغ والطحن والتقطيع من بوابة الموت المحتم، أفواه التماسيح...

لكل إنسان تمساح أو اثنان أو ثلاثة أو ربّما أكثر، لقد كان واحد منّا يولد وهو محاط بتلك الوحوش الخضراء ولا يعرف طريق الخلاص منها سوى لها، وما أبشع أن نخلص أنفسنا منها لقاء فلذات أكبادنا لها بتوريثها الخنوع والخضوع...

عند وصولنا مجدّدا للمعبد وقد وضعت قدما يلتوي على ضيته المبلّطة بعد أن ارتفعنا في سلاله كما يرتقي الموت و أنا أمّل جدرانه كسجن كبير تأملني بيشان وقاطع شرودي وقال لي كأنّه يهددني: ﴿لقد شتمت المعبد اليوم، وأنت تعلمين عقوبة شتم المعبد أليس كذلك؟﴾

لقد رأيت في وجهه في ذلك الوقت حجماً رهيباً من الخبث واللؤم، لم أشأ أن أرد عليه فتجاهلته، فأعاد صياغة كلامه بطريقة أخرى: حسنا، أظنّك كراهية تعلمين العقوبة المؤلمة لشتم المعبد، وأنت تعلمين بالظبط بأنّ عقوبة الرهاب أكبر من عقوبة باقي الشعب، فأنت في مكانة أعلى منهم، وما هو عقوبة لهم هو أشد عليك، أظنك لا تجهلين هذا! أليس كذلك عزيزتي؟

تجاهلته مرّة أخرى وواصلت السير غير آبهة بتحرّشاته تلك، تملكه بعض الغضب:﴿ عندما أحدثك عليك أن تحادثني أنا الطبيب هنا وأنت مساعدتي أيتها المزدرية الكافرة﴾

رددت عليه بكلمة واحدة (اسكت) لم أستطع أن أرد أكثر من ذلك...

ثارت ثائرته في ذلك الوقت ولم يجد نفسه سوى محدّثا لي بما في جعبته من مشاعر: لا أكترث لك يا ألجا ولا لأزدرائك ولكنك ستصبحين زوجتي رغما عنك وإن رفضتي ساخبر المعبد بالإزدراء الذي قمت به اليوم، فإما أن تكوني زوجتي أو لتنتهي حياتك في فم التماسيح أقسم باولوهو اني سافعل هذا!...

لا أخفي أنّي شعرت بالخوف حينها، ولكني مثلت عكس ذلك، لم أكن واثقة أنه سيفعل هذا حقا ورددت عليه: افعل ما تشاء، لست أخاف منك، أفضل أن أصير لحما مقطعا لتلك التماسيح على أن أصير زوجة لك...

ومن ثمّ واصلت المشي ولم أفهم أي شيء من أقواله بعدها أما ومن لكنته وسحنته المريضة المريضة كنت أرى الموت، أرى جهل هذا الشعب وبؤس منظومته الأخلاقية، أرى فيه الحقد والشر الديني الأعمى، فقد كان قذرا روحيا لكي لا أتوغّل أكثر.

وصف قبحه الروحي، فقد كانت الأرواح الشريرة تخرج من نصف جبهته المقعرة كوجه ضفدع على أشكال مشوّهة لأبشع الأشياء في الوجود.كان يبدوا غاضبا جدا، انتشر الشيطان في محياه وانقلب الراهب إلى تمساح، إلى غول، كان علي أن افترش الأرض وأن أقبل قدماه وأنا اترجّاه أن يغفر لي ولكنّي لم أفعل، ولكنّي لم آبه، لم أعطه أكثر من القيمة التي لطالما قدّمتها له،كقوّاد للمعبد، كقوّاد للسلطة، لشخص لا يشبهني تماما، كشخص ولد من مهبل المعبد وقوانينه، هذا القوّاد الذي تفنّن في القوادة حتّى أصبح محترفا فيها، إنه رجل الدين القوّاد، وان لم يصل بعد رسميًا لدرجة القوّاد...

دخلت المعبد وجلست مع بيترام في باحته، بيترام التي كبرت بما يكفي لتتحدث، لتنطق ما عجزت عن نطقه صغيرة، لا عجب هنا فحتى الحجارة قد تنطق، إنه القهر الملزم، لقد سئمت الصمت لتختزل نظرة الحزن القديمة تلك في ذكرى طفولة ماضية، هي التي أصبحت أميرة، أو بالأحرى جسد لمتعة جاكوشا الجنسيّة، ساعدها الأمر لكي تهتم بجمالها كأنثى كل دورها أن تكون أنثى أكثر وأكثر، كانت لها بشرة جد رطبة وجميلة وملابس من حرير، كانت الأميرات الكبيرات في السن يهتممن بها كما يهتممن بالأميرات الصغيرات وجمالهن وغذائهن، كنّ يقدمن لهن

أدوية وعقاقير تزيد من حجم الأثداء والمؤخرات، وتحسن من شكل المهابل كما تهتم لشكلهن الخارجي وملابسهن وتصرفاتهن، ونادرا ما كانت الأميرات تقمن بعمل ما، لم يكن دورهن في الحياة سوى متعة جاكوشا، جاكوشا الذي لا يحق لهن وصفه للآخرين...

جلست معها وقصصت لها حادثة الطفل صاحب الرأس الكبير، شاهدت هي مهبلها بكبرياء ثم قالت لي: ﴿يا ريتني كنت أمّه، لعلي انصرف شريفة من هذه الحياة الملعونة، انظري لحالتي ألجا، لست سوى أداة رخيصة للجنس، لست سوى مهبلا جاهزا للالتهام، كلنا نؤكل هنا كل شخص على طريقته، بعضنا تأكله التماسيح والبعض الآخر يأكله جاكوشا﴾

تنهدت أنا ثم قلت لها: ﴿أوَ ليس أهونا أن يأكلك هو بطريقته وتبقين على قيد الحياة من إن تأكلك التماسيح وتقطعك جزءً وراء الآخر﴾

ردت هي بسرعة:

﴿بل على العكس يا ألجا، في كل مرّة ينام معي ذلك المارد المقنّع، شبح الدين ذاك، يأتيني تمساح ضخم في مخيّلتي يأكل أعصابي وخطوط الحياة بروحي، يقتلني مع كل لعقة، مع كل لمسة، أتفتت أنا وأتحول إلى سرير، إلى مقبرة لجثثه الشهوية الهارية

من جسده، رائحته الكريهة تذكرني بمآسي هذا الشعب المحنّط، يتاهب جلدي في كل لحظة في الانفصال عني كافعى تموت إلى الأبد، وجودي بقربه يحطمني كليا، يلسعني كالعقارب العطشى، يقطع عني الطمث، يجعلني سلما لامتطاء شهوته ليس إلاّ، ومن ثمّ أتذكّر كيف سرقت من حضن أمي صغيرة، لقد رفضت أمي تقديمي للراهب وخبئتني في خن الدجاج لكن أبي حال بيني وبين الاختباء، لقد ادعت أمي موتي وأعادني أبي إلى الحياة، إلى هذه الحياة التافهة، لقد خاف معصية الآلهة، سحبني بالقوة وقدّمني للراهب في حين أنا كنت أبكي محطّمة كليًا، سقطت أمي على ركبتيها بعد أن فقدت القدرة على الوقوف بعد أن قيّدها أبي بسلاسل الحديد من قدمها اليسرى، قد حاولت فلعها من قدمها الدامية من شدة محاولتها البائسة وبقيت أصرخ منادية لها: أمّي انقذيني انقذيني، أمّا أبي فكان يضحك مبتسما، أخوتي الثلاث الصغار أيضا وقفوا عند النهر يتأملونني باستغراب، لم يعلم أحد فيهم وجهتي، وحين تلاشى كل شيء، وساد صمت رهيب وصوت المجاديف قد اضمحل غديرا من البؤس وصور التماسيح المتحركة أمامنا كملائكة الموت البطيء، انطفأ في وجهي كل شيء وعدت أحسب نفسي في عداد الأموات، وعندما وصلت إلى هذا المعبد الكبير فقدت قدرتي على الحديث بصوت مرتفع، كل ما كان يبدو من صوتي الداخلي لم يكن سوى همسات تشبه الاستسلام، لأسأل

نفسي ما قد جنيت على هذا العالم لأستحق كل هذا الألم؟ كنت قد حوّلت حينها إلى عاهرة لجاكوشا وأنا طفلة صغيرة لإشباع غرائزه الحيوانية القذرة. لقد أصبحت راهبة بالجنس لكي أفوز برضا التماسيح أليس ظلم هذا يا الجا﴾

لم يسعفني لساني لأجيبها، لقد استمعت لهذه القصّة آلاف المرّات وكنت في كل مرّة ترددها أستمع لها إلى النهاية وكأنها المرّة الأولى لكي لا أزيد نقمي على جرحها ذاك واصلت هي محدّثة:

﴿عندما وقفت تلك الكرة الزجاجيّة عند أصابع قدمي تلوّن العالم في جسمي بلون غير معروف الهوية يميل للون الرصاص ولكنه ليس هو ذاته اللون. ساد ظلام أسود روحي وتلاشت قريتي في تلك الكرة التي تشبه شهقة الموت، تناولت نفسي ونظرت في عينيك هل تتذكّرين، لقد ودّعت طفولتي حينها في النظر إليك، كنتِ حينها تشبهين ريحا صلصالا عند مغيب الشمس. كل ما في ذاتي كان قد حال بيني وبين قدرتي على تحسّس الوجود، وضع ذلك التاج فوق رأسي كخدعة أبديّة، كان ثقله أشبه بثقل الجبال المحيطة بالقلعة. شعرت أني أُلبست المعبد على رأسي ثم حالت الحفلة إلى ساعات صمت و وجع، وبعدها أصبحت أداة مجانية للجنس، أصبحت جلدا، مهبلا، أثداء، مؤخرة، أمّا أنا فأصبحت حينها لاشيء سوى خادمة جنس، خادمة بغاء، كنت ملزمة على هذا وإلاّ فكنت لأحضر غضب الآلهة علي وعلى قريتي وعائلتي

أينما كانت، غضب الآلهة التي لم تكن سوى أدواتهم القمعية، حرّاسهم وتماسيحهم، صدّقتهم في البداية وفيما بعد لم يعد يخيفني سوى أن أمضغ يوما ما في فم تمساح بالرغم من أنني افضل هذا على غرقي في عرق ولعاب والسوائل الأخرى للراهب الكبير، صدقاً لا أعرف ما يشدني في هذه الحياة ولا سبب بقائي على هذه الحالة﴾

تأملتها قليلا وعانقتها ثم واصلت هي الحديث وهي تشدني من أكتافي:

﴿ألجا... ان أحسست فعلا أنك ملزمة بإنقاذ ذلك الطفل أنقذيه، سيكون هذا أوّل قرار تتخذينه في وجه هذه الهيمنة التسلطيّة. لن تنقذيه فقط بل ستنقذين نفسك من قيدها، انقذيه يا ألجا اجعليه ابنا لك، لعلّ رأسه الكبير يكسر هذا الحقد الديني ضد البشر هنا، لا تستسلمي يا ألجا أنقذيه﴾

شدت يداي بكلتا يداها ثم نادتها الراهبة الأكبر سنّا لأخذها لجلسة دهن المهبل بالزيت والتعطير وتلميع الأظافر أمّا أنا فجلست في الباحة مدة من الزمن وصوتها يتردد في جحافل رأسي المظطربة وبين الصدغ والآخر (أنقذيه لعلّ رأسه الكبير يكسر هذا الحقد الديني ضد البشر).

ولعلّ رأسه الكبير سيكسر جبروت هذه القلعة التسلطيّة الحيوانية المتشبثة في أرواحنا بمخالبها الدينيّة، لعلّ رأسه الكبير يفتح لنا أبواب الحياة ويقضي على هذا البؤس الذي انتشر في تنفسنا وفينا كصبّار شوكي...

لعلّ رأسه الكبير يعيد لي قلادتي من ذلك البئر الذي اختطف طفولتي فيه، لعلّه يعيد لي أمي وعائلتي وحقل القمح ذاك، فأجري فيه ثانية كحبة قمح لا تغادره أبداً، لعلّه يعيد الروح إلى كل أولائك القتلى الذين مضغوا في فم التماسيح، لعلّه يعيد النهر إلى أصحابه مجدّدا فيعود منسابًا يسقي العطشى ولا يقتلهم بإلقائهم للتماسيح...

لقد كان في الرأس الكبير ذاك لغز ما، سر ما كان على معرفته، شعوري الغريب الذي انتابني فجأة وأنا أحمله جعلني عاجزة عن الصمت كان يعطيني شجاعة غير عادية في الدفاع عن الحياة، أي حياة كانت، لقد تصوّر لي كبحر شاسع، لم أكن أريد الغرق فيه ولكنني كنت أحاول الغوص لأكتشفه، هذا الطفل الذي يملك من الأعماق ما يكفيه ليحبسني في تموجه على رغبتي في الاحتفاظ به وتبنيه، ما كان عليه أن يموت، كان عليه أن يعيش، لقد قرأت هذا في رسمة وجهه وصراخه والهواء يدخل صدره أوّل مرّة، اقسم أنه ولد لكي يعيش، لم تكذب تلك التماسيح أكثر من

هـذا اليوم، نعم بيتـرام علـى حق علـيّ إنقـاذه مـن هـؤلاء الرهبـان المرضـى، مـن هـذا المـرض الـذي يسـمى دينـا، مـن هـذه الآلهـة التي لـم تـرى فينـا بشـرا، لـم ترنـا سـوى طعامـا لهـا ولتماسيحها اللعينـة...

ربمـا قـد كنـت شـاهدة عيـان علـى أزيـد مـن مئتـي طهـارة في حياتي ككل، أطفـال رضّـع أبريـاء مضغـوا في صمـت تحت التصفيقات الحـارة للجماهيـر، بعض الأطفـال كان يجـد الأمـر مسليا كان يصعـد الأشـجار ليشـاهد عمليـة القتل المقدّسـة تلك، بعض الأمّهـات كنّ يخفـن أطفالهـن بإلقائهـن كذلـك الرضيـع، الأخريـات كـنّ يفريـن أطفالهـن بإلقائهـم لنفـس التمسـاح، وبعـد كل عمليـة مـن هـذه يخـر المشـاهدون سـجدا ليشـكروا الآلهـة علـى نعمـة التماسـيح...

مـازال بيشـان يهدّدنـي بإفشـاء ازدرائـي للمعبـد وكفـري بالديـن لكبـار الرهّبـان، مـازال يحـاول إجبـاري علـى زواج منـه، أرادنـي أن أحمل في بطنـي طفـلاً آخـر يحبس بين جدران هـذا المعبـد، لما؟ لكي يقدّس التماسيح ويبجلهـا ولكـي يعبـد النهـر ويحرّمـه ولكـي يتفكّـر في أولوهـو ويتمتّـع بإيمانـه بـه، نفـس الإيمـان الـذي لطالمـا جعلنـا شـعبا متخلفـا، جائعـاً، فقيـراً...

لقـد كان لصاحـب الـرأس الكبيـر الفضـل في جعلـي أنظـر لأعماقـي مجـدّدا، في جعلـي أبحـث عن معنـى لوجـودي وحياتـي، لقـد جعلنـي أكتشـف عواطفـي بعـد أن سـرقها المعبـد منـي طيلـة كل تلـك

السنين التي خلت، لقد جعلني أزدري الدين والقانون لأوّل مرة في حياتي، أن ازدري هذه السلطة التحكّمية التي سخّرت كل شيء لصالح بقائها، وأن أتخلّص أيضًا من عقدة الخوف من الآلهة، من التماسيح، من خيال البؤس الذي لطالما كان حبيس مداخلي إلى عالم السواد، الظالم الدامس الذي انجلى من الظلمات ليسكنني بدلا عنها، لقد رأيت فيه الحياة، في رأسه، في جسده، في قلبه الذي كنت استشعر نبضاته في موت أمّه، في عينيه اللتان لامستا الضوء بتحسّس بالغ، بمحبة معطاءة، بسلام هادي، وفي التماسيح الشرهة التي تنتظره لقمة لأبنائها بفارغ الصبر...

ووقع ما كان في الحسبان، نفّذ بيشان وعده، قرأ تهديده على مسامعي ثم انصرف برتله على كبار الرهبان، لقد كنت حينها في سريري أفُكّر في طريقة ما قد أتمكن من خلالها من انقاذ صاحب الرأس الكبير، حين جاءتني كوستا طالبة مني مرافقتها، نهضت متوترة متوقعة نهايتي، وعند وصولي إلى الباب، وجدت الرهبان الحرّاس ينتظرونني بالأغلال، حرّاس طوال القامة شداد البنية، يتغمدهم البشع في رجيم قبحه، حيث يتم تشويه وجوههم بشكل عمدي على شكل نصفي بعد أن يتم اختيارهم وهم صغار ليكونوا رهبانا حرّاسا بعدها، أمسكوني من يدي ووضعوا الأغلال فيهما وقادوني بقوّة إلى مخفر التحقيق، هناك جلست على كرسي

صغير، يدنوا من الأرض، في حين كانوا هم يجلسون على كراسي عالية، وبعد لحظات دخل رئيس الحرّاس وقال لي:

﴿نحن نحترم الحريّة العقائدية يا ألجا، فأنت تعلمين أن ديننا السمح يضمن الحريّة للآخرين، فديننا هو دين العدالة﴾

أجبت أنا بخوف بالغ وأسناني تصطكّ باحثة عن حبل ما لقطعه والفرار:

﴿بالطبع، ديننا دين الرحمة والمحبة﴾

فقال الحارس محاولاً الإيقاع بي في الفخ:

﴿تكلّمي بحريّة نحن لسنا هنا للحكم عليكِ. يمكنك أن تقولي ما تريدن، سنحاول فقط أن نثبت لك بالطرق الوديّة أنّك مخطئة وبالجدال والكلمة الحسنة﴾

لم أرتح لكلامهم البتّة، ولكن كان علي أن أتصرّف بوقار، التزمت الصمت ثم قال لي أحدهم: ﴿حسنًا دون إطالة لما سببت المعبد؟ وسببت الدين؟ هلَ أشفقت على الطفل المحرّم على الحياة؟ كيف تجرأتِ وسببت المعبد بهذه الطريقة؟ هل فقدتي إيمانك؟ هل تؤمنين بدين آخر الاّ دين التماسيح؟﴾

فأجبت أنا: ﴿لا على الإطلاق كل ولائي للمعبد﴾

سرعان ما تلوّن وجه الحارس واقترب للون الدم، ثمّ انفجر فجأة في وجهي كيقطينة فاسدة: ﴿هل أنا أبله لهذه الدرجة لأصدّقك؟﴾ ثمّ شدّ شعري وهو يصرخ:﴿أيتها الكافرة الملعونة، يا عديمة الشرف والإيمان، هل تشفقين على طفل رضيع؟ على إنسان؟ و من ثم كيف ستعيش التماسيح المقدسة المسكينة بلا لحوم البشر؟ هل وصلت بك عفونة الأخلاق لكي تمنعي لحم البشر عن آلهتنا؟﴾ ثمّ بصق في وجهي وضربني بكف يده على خدّي كأنه يهشم الحديد ثم واصل صارخاً: ﴿آه يا كافرة، لو أعذّبك كل أنواع العذاب لن يكون ذلك كافياً ولن يشفي غليلي، كيف تسبين الدين؟ أي قلب لديك؟﴾

انهرت باكية ورحت أسب المعبد والآلهة وكل شيء تقريبا :
﴿فليذهب معبدكم إلى الجحيم وكذلك تلك التماسيح اللعينة، فليذهب جاكوشا نفسه إلى الجحيم، أتمنى موتكم لكي نرتاح منكم، اللعنة على النهر وما جاء به، اللعنة على أولوهو وخرافاته، اللعنة عليك أنت أيضا﴾

إنهال علي ضربا مبرحا: ﴿هل تسبين جاكوشا يا كلبة؟ هل تسبين الناطق باسم الرب؟ يا أيتها الكافرة اللعينة﴾

ثم راح أحدهم يسألني بعد أن سقطت مخضبة بالدم: ﴿من هو جاكوشا بالنسبة لكِ يا كلبة؟ قولي﴾

رددت أنا بصوت ضعيف أونا ازدريه وامسح بكرامته مؤخرة الشعب: ﴿ قضيب﴾

سألني مجدّدا :﴿أسمعي صوتك من هو جاكوشا بالنسبة لك﴾

فأجبت مجدّدا: ﴿قضيب، مجرّد قضيب، ليس إلاّ قضيب﴾

رد الحارس : ﴿هل جننتي يا كلبة هل جننتي؟؟ ﴾

ثمّ أمسكني حارس آخر من شعري وسألني : ﴿وما هي التماسيح وهل يحق لها أن تأكل الإنسان؟؟﴾

فأجبته أنا بلا تردد : ﴿التماسيح ليست سوى حيوانات ولا يحق لها أن تأكل الإنسان﴾

اندهش الجميع من إجابتي ثم راحو يتباكون على مقدساتهم: ﴿إنها تزدري ديننا، يا رب منك المغفرة، ما هذا الكفر والحقد على الدين، إنها كافرة، سيحرقك الرب في ناره وسيرسل عليك تماسيحاً طائرة تلتهمك﴾

أمّا أنا فرحت أضحك غير آبهة لما يقوله ثمّ أمر كبيرهم الحرّاس لوضعي في السجن الإنفرادي مردّداً: ﴿لا عقل لها، كيف تفكّر؟ من خلقنا إذن؟ اغفري لنا أيتها التماسيح المقدّسة، لا إله إلاّ الصنم، لا إله إلاّ الصنم...﴾

لم أفهم سبب كل تلك الأسئلة، ما الفائدة المرجوّة منها ما داموا سينفّذون عقابهم الذي يريدونه منذ البداية، مهما حاولت أن أدافع عن نفسي، قرار جاكوشا هو الذي سينفّذ وبفعلتي هذه بشتمه ساكون أبشع مجرمة في تاريخ المعبد وسيكون بذلك جاكوشا حاقدا لا محالة، فجاكوشا لا يرحم أبدا، لا يرحم أحدا، هو أقدس من القداسة ذاتها هنا...

مرّت أيّامي في السجن الإنفرادي تعيسة وحزينة تتخلّلها جلسات التعذيب والاستنطاق، استنطاق لازدراء كانوا يعرفونه منذ البداية وكنت في كل مرّة أشتمهم و أشتم جميع مقدّساتهم، و لم يكن في وسعي سوى أن أفعل هذا، لقد ربّوا كرها عظيما بداخلي اتجاه المعبد، لم أعد أرى فيه سوى أداة كبيرة للقهر والظلم وللإبقاء على المنظومة الإجتماعيّة الفاشلة، لم أكن أرى فيه سوى دوّامة من الخرافات تبتلع الضعفاء بداخلها، لقد كرهت هذا الدين، لابأس بذلك كرهته، أين المشكلة في هذا؟! كرهته شعورياً ولم أعد أصدّقه عقليًا، هل يريدونني أن أقتنع بشيء لا أقتنع به أصلاً أن أفعل الفعل ونقيضه في نفس الوقت...

المعبد يريدنا كائنات ناطقة بنصوصه، مفكّرة بنصوصه، مسقّفة في حدوده، محدودة القرار، قاصرة، ناقصة عقل، تافهة، لم يكن يريد بشرا، كان يريد أجسادا تتبع، أعداد تُستعبد وتنفّذ فقط، كان يريد بهائما ناطقة لا شيء أكثر من هذا، أمّا أنا

فقد قطعت الحبل من رقبتي فوضعت في هذا السجن، وكنت أفكّر دائما في طريقة ما للفرار للهرب، لا لشيء سوى لإنقاذ الرضيع صاحب الرأس الكبير، ولا آبه أن مت بعدها أو التهمتني التماسيح، كنت أفكر دائما في حل ما لأجله، لأجل روحه النقيّة، لكي أمنحه الحياة التي يستحقها في وجه هذه الفوضى المسماة دينا، وفي لحظات العذاب و السجن تلك تم اقتيادي فجأة دون أخطار سابق بعيدها إلى المحاكمة، المحاكمة الصورية، المحاكمة الرهبانية، المحاكمة الظالمة كآلاف المحاكمات...

دخلت غرفة المحاكمة، غرفة رمادية بلون يقترب للسواد يعلوها رأس تمساح كبير بفم مفتوح أنياب طويلة و أقراط على جانبيه على شكل ميزان تدنو جهة منهما إلى الأرض وتماثيل رخامية لصيقة جدرانه، تجسّد رابطة الإنسان بالآلهة، كأجساد بشرية برؤوس تماسيح كبيرة ومخيفة، لماذا؟، لمحاكمة فكر، محاكمة عقل، محاكمة بتهمة محاولة إنقاذ رضيع، محاولة إنقاذ بذرة أمل، بذرة حياة، بذرة تغيير، لقد كانت المحكمة أشبه بغرفة لتكديس جثث الموتى ينبعث منها صمغ الموت الأكيد، لقد رأيت في جدرانها آلام الشعب وأنياب الجهل، تذكّرت كل تلك المحاكمات التي اقتادت الأبرياء إلى بطون الوحوش الخضراء، كانت قاعة طويلة فارغة يتقدّمها مجلس من كبار القضاة ورهبان، يتوسطهم القاضي الأكبر الذي لم أستطع أن أرى وجهه جيداً بسبب الخمار

الخشن الذي كان يضعه على رأسه والذي كان يلقي بظلامه على وجهه، ورهبان يتزينون بألبسة وأوشحة اللون البنفسجي يزين كل لباس منهم وشاح أسود وعقد ذهبي خشن يحمل رأس تمساح كذلك، انّها محاكمة رهبانية، دينية، لقد مسست بكرامة المعبد وكان علي أن أقبل المساس بكرامة العقل والإنسان، وزيادة عن كل هذا فتهمتي الأكبر المساس بحق التماسيح في أكل لحم الإنسان، وشتمها، وشتم جاكوشا القائد في جلسة التحقيق...

بدى كل شيء متجمدا بداخلي، متجمدة بشكل كلي إلاّ تلك الصورة التي بقيت حبيسة عقلي وعواطفي وأنا أسحب الطفل الرضيع من بطن أمّه المشقوق، لقد كانت تلك الصورة الجزء الوحيد الذي يمدّني بالحرارة والشجاعة، وقفت أمام القاضي، وقفت صلبة وقد تجرّعت ما يكفيني من الاضطهاد لأتحوّل لحجر، نظر إلي بنصف وجه، سألني: ﴿من هو الرب الذي تؤمنين به؟﴾ أجبته جوابا ملتويا قد يورّطه هو الآخر في مشكلة أكبر: ﴿ربّي هو جاكوشا﴾

احمرّ وجه القاضي ولم يجد مخرجا للسانه في في جوابي إذ لم تحدّد طبيعة القائد...

ديانة التماسيح، لم يقل لنا أحد من هو جاكوشا ما هي طبيعته؟؟ فهو لا يَموت، لا يُرى، لا نسمع له صوتاً تقريبا، لم يَقُل

لنـا أحـدٌ إن كان بشـرًا أم آلهـة، لا يوجـد في الكتـاب المقـدّس نـصّ يذكـر هـذا أو ينفيـه...

هل هـو إلـه؟ فهـو مقـدّس بنفس الطريقـة. هل هـو بشـر؟ ربّمـا، لا يمكـن لأحـد أن يجـزم ماهيـة جاكوشـا. لا يمكـن لأحـد ان يثبـت أنّـه بشـري مثلنـا ولا يمكـن لأحـد أن ينكـر أنّـه آلهـة. كان شيئًا مـا بين الاثنين أو معًا، أو لا شـيء البتّة. السـؤال نفسـه قد يكون ازدراء بشـكل مـا فمـا إدراك كيـف سـتعتبر الإجابـة؟ وربّمـا كشـكل متوتـر مـن أشـكال الازدراء هـي الأخـرى أو أكثـر مـن ذلـك بكثيـر. إن قـال القاضـي أنّ جاكوشـا آلهـة يكون بذلـك قـد قـال شيئًا لا يوجـد في الديـن وهـو بذلـك قـد أسـاء للديـن وتقـوّل عليـه بمـا لـم يقـل، وإن انكـر عنـه الألوهيـة يكـون بذلـك قـد أهـان جاكوشـا وأسـاء إليـه بإنـكار صفـة لـم ينكرهـا عليـه الديـن ذاتـه بنـص صريـح...

احمّر وجهه أكثر وأكثر وتصبّب عرقًا وقرّر أن يسألني سؤالا آخر عوض الإجابة: ﴿هل تؤمنين أن لا إله إلاّ الصنم، رب التماسيح المقدّسة والنهر العظيم؟﴾

أجبته غير متردّدة: ﴿سيّدي القاضي في هذا النهر الساكن والقرى الضنكى، في هذا التخلّف القاتم والظلم السائد، ليس هناك من إله سوى الصنم، لو تغيّرت الشروط ستتغير هذه النتيجة التي لم تكن يوما سببًا، ستتغير المفاهيم وسيغدو الصنم حجرا

فيغدو الإنسان حياةً، سيّدي القاضي ما من إله عادل يرضى أن يُرمى الأطفال الرضّع إلى التماسيح، ما من إله يرضى بهذا سوى إله من حجر، إله مزروع بداخلنا بالقوّة، يختفي أثناء صلواتنا ليظهر عند معاصينا ليذكّرنا بوجوده، عالمنا لا يحتاج لإله بعين مثقوبة تمتص هواء العالم إلى جوف صورته عوض أن يتجلى من خلالها عدلا في البسيطة هذه، أنّ الأفكار سيّدي القاضي لا تحبس في قوالب دينية توارثيّة، الأفكار سيّدي كالطبيعة تأبى الفراغ، لا شيء في الفكر البشري قابل للتأطير بهذا الشكل المفجع من الكهنوت الديني والتزمّت والسيطرة عن طريق التخويف﴾

ثمّ سألني القاضي إذ يبدوا عليه التوتّر قائلا: ﴿ألجا تكراهية تعلمين عقوبة ازدراء المعبد، وأنت تعلمين أيضا إنّك كراهية عقوبتك ستكون اقصى من العقوبة العادية، أظنّك تعلمين هذا، فأنت ملك للمبعد من يوم ولادتك في اليوم المحرّم وله الحق في أن يفعل فيك ما يشاء﴾

أجبته أنا بقلب صلب وإرادة حازمة في التحرّر:﴿ كلّكم تتحدّثون عن ازدراء الدين، مذا عن ازدراء الإنسان؟ ازدراء كرامته؟ ازدراء عقله بخرافاتكم التي تطلونها بصباغ الحكمة الكاذبة والخدع العمياء التي لا تعرف أهدافا محدّدة لها، تنطلق كرؤوس الشياطين بعفوية وعشوائيّة، تختار من أبناء الشعب ضحايا لها

بالقرعة برمي حجر النرد، بالإحتمال، مذا قد يعني الدين أمام الإنسان؟ فبإمكان هذا الأخير أن يتألّم وأن يشعر بالمعاناة وهي تنخر عظامه، بما قد يشعر الدين؟ لا شيء، الدين ما هو إلاّ مجموعة من الأفكار التي توارثاها وحرستها القوّة البشريّة كأسوار هذه القلعة الضخمة وبؤسها القاتم، ومحاكمتكم هذه خير دليل على الغلق الذي جعلتموه إطارًا حول الأفكار الدينية ممّا جعلها تنفذ في كل جيل وإلى الجيل الذي يليه بسلاسة تامة غير آبهة بكرامة الإنسان ولا بفكره المجدّد... السيّد القاضي ليس هناك ازدراء أكبر من ازدراء الذكاء البشري وطمس معالم الحريّة الفكريّة فيه، ومن هنا من هذه المحاكمة الظالمة أعلن أني قد كفرت بالجهل الذي قد تفشّى بأبناء شعبي وأعلن رفضي لرمي البشر للتماسيح، لسنا طعاما لتلك الوحوش المقدّسة، نحن بشر بأفكارنا وحريّتنا وكرامتنا، نحن من يجب أن يقدّس، الحياة ما يجب أن تقدّس﴾

قال القاضي وكأنّه لم يفهم سوى ذلك الإعتراف الضمني في قولي: ﴿إذن أنت تكفرين بالدين وتعلنين هذا صراحة وتضعين الإنسان في درجة أعلى من التمساح؟ من هذا! المقدس العظيم والذي ولولاه لما كنّا اليوم على قيد الحياة، وبذلك أنت تدعين الجماهير الشعبية إلى التمرّد على الدين والنظام، أليس كذلك؟﴾

اجبته وكلّي عزم وقوّة: ﴿نعم الإنسان أعلى درجة من التمساح، أعلى درجة من المقدّس، أعلى درجة من هذه القلعة، أعلى درجة حتّى من جاكوشا المسيطر، لبدّ لهذه اللوحة المخيفة التي رُسِمت في أذهاننا عن إنسانيتنا أن تتجلي، النظام ليس سوى مجموعة مصالح وأمّا الدين والقانون فليما سوى إحدى الأدوات التي تمتلكها السلطة للحفاظ عليها، هذا الدين الذي استطاع أن يقنعنا بأن نرمي أنفسنا طعاما للتماسيح، يستطيع أن يقنعنا بما هو أسوء، كما بإمكانه أن يقنعنا بضعفنا وباحتقارنا لأنفسنا لصالح مجموعة من الإنتهازيين الذين يختبؤون ورائه بشتى الطرق، سيدي القاضي أن كانت إرادتي هذه في تحرير الإنسان وعقله من قيود الجماعات الشريرة والأفكار البالية جريمة، فانا فخورة بارتكابها، ساقف أمام اي حكم بقوّة وجبروت كالتمرّد العاصف في وجه الأحصنة المقنّعة بأقمشة الذل والمهانة والمسرّجة ببؤس شعبي الهجين من خرافة انتكاسيّة وأفق فكري مسدود صنعه بؤس المنظومة﴾

سالني القاضي متعجبًا: ﴿ماذا تقصدين ببؤس المنظومة؟﴾

فاجبت: ﴿المنظومة الإجتماعيّة التي احتضنها الشعب وقدّسها، وهي المزيج السياسي والإجتماعي والديني الذي فرض على الشعب في البداية وجوبا فاصبح مع تزوير المعطيات أمامه

وبالوراثة والتكرار حارساً عليها، إنّها المنظومة الفاشلة التي تخيّر الإنسان بين الغباء والحياة، فتشجّع الرداءة وتكسّر العقول وتقتلها، هذه المنظومة التي لم تخرج لنا سوى الثورات الهدّامة التي لا تزيد سوى من بؤس الإنسان، هذه الطريقة السيئة في المشي على وتر الحياة، والتي تجعل من تقاليد الشعب البالية قوانينا تتم حمايتها بالشكل الكافي التي يجعلها أسلوبا متواصلا في الحياة يمنع بناء أي وعي فكري حر يعيد الحقوق لأصحابها ويعيد النهر لشعبه، سيّدي القاضي لقد وجد المعبد شعبا ذليلاً فزاده ذُلاً، ووجد في التماسيح خوفا شديدا فقدّسها، بالخوف فقط فرض المعبد واقعه، و بالتكرار والوراثة من جيل لجيل اكتسب ذلك الخوف قداسته﴾

حاول الرهبان إسكاتي حينها، ثم قاطعني القاضي متسائلا:
﴿من علّمك هذا؟!﴾

أجبته: ﴿الإضطهاد، الخوف، الظلم، لقد جعلتم معبدكم يقف في وجه غريزتي في حب البقاء، وعقلي في المقاومة، وقدرتي على الصبر والتحمّل، جعلتم الدين ضعيفاً أمام طفل رضيع لم يتحمّل بقائه على قيد الحياة فحاول المعبد رميه إلى التماسيح، جعلتموني الاحظ بعين ناقدة عوض ذلك الإيمان السلبي والتافه والذي يجعلني أخفض رأسي في كل مرّة لكل أنواع الظلم والخرافات،

وأن أصدّق بفم مفتوح كل تلك الأكاذيب المقدّسة والتي اكتسبت بروزها فينا من خلال الدين وجبروت المعبد وتماسيحه، في كل مرّة أسمع فيها كلمة مقدّس أو تقديس تأتيني مرادفات الكلمة في عجالة إلى عقلي، تلتهم هدوئي، إنّها الركود، العفونة، الطمس، الإلغاء، التحرّش، الكراهية، التذمّر، الخوف، الموت، القتل، الدمار، التجمّد... كل هذه المفردات وأخرى تتجمع في عقلي لكي تطلب منّي أن أقوم بشيئين مختلفين، أن أثور أو أن أركع، أو أن أبقى حبيسة الوسط، منافقة استجمع مصالحي الخاصة و أفرّ إلى ذاتي وأنانيتي بعدها، أتقوقع على طريقة القرفصاء في كهوف الزيف والتحنيط، ضاحكة على كل أولائك الأغبياء الذين استفدت من غبائهم مثلما يفعل الكثيرون هنا باسم الدين، وبينما أزدري المعبد بداخلي، وأشكره على مصالحي الخاصة والضيّقة... أنتم رأيتم الآلهة في التماسيح في الحجارة في الأصنام الحجريّة والخياليّة بينما أنا رأيتها في بطون الجوعى وقهر المظلومين، رأيتم الآلهة في السماء بينما أنا رأيتها في الأرض في توسّل الفقراء في عقول العلماء الذين قطعتم ألسنتهم، أنا من هذه الأرض من هذا النهر الذي لي ولست له، أمّا هذا المعبد فقد اختطفني من طفولتي من براءتي من ذاتي وعلّمني كره الآخر وازدرائه، يوم أخذني الراهب من حضن أمّي، من حقل القمح، من السماء التي كانت بعيدة جدا فوق رأسي، والبسني الأساور في يدي تعلّمت

حينها أنّ المعبد لم يكن سوى أساورا وتماسيح، وحينها استبدلت السماء البعيدة بسقف المعبد كنت حينها راهبة وكلّما صرت أكثر تديّنا كان السقف يدنو أكثر وأكثر﴾

﴿ما كل هذا الحقد على الدين وكأنّ الشيطان ذاته يتحدّث هنا﴾ قال ذلك القاضي بكل غاضب ﴿لم أرى في حياتي من هو أشدّ حقدا على المقدّسات مثلك وكأنّك لم تكوني أبداً راهبة، تحملين في قلبك أحقاداً دفينة منذ طفولتك، ولا تشفقين أبداً على الهتنا، وعلى تماسيحنا المقدّسة وتستخسرين فيها لحما بشرياً تافهاً، ألا لعنة أولوهو عليك، سانطق الحكم بعد مشاورة الرهبان﴾

لقد جرى الأمر بسرعة، شققت بطن الأمّ الميّتة، انقذت الطفل من أنياب التماسيح، عدت إلى المعبد ورفضت الزواج مجدّدا من بيشان، تمّ تقديمي إلى التحقيق وها أنا الآن انتظر الحكم الذي في أحسن الأحوال سيكون تقطيعا للحمي وتقديمه للتماسيح..

إنتظرت ببرود تام، لقد قلت ما كان في جعبتي من آراء وأفكار كإنسان وكراهبة سابقة، وأن تتمرد الراهبة على المعبد فسيكون لذلك بالتأكيد أثره على الشعب، من يكترث بعد الآن لموته على أنياب التماسيح أليس ذلك بأرحم من الموت على وقع الجهل والزيف؟ المهم والأهم أنّي قلت آرائي بحريّة وبصدق ولتذهب روحي بعد ذلك كما تشاء هي للجنة أو الجحيم.

دخل القاضي ومعه الرهبان وسألني للمرّة الأخيرة: ﴿هل هناك ما تريدين إضافته إلى أقوالك أيضاً﴾

لقد كان يحمل الحكم في يده ولم أكن أتوقع أبداً الرحمة من معبد يرمي الرضّع للتماسيح، التماسيح الحيوانية أو البشريّة، وخاصة بعد أن صدرت منّي كل تلك الأفكار فبقائي تهديد خطير للمنظومة وللنظام فأجبته: ﴿نعم لدي ما أضيفه .. اللعنة عليك أنت أيضاً و على القضاء الذي يحمي الأقوياء ويتقوّى على الضعفاء والذي يختبيء وراء الدين لحماية مصالح شرذمة صغيرة من المتنفعين، هذا القضاء الظالم والمتجبر لا يستحق سوى اللعنة وكذلك أنت.. ما هذه الآلهة الضعيفة التي تحتاج قاضياً ليدافع عنها ويجعلها طرفاً كالطرف البشري في محاكمة؟!﴾

صرخ القاضي ﴿خسئتي يا كافرة ﴾ ثم فتح الورقة بسرعة وراح يقرأ الحكم:

﴿باسم الصنم الأكبر، باسم أولوهو العظيم، باسم الذات الإلهية العظيمة التي خلقت هذا النهر الكبير، باسم التماسيح المقدّسة والعادلة، باسم روح ميريما العظيمة، وباسم جاكوشا الذي فوّضني ناطقاً بالحكم، حكمت عليكِ المحكمة –الراهبة ألجا ابنة كيشاريتي- بالحرق حيّة إلى الموت بعد الصلب وأن تواصل النار حرقها لجثّتكِ بعد الموت كل يوم إلى أن تتحوّل الى

د وضيع ينشر بين جميع قرى ومدن النهر على تشعباته لكي
نـي عبـرى لـكل العُصـاة ومـن يـنوون ولـو سـرًا عصيـان الآلهـة
حيمـة والعادلـة، ليكـون رمـادك دوائهـم لأمراضهـم النفسـيّة
لازدراء، وحتى لا يدنس شرف التمساح بعد الآن، على أن ينفّذ
كم بعد غد في نفس يوم مراسيم الطهارة من الرضيع المحرّم
ى الحياة في نفس المكان في قرية ميهتابا.. انتهى الحكم﴾ ثم
لنـي بحقـد وقـال لـي:

﴿سنرى إن كان لسانك القذر هذا سيكون بمقدوره أن يتفوّه
ت الكلمات البذيئة عن الدين بعد الحرق، وسنرى الملك وعذابك
ت تحترقين و أنت تتأمّلين عذاب الرضيع و التماسيح المقدّسة
م بالتهامه ومضغه بين أنيابها، خذوها يا حرّاس﴾

سـأُحرَق ومـاذا بعـد؟ لقـد سـبق وحُرِقت عندمـا تم نسـياني
هـذا القبـر الكبيـر الـذي يسـمّى قلعـة الديـن. سـأحرق ولـماذا؟
ي قلت أن الآلهة كانت شرّيرة وقاسية؟ يحرقونني ليثبتوا أنّها
يمة؟ يحرقونني لأنّي ازدريت جنونهم الديني؟ أو لأنّي مرتدّة
فـرة بتماسيحهم المقدّسـة التي تـأكل عقولنـا وأفكارنـا وكرامتنـا
ريّتنـا؟

لم أبكي، لم أشأ ولم أستطع، لقد كنت بالقوّة الكافية لأقول
ي دون خوف ومازلت بالقوّة الكافية لأُحرَق بلا خوف، كان

يجب عليّ أن أحافظ على قوّتي لكي أكون مثالا يحتذى به لا رمادًا يخوّف الناس به، ولكن قلبي كان يخفق للرضيع، لم تكن بيدي أدنى حيلة لإنقاذه، أنا التي قطعت عهدا بذلك، جرّني الحرّاس وفي لحظة تفكير بصاحب الرأس الكبير غمرت الدموع عيني وسقطت في حالة من بكاء هيستيري...

كل هذا لأجل ماذا؟ لأجل بقاء الحاكم في سدّة الحكم؟ فيستغل الدين لأجل ذلك؟

الحرق لي إذن واللعنة على الحاكم، الحاكم الذي يختبيء وراء الدين لحماية منظومته ولتركيع أفراد الشعب وجعلهم أكثر خضوعاً له، عليه أن يكرّس المحرّمات وأن يقلّص المسافة بين الأرض والسماء ليجعل حلم الطيران بحريّة جريمة مستحيلة الحدوث، عليه أن يقزّم العقل البشري وأن يجعل من التفكير مجرّد ازدراء ثم يجعل الناس يصدّقون ذلك بتفكيرهم أيضا وكأنّهم قد اقتنعوا فعلا، وأن يبني المعابد، الكثير منها، ليسيطر أكثر وأكثر على امتداد تشعّب النهر على الشعب، لكي يقوّض أي مسعى تحرّري العقل الإنسان، لكي يبقى للأبد حاكما وليبقى الآخرون عبيدا وتُبّعا إلى الأبد أيضا، ما فائدة رجال الدين في كل هذا؟ يوم يثور الشعب سيركبون معابدهم ويحرّمون الرأي، يحرّمون الحريّة، يحرّمون الثورة، ويقدّسون السلطة الحاكمة ويلبسونها لباس الآلهة فيغدو

كل كافر بها كافرًا بالدين، عاصيا للآلهة، وعندما يقول شخص ما كلمة الحق، لابأس أن يتّهم بازدراء الدين لتضمن السلطة عدم تحوّله ليطل شعبي بعدها، ولكي ينساه الشعب ولكي لا يدافع عنه أحد، وهكذا تضمن السلطة بقائها وبقاء صورتها كحامية للدين وللآلهة وتكون بذلك قد ضربت عصفورين بحجر...

لا قلب لي، لا عقل، لا وجدان، لي هذا السجن والذي أنتظر فيه يوم إعدامي حرقا، وأسوء من هذا تنفيذ مراسيم الطهارة في الطفل الصغير بإلقائه حيًّا إلى التماسيح وأمام ناظري، فكّرت فيه مطولاً، واستعمرتني ذكرياتي مع أمي التي نسيت وجهها جزئيا، بعض من رائحتها وملامح شبه ممحية كانت كافية لأرسمها بمخيلتي، يا ريتني أعرف أين هي الآن لقد كنت أريد أن أجري نحوها وأنا أصرخ اشتياقا لها لأعانقها العناق الأخير قبل أن يأخذني الراهب مجددًا إلى قلعة أخرى بالسماء، كنت أريد أن أقف معها مرّة أخرى في حقل القمح لتقول لي مجددًا: ﴿الجا تذكري جيدا السنبلة الطيّبة تنثر حبة منها في الأرض قبل أن تحصد﴾ ولكن يا أمّي أي حبة قمح سأنثر؟ كنت أريد أن أنثر ذلك الطفل الرضيع في ضفاف الحياة لعلّه يثمر الأمل مجددًا ويكون الثورة ضد قانون الاضطهاد ولكن هاهي يا أمّي السنبلة تحرق قبل حصادها وأمّا حبة القمح فستلقى لوحوش النهر لأكلها...

لقد شققت بطن أمّه، ولازلت مستعدّة أن أشقّ كل شيء، أن أشق المعبد وأن أخرج رأسه الكبير منه مجدّداً، وأن أحمله في يدي كما حملته أوّل مرّة، وأن أطعن بيشان ومن معه الى الموت، مازلت مستعدّة كل الاستعداد أن أشقّ بطن جاكوشا لأخرج أموال الشعب وثرواته منه لأعيد طعام الجوعى لبطونهم، لأكشف زيف وتخلّف المنظومة ككل، وكان علي أن أشقّ منفذا لي في الأرض أو في السماء لإنقاذ صاحب الرأس الكبير، صاحب الرأس الذي يجب أن يعيش، إرادة كبرى بداخلي كانت تدفعني للقيام بكل شيء لمضغ قضبان السجن والفرار لأجله، وللطيران؟ آه نعم نسيت الطيران ولما لا؟ أي شيء كان بإمكانه انقاذه كان بإمكاني القيام به، أن أعيش لمرّتين، أن أحرق في الأولى وأن أرمى للتماسيح بدلا عنه في المرّة الثانية، وجهه لا يزال مطبوعا في مخيّلتي، صعبٌ أن أمحي رأسًا كبيرا بسهولة وأن أتنكر له حتّى في موتي...

الطفل الذي يقتل أمّه أثناء ولادته، قاتل بحكم قانون المعبد، وحكم القاتل القائه للتماسيح، التماسيح القاتلة التي تعلو على القانون، والتي تقتل الجميع بإسم الدين وتلتهم وجودهم المادي أو المعنوي، وجودهم الجسدي أو الفكري، إذن كان الرضيع قاتلاً، لقد كان مجرمًا وهو لا يعرف من العالم شيء، صفحة شفّافة ولكنّه قد قتل أمّه بالتالي سيلقيه المعبد إلى التماسيح بعد غسله لتأكله التماسيح نضيفًا حرصًا على صحّتها، هذا كان منطق

المعبد، وهذا ما كان ظلما ليس كمثله ظلم في منطقي، فهو لم يقتل أمّه بإرادته فقد كان يحتاج حنانها، كان يحتاج حليبها، يحتاج حياتها كأي كائن آخر في بدايته، كيف يظن به إرادة القتل؟ سوى بذلك الجنون الديني الذي اعترى الجميع كمرض ليس له من علاج سوى الصدمة، سوى أن تقول الحقيقة للجميع وأن تتركهم يحرقونك في البداية، ليخلّد رمادك في الأجيال الأخرى بعد أن يعلم الجميع أنّك كنت الصادق الوحيد من كلّ الاثك المجانين...

سيأتي يوم سينظر للجنون الديني كجنون لا كفضيلة كما هو الحال اليوم وحينها سأتحوّل أنا الى بطلة لا مجرمة، فهنا في هذا الزمان والمكان لا فرق بين الجنون والفضيلة، فقتل طفل فضيلة، رمي الناس للتماسيح فضيلة، سرقة الناس باسم الدين فضيلة، النفاق فضيلة، الكراهية فضيلة، التطرف فضيلة، العنف فضيلة... انّها فضيلة الجنون...

انتظرت اليوم ذاك بقلب ينقسم كل يوم الى قلب آخر، واشتد النبض في صدري في كل لحظة خوف، حاولت الفرار وكان بيني وبينه جاكوشا بحرّاسه وجدرانه ورجال دينه، أين أفرّ فحيثما أذهب هناك جاكوشا ومعابده تنتظرني وشعب من السذّج يكفرني ويتمنى موتي وأنا هنا أدافع عنه وعن حقّه في الحياة...

في يوم التنفيذ، حملت أخشاب الصليب فوق ظهري، ومن ثم ركبت قاربًا كبيراً نوعاً ما ومعي الأخشاب تلك وحرّاس يحرسونني، وعند وصولي لقرية الرضيع صاحب الرأس كبير، قرية ميهتابا، تملّكني خوف أسود، أحسست أن العالم قد ضاع بين نهر وشطه. في تلك القرية الفقيرة الجافة ما بين الجنون الديني الذي استفحى في كل شيء ولم يترك لنا شيء وبين قِصَرِ بَصَرِ البشر الذين لا يرون من الأمور إلاّ سطحها، رأيت الحريّة تتكمش وتلتوي على نفسها كأفعى تحاول الإنتحار وهي تذرف سمومها بداخلها، كان الجميع ينتظرني هناك بفارغ الصبر، نزلت من القارب تحت صراخ المؤمنين، الكل يلعنني ويصفني بالشيطان، يصفني بالبغية، بالعاهرة، بالغبية وبالكافرة وهم يصرخون ويطالبون:

﴿أحرقوها، اضرموا فيها النار، أحرقوا هذه الكافرة اللعينة التي تجرّأت على التماسيح﴾

وبين فصوص الصراخ تلك، حملت أنا أخشابي فوق ظهري، حملت وزر القرى المتشعّبة في النهر، ومشيت إلى صليبي، إلى موتي، إلى النهاية، زُرِعَ الوتد وشُدَّت الحبال على الأرض بالمسامير ورُفِعت فيه مصلوبة أشاهد القرية و بؤسها وإيمانها، الاحظ من هذا المكان الشبه مرتفع الى دنو الإيمان وسطحيته، بنظرة الآلهة الحقيقية التي تشفق على خليقتها عوض أن تعذبهم، تسمع لهم

بهامش من حرية الفكر عوض أن تقلق عقولهم، وضع الخشب من حولي والجمر كان في تأهب لحرقي، ورمى الزيت من حولي، ورأيت بيشان وهو يتأمّلني مبتسمًا، وكأنّ لسان حاله يقول لي:

﴿رميت ماضيك في البئر وحرقت حاضرك﴾، تأكّدت في تلك اللحظات أنّي لم أخطيء في رفضي له من البداية، فشخص مغسول الدماغ كهذا لا يمكنه أبدا أن يحب، فبالنسبة له هو المختار الآلهة ومحظوظ الحياة وغيره كلّهم ملعونون، أمّا وقد وجلس باقي الرهبان أمامه في حالة لا اكترائية كالعادة يغرقون في السعادة البادية على أزيائهم الملوّنة وكأنّهم في حفلة ما يشاهدون أوّل إعدام لراهب في تاريخ المعبد كلّه...

في الصف الأوّل كنّ الأميرات، وبينهن كانت بيترام تبكي على غير عادتها، كانت تمسك المنديل في يدها، كان بإمكاني رؤيتها من هذا المكان المزري، وكان الشعب الفضولي من الجهة المقابلة ويحيطني من كل القرى يعمُّ المكان كقدر الرب المستعجل، متلهفًا لموتي، متلهفًا لحرقي، ولتقديم الطفل الرضيع الى التماسيح لأكله، كما تعوّدوا دائما حضور مراسيم الطهارة وتنفيذ العقاب والقاء الأبرياء إلى التماسيح، وكلّ فيهم له في بطون التماسيح قريب ما، أخ أو ابن أو أب أو أيًا كانت أو يكون، وكأنّ الجميع ينتقم من الجميع، من ألم التمساح في الذكريات، من ألم الأحباب يعصرون

ويمضغون بين شقلبات التماسيح، وكأنّهم يقولون لبعضهم البعض أنّ الشماتة في ألم بعضهم البعض عدالة وانتقام من بعضهم البعض، وأنّ- التمساح الذي أكل أبنائنا وآبائنا وأمّهاتنا سيأكل أبنائكم وآبائكم وأمّهاتكم أيضا- فهذا الصراخ الذي يعبر صدورهم ليخترق طبلة أذني مطالبا بحرقي هو نفسه صراخ الألم الذي كان يبكيهم يوما ما لألم أحبائهم وهم يقطّمون بأنياب التماسيح، انّه صراخ لرؤية الجميع يتألّم نفس المهم هم سابقا أو قادما، إنّه المطلب الشعبي في العدل في توزيع الظلم، هذا المطلب الذي لن يفهمه سويّ على الإطلاق، إنّه الحقد العام، الكراهية المطلقة لكل شيء، أنّه ما زرعه المعبد من نفور وخوف ما بين الأفراد، إنّه ما صنعته هذه السلطة الخبيثة من اللاثقة الشعبيّة، لا أحد يثق في أحد، شحٌّ في موارد الحب والعاطفة، موت لم يقل اسمه كان يتجلّى في كراهية كل شخص لآخر، من نظرة الحقد والانتقام التي يكنّها كل ضعيف لآخر، وبينما ينأى المعبد ومعه نظامه السياسي عن أي ثورة جماعية ضدّه، يكتفي الشعب في إخراج شحنات الغضب في أفراده الضعفاء، إنه الكبت العظيم، الغضب الذي يتلوى على أعناق الجميع كأفعى تقفز بين رقبة لأخرى، كأفعى يلقيها كل شخص على رقبة الآخر بعد أن تقتله ليضمن موت الآخر معه...

وقد وجد المعبد في حرقي أمام الشعب فرصة في إثبات عدالته، فها هو ينفذ العقاب في أحد بناته، في إحدى راهباته، إلى وقت قريب كان الراهب بمكانة مقدّسة تجعله بعيداً عن كل أنواع النقد، وهاهو اليوم راهب من درجة أنثى يزكى به إلى هذه القطعان الغاضبة، الى هذه الوحوش الغائبة عن الوعي، لتخرج في جسدي ظمأها للانتقام، عطشها الكبير لرؤية راهب بمضغ على وقع صراخ الجماهير، انّها استراتيجية التنفيس التي وجد فيها جاكوشا طريقة مثلى في كبح رياح الثورة العقلية، لقد كان بإمكانه أن يسامحني فأنا في كل الأحوال ابنة المعبد ولكن كان عليه أن يقدّم قرباناً لهذا الشعب، قرباناً بالحجم الكافي للإنقاص من الوتيرة المتصاعدة لغضب الشعب في وجه المعبد، وفي نفس الوقت يكون بذلك قد وجّه رسالة قويّة لأي راهب يحاول الثورة عليه، بأنّ الرهبان ليسوا فوق العقاب وأنّ الجميع تحت سلطته، وبحرقي يكون قد وجّه رسالته بشكل واضح للجميع...

بدأ قرع الطبول، جاء راهبان عارياً الصدر يمشيان حافيان بمشعلين من لهيب وأخذا يقتربان شيئاً فشيئاً من محرقتي، أحسست بصورة النار تنعكس في بؤبؤ عيني واقتربت السماء إلى داخلي، ثمّ رحت أتذكّر لكلّ شيء من حولي باحثة عن بصيص أمل في شكل ماء، أشكال هندسية على شكل أضواء نافورية بولون

الماء انتشرت في مقلتاي، نار الجنّة القاتلة، يا ترى أين ابني؟ أين صاحب الرأس الكبير؟ ولكنّك ستحرقين الآن يا ألجا، وما شأني؟ انه أحقّ بالحياة منّي، انّه رضيع بريء، ثم جاء نفر من الرهبان يحملونه عاريًا بين أيديهم اقتربوا أمامي، ليغسّل هناك، يدان ترتعشان، شكل شفتيه وهما يبديان نوعا ما من محاولة الهروب، صوت مضطرب لطفل رضيع في موجة الضجيج العارمة، كان صراخه أقرب لنقاط الدم بعروقي الذابلة من حياتي التي قد تحرق بعد قليل، جسدي قد اضمحلّ في اللاموجودات، العالم الآخر كان يناديني والصليب الذي يحملني يناجيني في الموت، ولكنّ روحي كانت جاهدة تحاول كسر هذا القفص الطيني الذي يحملها لكي تحمل صاحب الرأس الكبير بعيدا عن هذه الإبادة الإيقاعية، عن هذا الإعدام الشعبي لطفل لم يعش من الحياة سوى أسبوعه الأوّل أو بعض الشيء، رفع في السماء وقرء الراهب آيات من الكتاب المقدّس:

﴿باسم الرب صاحب الأنياب الكبيرة، التمساح الكبير، أولوهو العظيم، خالق الروح، معيد الروح، متنمد الحياة، مفقد الحياة، رب الموت، في الموت وبعده وفي الحياة وبعدها، مزّقي أيتها التماسيح هذا الطير الطري، وأحمليه لعنة على الأعداء، أولائك الذين يقتلون، ألوائك الذين لا بأس فيهم ويكفرون...﴾

ثم صبّ الماء عليه فزاد بكاءً ثم رحت أصرخ أنا بكل ما أتيت من قوّة غير آبهة بحرقي عندما شاهدتهم يحملونه رويدا رويدا إلى التماسيح، فقدت نوعا ما بصري في تلك اللحظات كل ما كنت أراه هو استباق للأحداث وخيالات التماسيح تقطّع ما تبقى من جسده، ليُمحى ظلّي أنا في ذات الوقت مع نار قد تلتهب في أعماقي لتواجه موته، ونار أخرى قد تحرق تنفسي بعيدا عن قرى الصمت والتقديس التائهة..

تكدّست مشاعري في كل مساماتي وغدوت كائنة مضادة للاحتراق وساد صمت رهيب جو تلك القرية الناشفة، سكت الشعب واقترب الرضيع من التماسيح واقتربت النار من هشيمها، لحظات عميقة من البؤس والترقب، من انتظار الألم المزدوج، من انتظار الانتقام الجماعي من أنثى ورضيع، من هذان الشيئان اللذان تتغير فيهما الأجيال، لم أستطع الايقف صوتي عن الانفجار، صرخت منادية عليه، سميته في تلك اللحظة دون إدراك منّي أوجاشو... ولما أجاشو؟ لا أعلم كان الأمر أشبه بالوحي، انطلق الاسم من جوفي فناديته به، وحينها فقط، وعند ملامسة النار لبعض من حولي، وعند اقتراب الرضيع إلى النهر كسفت الشمس، كسوفا كليا، وساد الظلام القرية، ثمّ أمطرت السماء فانطفأت لسعات النار، سكت الجميع في دهشة تامة وعند عودة

الشمس لأحضان السماء اقترب الراهب الأكبر سنًا مني وتوقف الجميع وصرخ أن لا يرمي الطفل ثم راح يقرأ بعض الآيات من الكتاب المقدّس بخشوع كبير ودهشة عظيمة وسعادة ما بتحقق الإيمان وخوف من كارثة قد تحل بعد موتنا:

﴿وعندما ترقد الشمس عند صلب المحبة، عندما تمطر السماء حبا ورحمة، عندما يتجمع أبنائي سويا للانتقام، يولد ابن الآلهة ما بين التمساح والنار، وتسمّونه أوجاشو، تكفر التماسيح به فتقدسه، وتقف حارسته بين موتها وحياتها فتقدسونها﴾

ثمّ راح يصرخ : ﴿أنزلوها فورا إنّها الحارسة، انه أوجاشو، النبوءة تتحقّق، المهدي يعود إلينا، أولوهو يتجسّد، إنّها معجزة ربّانية﴾

جاء الرهبان مسرعين نحوي وتمّ إنزالي من على صليب الموت، وأعيد صاحب الرأس الكبير الى حضني، بعد أن رفع عنه الجرم بحكم النبوة، وهنا انغمرت باكية أمامه حاملة له بين يدي كما حملته أوّل مرّة بعد أن قرّر القدر رمي حبله السرّي مجدّدا إلى رهبان التماسيح وسجد لي جميع الحضور بما فيهم الرهبان بكل خشوع، لقد تحقّقت نبوّة أولوهو وعاد المنتظر، عاد ربّ التماسيح وابنها عادت معجزة الكتاب المقدّس...

تأمّلني بيشان بغضب شديد ثمّ ركب قاربه وانصرف، في ذلك الوقت أجهش العالم بكاءً، لقد زاد إيمانهم بدين التماسيح أكثر وأكثر، وتحوّلت أنا في لحظات قليلة، بين حبّة رمل وظلّها، من مزدرية كافرة إلى حارسة المنتظر، إلى النبوءة المحقّقة، إلى المعجزة المقدّسة، إلى آية من الكتاب المقدّس...

لم تقنع أفكاري القويّة هذا الشعب، لم تقنعهم إنسانيتي ولا جميع حججي،بل كل ما أقنعهم في براءتي وحق الرضيع في الحياة هو معجزة متخيّلة عن الكتاب المقدّس، وتفسير ديني لظاهرة طبيعية بحتة...

لا تمحو الخرافة سوى خرافة منها، خرافة من صلبها، خرافة تخرج من زهق أفكارها، من تنفس ذاتها في ذاتها، ومن صلب نفسها على أوتاد نفسها، لتبدل جلدها كالأفاعي لتذرف سمّها الى جثّة الجهلة والمتعصبين والذين يحمونها لتلقيهم للتماسيح لتقطع أوصالهم ولتبلعهم في بطنها جيلا بعد جيل...

فالخرافة وحدها القادرة على محو نفسها، إذ يجب أن تدفع المؤمنين إلى تقبل تجديدها بمحو ذاتها من خلالها وأن تقنعهم في حقها في الإنصراف بعيدا، في حقّها في الموت، في حقّها في خلق جيل جديد من الخرافة له قدرة أكبر على الاقناع وإن فشلت في ذلك سيفشل الكثير من المؤمنين في الإبقاء على إيمانهم

بها، قد تلحد الخرافة بنفسها أحيانا وقد تخترع لنفسها خرافة أقوى قادرة على مواكبة العصر وتجديداته وذلك لضمان بقائها ولكن مع وعي اكبر ستفقد الخرافة قداستها وستضطر للانتحار والموت...

أمّا اليوم فقد أنقذتني، أنقذتني الخرافة من الحرق وأنقذت ذلك الرضيع البريء من عضّة التمساح، من عضّة المقدّس، من عضّة تلك الجماهير الغفيرة والتي فقدت قدرتها على التمييز بين الخير والشر بسبب أزمة الدين ومحرّماته...

كنت مقدّسة اكثر من أي وقت مضى، كنت لأوّل مرة في حياتي في درجة من التقديس تقترب قليلا من التمساح، كأنياب التمساح الا بعض المسافة الصغيرة وأنا في الدنو، لأول مرة نظر الشعب لحياة الانسان في جسدي بنوع من الاحترام كالذي يكونه للوحوش الخضراء.

افترشت الأرض وأنا أحمل الرضيع في يدي أحاول أن أدفئه في حضني وأنا شبه عارية، في شبه وعي، في شبه ميتة وبعض من الحياة، وبعض الحروق الطفيفة في أقدامي قبيل أن يطفئ المطر بعض زخات الحياة، ثدي واحد من الإثنين بارز من سترتي البيضاء الشفّافة، سترة الموت الممزقة، ورماد النار يخرج أرواحه الأخيرة في الفضاء والصليب من خلفي يودّع ملك الموت في السماء،

صورة الشعب الساذج ساجداً من حولي والرهبان قضت على مخاوفي وشعرت بالطمأنينة، وريح النسيم الباردة تحرّك خصلات شعري إلى الجهة الأخرى من العالم حيث البؤس مجرّد حكاية تروى، في حين جسمي الذي يشبه عريه في تلك اللحظات يتنفس محاولا التشبث أكثر بالطفل المقدّس. واكتفيت بالنظر إليه، وبينما أسرح أحيانا بعيدا عن وجهه لم أكن أرى سوى سراب الرؤوس المنحنية والجبهات الساذجة والأقدام المتسخة بالطين من حولي، نهض الراهب وصرخ:

﴿يا ناس، يا مؤمنين، ويا ملحدين، يا من شككتم يوما ما في صدق دين التماسيح، هاهي النبوءة تتحقّق عاد أولوهو في جسم جديد واسم جديد، إنّه أوجاشو الذي أخبرنا به الكتاب المقدّس، هاهو الرب يصدق وعده ويعود إلينا روحا جديدة و جسما جديد، أولوهو الصنم الأكبر اختار روحا جديدة وضع فيها اسمه، أولوهو الصنم لم يتجسّد كذاته بل كجزء منها وهاهو ذا الطفل الرضيع يحقّق ذلك، انه هو المختار، مبارك لنا هذا اليوم مباركة لنا هذه الولادة، أنت يا ألجا أنت هي الحارسة المقدّسة، لقد اختارك الرب من كل النساء لأجل أن تخدميه، مباركة أنت من بين كل النساء، مباركة أنتِ من بين كل البشر﴾

ثم راح يقرأ بعض الآيات من الكتاب المقدّس : ﴿مبارك يومكم ذلك اليوم، مباركة حياتكم في تلك الحياة، يوم تأتيكم روح الرب على أقدام تسير ومعها حارستها بقلب كبير، تعالى اسم التمساح في الأرض والسماء في ذلك اليوم وكل يوم، وفي النهر تشهدون قدومه وحلوله، اسجدوا لروح الرب واخفضوا رؤوسكم لها، للجسد المزكّى بروحنا ولحارسته وقدّموا لهما الطعام والمأوى الجليل والحلي، لعلّ الرب يغفر خطياكم ولعلّكم تؤمنون، تذللوا عند أقدامه وتبرّكوا فتلك روح الرب وتكفيرية التماسيح﴾

وحينها سمعتهم يرددون بصوت واحد بشكل غنائي: لا إله إلا الصنم رب التماسيح ورب النهر، تبارك اسمك وتعالى شأنك..

ثم سجد الرهبان لنا ووقفت في وسط تلك الملحمة وحملت أوجاشو في أحضاني واندمجت في الخرافة لكي أحميه، كان عليّ أن أفعل ما ينتظرونه منّي كمقدّسة، صرخت فيهم مقاطعة غنائهم وتسبيحهم فقلت:

﴿يا أيّها المؤمنون، وها قد أنقذني الرب من الحرق، أنقذني من النار، فكان قادرا على مغفرتي في حين أنّكم كفرتم بالرحمة التي أودعها فيكم وكنتم بذلك أشقياء وقد تناسيتم أن ربكم رب الرحمة والعدالة، هاهو الطفل أمامكم ربًا ومنتظرًا فاسجدوا له الآن﴾

وحينها سجد الجميع لي بما فيهم الرهبان ومسحت دموعي ووقفت شامخة أمامهم، وبالرغم من أنّي لطالما كنت ضد استغلال الدين ولكن كان عليّ فعل هذا لكي أحقق النبوءة وأنجو وهذا الطفل البريء .

●●●

الفصل الثاني
ثورة التمساح

لقد خشيت أن تتجلّى أنياب التماسيح من حولنا مجددًا، امسكت الرضيع وكلّي خوف من تلك الأشباح المسنّنة، لزالت أرواحها الشريرة تؤرقني وتدفع الخوف بداخلي إلى شدّة الهيجان، لم أفهم ما كان يجول في خاطري حينها، إلاّ أنّني بعد لحظات من حياتي الثانية أصبحت جثّة كاملة الحياة والتحلّل في آن، لم أتعوّد بعد على قداستي تلك، تجلّيت صنمًا مقدّسًا بين لحظة وأخرى، بين صدفة ومعجزة، وتحوّلت من راهبة مرتدّة الى حارسة قد تنبأ الكتاب المقدّس بقدومها، امسكت صاحب الرأس الكبير بقوّة بين أحضاني التي احترقت لتوّها خوفا عليه، وها أنا ذا أخاف عليه مجددًا من السقوط في نهر المقدّسات الشرهة والتشوّهات الفكريّة العميقة التي صنعها بؤس السلطة التي تحمي مصالحها باستعمال الدين لإرضاخ الشعب لغاياتها التحكميّة...

خفت أن تقرا آيات الكتاب مجددًا وأن تفهم بطريقة أخرى، أن تُأوّل ككل مرّة إلى شرح جديد يتناسب مع مصالح المعبد الأكبر وسلطته المنفعيّة، لقد خفت من تلك المغامرة اللغويّة التي عوّدنا عليها رجال الدين بالدوس على اللغة وعلى قدرة الوعي البشري

على التركيز في الكلمات والجمل لتشتيت انتباهه بتفاسير تفلق فكره، ليصبح الكتاب المقدّس سوط طويل للضرب على ظهر الشعب كالحصان ليجرَّ عربة الجهل والإضطهاد والبؤس والفقر إلى الأبد وهو في كامل الخشوع والتعبّد والرضوخ...

تلك اللحظة لازال مفهوم الراهب وتفسيره للآيات يقنع الجميع وقد يقنعهم ذاك إلى الأبد، فمن جهة فقد تحقّقت النبوؤة بحذافيرها، وأمّا ومن الجهة الأخرى فقد يؤول الأمر بين لحظة وخيالها تفسيرا خاطئا لآيات الكتاب المقدّس فنتمساق كلانا أنا وصاحب الرأس الكبير مجدّدا إلى قدرنا في فاه التمساح اللعين ولذلك كان علي أن اتماه مع التفسير ذاك أن أغدو مؤمنة مجدّدا وأن البس الثوب المقدّس الذي تريده جموع الجنون الديني...

أفواه مفتوحة على شكل دائري، عيون متّسعة على شكل مربّع، بعض البصاق كان يستفحي في وجههم، رؤوس متكدّسة في ذاتي وأخرى تبكي بسخافة وهي تناجي السماء في الغفران، معجزة تتجلّى أمامهم في لحظة شاردة، لم ينتظر أحد قدوم النبوؤة الآن فالأعم عند الناس أن تتحقق النبوؤات بعد زمن طويل، طويل لدرجة أن لا يعيش أحد منهم من كل جيل لمشاهدتها بأم أعينهم، إذ نؤمن بالنبوؤات عادةً دون أن نتوقع حدوثها، إنّها تشبه الآلهة التي نؤمن بها كذلك ولا نتوقع رؤيتها...

اقتربت الجماهير من حولي وهي في كامل الخشوع باكيةً تطلب الغفران منّي، ينقطع بؤسها وفقرها في لحظات من الإحتشام والحياء وهي تنظر إلي، تحدّق بآية من آيات التماسيح وهي تغدو حقيقة أمامها، كانوا يتأمّلونني كوفود من قردة غبيّة تملأها الحيرة والذهول، الوفد تلو الآخر، النبي تلو الآخر، ينبشون شعرهم ويخدشون تراب الأرض بأسئلة أقدامهم إلى موكب المسير...إلى هذه البقعة من الضوء التي انتشرت من حولي كصراخهم التعبّدي، تحني رؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال معاولةً البحث عن بقايا الرب في وجهي، حينها كان وجه القرد يتجلّى في كل مكان، يتجلّى في السماء التي كانت تنفخ أبواقها كما تصرخ القردة في فترات التناسل، كل شيء غدى قردا حينها، الشعب، الراهب، التمساح وكل المقدّسات، كل شيء أصبح قرداً يقفز من مكان لآخر أمامي يتأمّلني بتعجب كبير وليظفر بقملة مريضة من رأسي الذي كاد ليزلّف لولا الخرافة التي أنقذته...

لقد مرّ الكسوف في لحظة بصر، وانطفأت النار في قطرات من مطر، وعاد صاحب الرأس الكبير إلى حضني من جديد، قطعت الخرافة حبله السرّي وألقته على وجه ذاتها ، لقد أوقف هذا الرضيع بطش الدين، وأصبح في لحظة على هامش اللحظات الأخرى في قرى الحرمان هذه معبدًا بذاته ومسجدا لهذا الشعب الذي يصدّق كل شيء إذا ما قدم له في طبق من دين...

لقد ذُكِرت في الكتاب في المقدّس، ذُكِرت في كتاب قد كُتب قبل مئات السنين، لأغدو تمساحًا بشريًا أنا الأخرى، تمساحًا مقدّسًا التهم الآخرين، التهم هؤلاء الحمقى ليخرجوا على شكل فضلات فكريّة بجلد بشري تلتهم عقول الآخرين بدورها، كأي مقدّس بالعالم يعطّل قيم الفكر الإنساني ويجعل وعي الإنسان ينحصر بداخله، فيقتل هذه الملكة السويّة في صناعة التغيير وفي الحركية الفكريّة الدؤوبة.

شتّان بين المقدّس والإنسان في عالم المسلّمات الإيمانية، شتّان بين الفكرة المبجّلة والروح التي تحتقر ذاتها، إلى متى يفضّل الإنسان الغبي المقدّس على حياته؟ إلى أن تأكله التماسيح هو وأشقائه المعدومون الواحد تلو الآخر؟ الى أن يُمحى البشر نهائيا لتنتشر المقدّسات كالنار في الهشيم؟ إلى أن تحرق كل شيء فداء نفسها كقربان لبقائها على حساب المؤمن الخاشع والمذلول؟

كان الرُّهبان يتحرّكون بطريقة مريبة، بعضهم ركِبَ قواربه في اتجاه المعبد الذي انقلب رأسًا على عَقِبٍ بُعَيْدَ انتشار الخبر، لم يكن الظهور المقدّس شيئا عاديًا البتّة، كانت ظاهرة استثنائية وكذبة تتحول لحقيقة بسرعة وفي لمح البصر، لم يتوانى حينها جاكوشا بإعلان حالة الطوارىء، فيبدو أنّه لم يستلذ كثيرا وقع الخبر ومع أنّ أوامره للمعبد باحترامي وحراستي كانت تبديه على

ذلك، كنت أستطيع أن ألمح الخوف في تلك الحراسة المشدّدة التي كرّسها كما يزعم لحمايتي.

حينها كنت أنا في قرية ميهتابا بعد أن نصّب لي الشعب خيمة كبيرة، وأصبح الجميع خدما لي يطلبون مرضاتي وبركتي وبركة الطفل صاحب الرأس الكبير، وحتّى أباه الذي كان ليرميه للتماسيح بسهولة لولا معجزة اللحظة الفارقة، أراد أن يتحصّل على فخر الأبوّة بعيد البعث الجديد من رماد النار وبطن النهر الملتهم، محاولا أن يستفيد من وضعيّة الابن بعد أن استفاقت غريزته المصلحية في ذلك وهو الذي لم يمانع في رؤيته يتمزّق في مراسيم طهارة مدنّسة، لقد أصبح وسيطا بيني وبين الشعب ينقل لهم أقوالي أحيانا ويمسك عنهم هداياهم للحارسة وكذا للطفل الرضيع ويأخذ منها ما شاء فهو مبارك بدوره كونه قد حمل في صلبه نطفة هذا الرب.

كانت النساء الحوامل تتبرّك بالطفل لكي تنزل البركة على بطنها، وكان الرجال يتذلّلون أمامي ليتخلّصوا من الضعف الجنسي، كما كان أهل القرى يتعوّذون باسمي وباسم أوجاشو من كل الأمراض والأسحار والحسد والأرواح الشرّيرة، الكل كان يريد بَرَكَتي وغدوت أكثر بركةً من التمساح نفسه، لأوّل مرّة يتجاوز الإنسان التمساح ولو كان ذلك لأجل التمساح نفسه، لأول مرّة

يقف كائنان عاقلان أمام التمساح يتكبران عليه دون أن يعاتبهما أحد على ذلك، لقد تنبأ الكتاب المقدّس بقدومي وهذا وحده شرفٌ كبير تجاوز قمّة التمساح وارتفع على النهر كما ترتفع السماء...

أنا وحدي من كنت أعلم هذه الحقيقة، وحدي من كان يعلم هذه الكذبة، لست شيئاً سوى جثّة بثّ فيها جهل الناس الحياة مجدّداً، نفس الحياة التي طالبوا بجهلهم كذلك بإعدامها حرقاً وهم في حالة متقدمة ومتعفّنة من الحقد وحب الإنتقام، لكي يمحو آخر ذرّة مني وأن يذرفوها في الهواء وكأنّني أبداً لم أكن.

التماسيح التي تأكلهم عادةً علّمتهم كيف يزدرون حياتهم أمامها وأن ينظروا للإنسان نظرة احتقار، لقد زرعت بداخلهم عقدة الذلّ والعار، فمن هو الإنسان إذن؟ أهو مجرّد عبد ذليل كما يقول الكتاب المقدّس؟ إذن لما كل هذه القدرة البشريّة على التفكير لما أودعها هذا السر العظيم بداخله؟ ألكي تنسج غشاوة من جلد تمساح عصبي على بصره القصير؟ بصره الذي لا ينظر سوى للكتاب الذي وضع بين يديه ليستعبده؟ هم يسمّونه الكتاب المقدّس وأنا سميته كتاب الإستعباد، أليس هو من يسمينا عبيداً؟ عبيداً للتمساح، عبيداً للصنم الكبير الذي لم نره ولكنّه يبني بيته بجوف خيالنا حجراً حجراً ليقنعنا بعبوديتنا له، وأن نسير ببطيء

شديد، بالفعل كما تمشي التماسيح، باحثين عن أفكار مقدّسة لنزني معها للأبد، زنا العبودية الخام، فالكتاب المقدّس يجد كلّ المبرّرات ليجعلنا نثق كل الثقة بأننا لسنا سوى عبيداً له، عبيدا ليس إلاّ، ثم يقنعنا أن التمرّد على هذه الفكرة تجعلنا أكثر دونية من المكانة الدنيئة التي وضعنا فيها هو ذاته، وأنّنا وإن حاولنا التصرّف باستقلالية عنه، فننسج بذلك قيودا دون أن ندري على حريتنا الحقيقية، الحريّة الحقيقية التي يقنعنا بسهولة بكونها ليست سوى عبوديتنا له، وإخلاصنا لمقدّساته التي تأكلنا الواحد تلو الآخر.

الإنسان، على عكس ما يقوله الكتاب المقدّس، هو منبع الفكرة الأوّل، وموجد الديانة الأولى، هو الباحث والمفكّر والصانع، هو القاتل والمحيي، هو العامل و الفلاّح، هو من يهدي الأرض والأرحام خصوبتهما، وهو من يلد من صميمه الداخلي الحياة، الإنسان هو واضع القانون والأخلاق، و بتجاوزه عقده الطبيعية والدينية يستلذّ نفسه بكونه كائنا مفكراً لأجل نور الحكمة والخلاص...

إلى أين تسير هذه الخنافس العمياء؟ إلى أين تحلّق؟ وقد سقّفت نفسها، فكرها، شهوتها، أخلاقها، انتقامها، أحقادها، خيرها وشرّها في المدلولات الدينية الوراثية، في هذا الحقل

المعجمي البسيط الذي لا يزيد عن بضعة حروف متلاحقة بنبض مضطرب (دين)، حروف متوارثة ليس إلا في منظومة أشبه بالسراب وأقرب للظما...

لا أدري كيف أصنع لهم كرة روث أخرى لكي يكوّروا عليها خرافاتهم، وليفرحوا بها أو ليبحثوا لها عن تصميم آخر بعد ذلك، لفضلات الأنعام المقدّسة تلك التي يتطهّرون بها حسب إحتياجاتهم الزمنية والمكانية التي تختلف بين الحين والآخر، هذه الخنافس التي تعكس نور الشمس في سواد أجنحتها الضجيجيّة في ألوان جميلة ومقزّزة في نفس الوقت والتي تخفي فيها سوادها البادي وهي تحفر التراب لتخبئ نفسها من رفسة العدو الغاشم، العدو الذي ليس سوى ذلك الذي يريد إنقاذها من الأنياب الحادة والجدران السميكة التي أحاطت نفسها بها، تلك الجدران التي بنتها بنفسها بأوامر عليا من السماء أو بما يخيّل لها أنها أوامر عليا، فعلى غرار السجون العادية التي تبنى لكي يستقبل فيها السجناء، يصنع الدين السجين أوّلا ثم يأمره ببناء سجنه وهو في كامل السعادة والتبجيل، ومن ثم يغلق أبوابه على نفسه ومن معه ويحكم على الأجيال بعده بتوارث السجن وحمايته إلى الأبد، ثم ينظر الجيل الجديد إلى السجن ذاك، إلى كل تلك القيم والتقاليد والعادات ذات المنشأ الديني أو غيرها بعين تقديس كرابطة حيّة

تجمعه بأجداده، فيكون بذلك السجن حقًا للآباء والأموات في الوجود، فمن ذا الذي يستلذ موت أبيه لمرة ثانية؟ ذلك السجن هو روح الأموات في البقاء.

في ديننا، دين التماسيح، يُنْظَرُ للسماء على أنّها نهر علوي، تملأه التماسيح أيضا، تماسيح أكبر حجماً من تلك التي على الأرض، فإلى أين نطير هربا؟ فنهر أسفلنا ونهر فوقنا يمحي وجودنا الفردي كما تمحي فيضاناته القرى الضعيفة بالمقربة منه وهي تتضرّع له ليحميها، فحسب ديننا المائي هذا، لم تكن السماء سوى ماء ينصب على جداول أخرى لعالم الروح، ليست سوى ينبوع آخر لدين يأكلنا ويمصقنا إلى ذاته ونحن مسرورين، كهذا النهر الذي يهدينا الموت والتمزق كل يوم، فكلما يريد شخص ما أن يلمس السماء بيده يكفيه أن يبلّلَ أطراف أصابعه في النهر المقدّس، وكلّما أراد أن يطير إليها فليس عليه سوى أن يقطع أجنحته وأن يلقي نفسه حيًا للتماسيح.

وفي ديننا التمساحي أيضا تتزين صور الموت بالجنّة الموعودة، إنه موت لأجل حياة أطول، حياة أبديّة تحرسها التماسيح، جنّة عرضها أنهار الدنيا والعليا، إنها جنّة أولائك الذين أهدو لحومهم ولحوم أبنائهم للتماسيح الجائعة، لمن كانوا في الحياة يركمون للوحوش المقدّسة التي تمضغهم على مهلها وهم يستلذون ألمها

بكل خشوع وخضوع، جنّة لن يدخلها الإنسان سوى على حساب ألمه ومعاناته وعذابه في الدنيا، جنة الموت التي تجعل من الحياة جحيماً ينفر الإنسان منه دون أن يحاول البحث عن معنى آخر له، فالمعنى الموجود هو المعنى الذي أوجدته وكرّسته المنظومة الدينية وجعلت القردة حارسة عليه..

لا شكّ أن وفود الخنافس والقردة التي تحوم حولي كحج استعجالي كانت تحاول أن تقنع نفسها أكثر بأحقيّة الدين في الوجود، لقد وجدوا في بعثي مجدّداً وفي الرضيع صاحب الرأس الكبير دليلا على دينهم، دليلا يكفي لدحض بصيص الشكّ الأخير في نفوسهم، ذلك الشك الذي كان يؤرقهم دائما ويجعلهم يتحسّسون ضمائرهم ويؤنبونها خجلاً كلّما مرّوا على مجموعة تماسيح جائعة ومتشهيّة للحم الإنسان وهم يشفقون عليها، يشفقون على جوع الآلهة، فيلقون لها بعضاً منهم ثم ينطوون على أنفسهم فرحاً بالتضحيّة الكبيرة التي قدّموها للدين، لدين الأجداد، لدين النهر الدنيّ والعلوي، و للتماسيح.

ومن الخرافات التي كانت تحوم في جوّ هذا التخلّف القاتم، والتي كنت أسمعها بين الحين والآخر من مكان لآخر، كما سمعت تلك الطفلة الصغيرة يوماً ما وهي تقول لصديقتها:

﴿هل تعلمين صديقتي، أمّي قالت لي أنّنا عندما نلقي
سنا للتماسيح فإنّنا لن نشعر بالألم وهي تمزّقنا، فسيبعث
هو علينا رحمته، فسنشعر عندئذ بشعور رائع ونحن نتقطع
، أسنانها الكبيرة، سنشعر بلذة عظيمة إلى الموت، وعندها
بر العالم الآخر إلينا ليأخذنّنا أخذة لطيفة كنسمة هادئة،
غلق أعيننا حينها وسنفتحها مجدّدا في الجنّة﴾

وهكذا حوّل الدين الألم إلى متعة خالصة، إلى لذّة متخيّلة،
صبحت أنياب التماسيح أداة سفر للإنسان من جحيم الأرض إلى
ة السماء وعدالتها، فتحوّل بذلك خوف الإنسان من الألم إلى
ة حقيقيّة في الوصول إليه، وفي فضول الشعور بمتعة الانتقال
، أرضيّة مسطّحة للمفاهيم الدينيّة الى حقلها التجريبي وحينها
لتمس الإنسان من الخوف أن يبتعد عنه ليلقي بنفسه بارادته
ـرّة إلى قيود الخرافة وأنياب الموت...

لطالما كان الرهبان يقولون للشعب الساذج لهذا النهر البائس
لذّة التمزّق بين فكي التمساح أفضل من لذّة الجنس، حتى
ا تفوقها مئة مرّة، إنّه شعور مركّز من المتعة الخالصة والنقيّة
تشعرها الإنسان بمجرّد دخول الأنياب الأولى إلى لحمه، وأنّ
راخ أولائك الذين سبق وتمّ القائهم للتمساح بتطوّعهم، فكان
بب شدّة المتعة واللّذة وليس كما يخيّل لهم كصراخ لأجل الألم،

وهكذا تصدّق مجاميع القردة المجنونة الرهبان ويواصل احتقار الإنسان وحياته وألمه...

وأمّا مزدري الدين حسبهم فسيتعذّبون عذابا نكرا في العضّ الأولى بين فكي التمساح الأوّل كعقاب إلاهي عادل لهم على الازدراء، ثمّ تتّحد المتعة مع الألم فيتعذّب المزدري عذابا رائعا يجعله يفهم متعة التعذّب والتذلّل لأجل الدين، ليتألّم ويعاقب وليتمتع أيضا في خليط شعوري يجعله يؤمن في آخر لحظات بمتعة التمساح...

إنّها طريقة غريبة في جعل الناس يذوبون في الخرافة، طريقة غريبة ولكنّها ناجحة، فكما تروض الحيوانات يروّض الإنسان باستخدام أقوى أسلحته، باستخدام فكره وقدرته على التخيّل وباهامه بأنّه يتعالى في مقامه كلّما تذلّل أكثر للدين والآلهة وهكذا يتحوّل التمساح إلى إله ويتحوّل ألمه إلى متعة خالصا يتمناها معصوبي العيون، وتصبح الخنفساء وشقيقها القرد عبيد للأبد في منظومة إستسلام طوعية للسلطة المستبدّة...

لقد استغلّ نظام جاكوشا الدين أبشع استغلال، لقد تحوّل الجميع إلى أرقام مستهلكة في مقبرة جماعية لأن الإنسان تسمّر وطن النهر العظيم، لقد أصبحت غاية الإنسان الأولى منذ ولادته أن يكون خادمًا للمعبد والتمساح، التمساح الأصغر الذي

يتمثّل في ذلك الحيوان الشره الذي ينتظر قطعة اللحم البشري، والتمساح الأكبر الذي يتمثّل في المنظومة كاملةً بربها وبمعبدها ودينها ومجتمعها وسلطتها الحاكمة والتقاليد والأعراف، ومع تواصل الكذبة لأجيال متلاحقة لم يعد بامكان أحد أن يخرج رأسه من بين فكي التمساح، الكل غدى جزءً من المنظومة، جزءً من التمساح ذاته، إذ لم يعد أحد بوسعه أن يفكّر بعقله المفرد بل بعقلها الجمعي وبالتالي مع اندماجه الكلي فيها يلغي الانسان نفسه ويمحي وجوده لينصهر في وجودها بارادته فيدافع عن وجودها وكأنّه يدافع عن وجوده...

كنت أتأمّل الوفود بعين مستبصرة، فرأيت فيهم شعب الذلّ الأبدي، بعين امرأة لبست كذبة دينيّة لتنقذ حياتها وحياة طفل رضيع قتل أمّه ولبس كذبة دون علمه، فكانت آيات الكتاب المقدّس حاملةً له في جوفها كما حملته صاحبة الهبل الجاف لتكفّر عن بقائها فكان كذبتها المقدّسة وتمساحها الجديد، وعوض أن يلتهمه النهر أصبح أحد أنيابه الجديدة...

ولأستغلّ جهل هذه الجموع الجاهلة بوجودها المستلذّة لعضّة التمساح، كان عليّ أن أحشر أنيابي أنا الأخرى فيها لكي أمتصّ منها غضبها ولكي تشمر بمتعتها الذليلة كعادتها، ولأستمتع حياتي بالقرب من غبائها العظيم ولكي يكون لي حريّة التعبير

عـن المكامـن الداخليّـة دون أن المس ذاتـي بـأذى، وهكـذا تحوّلـت خيمتـي إلـى مـزار لحـج شـعب القـردة الغبيّـة والخنافس العميـاء شـعب التمسـاح الـذي يأكلـه ويبصقـه، ثـم يأكلـه ويبصقـه، وهكـذا يأكله ويبصقـه في دورة مـن المحـو وإيجـاد المحو، وأصبـح المعبد على ضخامتـه مجـرّد منظـر لحجـارة كبيـرة علـى سـفح الجبـل، وغـدت خيمتـي البسـيطة غـروب الشـمس وشـروقها والهـواء المتخيّـل لهـذه القـرى التمسـاحيّة وأقـدس حتّى مـن تلك الوثبـة الجهنميـة في جبل الاسـترقاق...

ولكنّـي كنـت أعلـم أنّ كذبتـي هـذه، أو بالأحـرى غبـاء الراهـب العجوز الذي وجـد تفسـيرها في نصوص الكتاب المقدّس لن تنطلي على جاكوشـا، فمـن صنـع هـذه المنظومـة يعلـم بالتأكيـد كذبهـا، فكل تلك القيـم التـي كان ينـادي بهـا سـرعان مـا تتجلّـي محـوا ممحيّـا عندمـا تتعـارض مـع مصالحـه الخاصـة والماديّـة، والمطمئـن لـه كمـن يطمئـن لتماسـيح المعبـد المخادعـة، كنـت أعلـم بقـرارات نفسـي بأنّـه لـن يسـمح بمعبـد جديـد يزاحـم معبـده ولـو كان المعبـد الجديـد مجـرّد خيمـة ولـن يسـمح بسـلطة جديـدة تزاحـم سـلطته ولـو كانـت طفـلا رضيعـا ولـو كانـت نبـوءة مـن نفـس الكتـاب الـذي يقدّس شـخصه، كنت أسـتطيع أن ألمحـه وراء سـتارة التقديـس وهـو يعـضّ علـى أصابعـه، كنت أعلـم أنـه لـن يستسـيغ طعـم انفـلات السـلطة المطلقـة مـن يديـه،

ا فلم يكن بإمكاني أن أثق برئيس جماعة التماسيح المقدّسة
من يحرق المفكّرين ويقطّع الأطفال ويلقيهم للتماسيح ومن
نفسه بناتا في عمر الزهور لمتعته الجنسية لن يكون أبدا
ثقة على الإطلاق، فهو لا يرى في نفسه سوى معبدا أكبر
ن المعبد الكبير لا يرى في نفسه سوى صنما وأكبر من
الكبير نفسه وبالتأكيد لن يترك فأسًا يكبر أمامه ليكسّر
، وقوانينه المعطّلة لوجود البشر...

ة حالة من الشرود في قداستي الجديدة، اندمجت مع
الرضيع كأم حقيقيّة له وأعطيته ما يكفي من الحنان لكي
أمومتي نحوه، لقد أنجبته ثانيةً وأنا مرفوعة على الصليب
رحمي إلى عنقه لكي يقطع حبل الإعدام عنه وليلده من
النار التي اشتعلت في كل شيء من حولي إلاّ في حبي له،
ر هو في روحي كطفل جديد لها إلى الأبد كطفلها الذي
، روحه في مكان ما بعيدا عن نهر التماسيح، وأنجبني
ما لا أكذب في ذلك، أنجبني لمّا جعلني أثور على المفاهيم
خلوها عنوةً إلى رؤوسنا، تلك المفاهيم التي حنّطت أفكارنا
ا توابيت في مسيرة نحو قبرها كلحوم مقطعة للوحوش
راء للنهر الملتهم، أنجبني عندما جعلني في لحظة غضب
على كل شيء لإنقاذه، أنجبني عندما جعلني أكسر قيود
، التي شدّ المعبد وثاقها على كل شيء قابل للحياة بداخلي،

أنجبني مجـدّدًا عندمـا جعلنـي أتعـرّف علـى وجـودي خـارج هـذا السجن الدينـي ذا الأسـوار العاليـة وعندمـا جعلنـي أفتـح عقلـي لمفاهيـم جديـدة جعلـت لـي فكـراً وإرادة وحيـاة بعـد أن اختفيـت في زحمـة المؤمنـين والمتدينـين...

لـن يقـول لـي شـيئًا آخـر، سـيهمس لـي عقلـي كالعـادة لأفكّـر لأتحـرّر، لسـت جـزءً مـن الجماعـة بل أنـا فـرد مـن أفـراد، مسـتقلّة بذاتـي في صـراع لاثبـات الوجـود، وتحوّلـت بحريّتـي إلـى رب آخـر إلـى مقـدّس آخـر وسـط هـؤلاء المحبـين، هـؤلاء الذيـن لا وجـودًا فرديًا لهم، هـذا الجماعـة من تلك الجماعـة، هـذا المجتمـع من ذاك المجتمـع، فـلا فـرد هنـا سـوى العقـل الجمعـي..

وفي حين كنـت في خيمتي أتقدّس على راحتي وجلالتي وعلى كذبتي المسطّرة في نبوّتي، جائتني رسـالة من المعبد الأكبـر، حملها لـي راهـب صغيـر في السـن يقتـرب مـن الخامسـة عشـر، كان لـه صـوت خشـن يشـبه معاناتـه في قلعـة الديـن تلـك فهـو أيضـا طفـل وُلِدَ في اليوم المحرّم مثلي، طويل نوعاً ما ونحيل كهـذا النهـر الـذي أكلتـه التماسـيح، سـجد لـي ثـلاث مـرّات ثم طلـب منـي السـماح لـه بـأن يرفـع رأسـه ليرتّل علـيّ رسـالة جاكوشـا، قبلت ذلـك وخرجـت مـن سـتاري الأسـود الشـفّاف وجلسـت علـى فـرو النمـر الـذي كان على الأرض لأعبـر لـه عن تواضعي وطلبت منه أن يقرأ الرسـالة...

فتح رسالته على مهل ثم راح يقرأ بخشوع:

﴿من القائد الزعيم المبجّل جاكوشا إلى حارسة الإله الجديد،
ـاركت وتبارك اسمك في الأرض والنهر، باسم أولوهو ربُّ التماسيح
ـقدّسة والنهر العظيم وباسم المعبد الأكبر ورهبانه، باسم كل من
ـحّى لأجل تماسيحنا المقدّسة أما بعد، لقد تلقينا في المعبد خبر
ـقق نبوءة الكتاب المقدس بفرحة عظيمة وبوقار كبير وقد سجد
ـالم لهذه البهجة الكبير والمعجزة المؤكّدة لوجود التمساح الأكبر،
ـصنم الأكبر، لقد حقق الطفل الرضيع ديننا العظيم أكثر من أي
ـت مضى فزادنا إيمانا وتبجيلا لمقدّساتنا وقوانينا، لقد جاءت
ـجزة الرب لتنقذ حياتك من عقاب القانون المقدّس لكي يعبّر لنا
ـن رفضه لإعدامك وإعدام أوجاشو، فغدوت تقديسنا الجديد
ـياتنا الجديدة، فبإنقاذ الرب لكما أنقذنا كلّنا وأعلنَ عصر
ـخلاص، ولذلك أعبّر لك في هذه الرسالة عن اعتذار المعبد عن
ـاملة القاسية التي عوملت بها في السجن وفي المحاكمة فالعلم
ـالعلم لدى الصنم الأكبر أمّا وكل مؤسّسات السلطة فماهي
ـي أدوات لأجل تنفيذ إرادة الرب، قد تصيب وقد تخطئ وهاهو
ـساح المبجّل يصحّح لنا خطانا ويروادنا عن قداستك فجعل
ـب النهر كله يسجد لكما إحتراما لروحك وروح الإله، وباسم
ـنم الأكبر والكتاب المقدّس أدعوك للعودة إلى المعبد الأكبر إلى

قلعتك الكبيرة لكي نعلن منها عن البعث والعصر الجديد عصر الدين والسلطة المطلقة للإله، ولكي لا تكون فتنة في النهر ولكي يعود الدين لوحدته، وتأكّدي أنّ المعبد سيعمل فصار جهده على راحتك وراحة صاحب الرأس الكبير ولن يتوانى عن الإخلاص لك وستضاف مادة في دستورنا قريبا تجعلك والطفل من مقدّساتنا الجديدة، ألجا ابنة كيشاريتي لقد اختارك الرب في البداية لتكوني خادمته بولادتك في اليوم المحرّم ثم جعل منك راهبة ومن ثم أنقذك من الموت وجعلك حارسة على روحه وقدّسك في كتابه قبل وجودك فجعلك فوق البشر واصطفاك من دونهم، إنّ شكرك لهذا الربّ لن يكون سوى بقبوله وقبول معبده واللجوء إليه فذلك هو بيته ومنزله، وهناك يتدفّق الوحي الى تشعبات النهر، فمكانك هنا وسط البشر العاديين وسط هؤلاء العبيد المؤمنين هو إهانة للذات الإلاهية، لذا عليك أن تتكبّري قليلا بما يليق بمقامك الجليل ومتأكد أنك ستوافقين، وإلى ذلك الوقت أتمنى أن تقومي بما هو صواب لأجل وحدتنا الدينية والعقائدية، تباركت وتبارك الطفل﴾

كنت أستمع لتلك الرسالة بكل سخريّة ودهشة في نفس الوقت، كيف يستطيع جاكوشا الزعيم الكبير وشبه الإله أن يتحوّل إلى حمل وديع كهذا، كيف له أن يتمنى وهو الذي لطالما كان

آمرا ناهيا في بلاط المكفوفين، كيف له أن يترجى وأن يطلب وأن يقدّسني أنا التي لست سوى آخر أو سوى أخرى في مكان كل ما فيه هو جاكوشا، هو ذاته ذاته/ هو نفسه نفسه/ لا فرق بينه وبين التمساح، ثمّ العجب كلّ العجب أن يعتذر، فهل بامكان شبه الإله أن يعتذر؟ هل بإمكانه أن يتنازل عن كبريائه وعظمته بهذه السهولة؟ لا على الإطلاق، لقد كان يبحث عن ممر لتنفيذ خطّة جديدة من خططه للسيطرة على مقدّرات الشعب باستعمال مقدّساته، وأنا الآن وهذا الطفل الصغير تحوّلنا الى أداة من تلك الأدوات ولن يسمح لنا بالوصول لدرجة مقدّس سلطوي يستفيد من قداسته أكثر في زرع نظام موازي لنظامه وإنّما سيحاول بلعنا في منظومته وإغراننا بالمصالح الجسديّة لكي نستفيد من تقديسنا كاي تمساح دون الخروج عن إيطار التقديس الى إيطار سياسي أو منفعي قد يهدّد بقائه وبقاء منظومته السياسيّة، لم يكن بعقلي قطرةُ شك واحدة بأن جاكوشا لم يؤمن حقيقةً بالمعجزة ولا بالظهور المقدّس، فلن يتحوّل من تمساح ضخم يقتل الناس ويمزقهم إلى حمل وديع يتذلل لأجل وحدة النهر أو ما سمّاه وحدة دينيّة بين ليلة وضحاها وبهذه السرعة الفائقة لأجل لاشيء، فقد كانت مصلحته الشخصية تقطر من كلّ قراراته، ثمّ ما الوحدة الدينيّة؟ ما هذا المصطلح الغريب الذي اخترعه لايجاد تبرير لتطويع الأفراد؟ إنّها ببساطة سيف وردي يحبّب الناس في ضربه على رقابهم، فهو أداة

تمويم سهلة للضمائر والأخلاق من أجل تمرير مشاريعه الفتّاكة بلحم الإنسان وعقله ووعيه. إنّها مصطلح خطير يزيد من عمق حفر الجهل في عقول مكفوفي البصيرة لقتل وعيهم ومقاومتهم باستعمال دينهم وباسم الحفاظ عليه.الدين هو قناعة شخصيّة، ولكن فوق كل هذا هو تمساح شخصي، لا أحد يجب أن يفرض تمساحه على غيره، من يرفض التمساح يجب أن يقدّم مبرّراته ومن يقبله عليه أن يقدّم مبرّراته أيضا، للدخول في صراع الأفكار، صراع حتمي لتطوّر الشعب فكريًا بطريقة حضارية، والبقاء في النهاية للفكرة القويّة ولو كانوا من يحملونها لا يمثلون سوى أقليّة ضعيفة، فقوّة الفكرة ليست في عدد المؤمنين بها وليس في عدد تماسيحها ومقدّساتها وليس في عدد محرّماتها بل قوّة الفكرة في قوّة تبريرها وتحليلهاو في قوّة حججها وصراعها العقلي، خارج أطر العنف وتكمن مشروعيتها في البقاء في مدى تقبّلها للفكرة الأخرى في البقاء، ومن يفرض تمساحه بالقوّة سواء باسم الحفاظ عليه أو باسم الوحدة الدينيّة، ليس سوى حاملا لفكرة ضعيفة سريعة الإنكسار ولذلك هو يحاول حمايتها عن طريق التخويف ويجعل الفكرة تلك سامية على الأفكار الأخرى المتجادلة معها في نفس الحقل، أ ليست حقارة؟ إنها نذالة و احتقار لوعي الإنسان ذلك الذي يكرّسه نظام جاكوشا الاستبدادي فما الدين سوى مجموعة أفكار ليس إلاّ ولا يحتاج الإنسان لقوة عقليّة كبيرة لفهم ذلك بل

ما يحتاجه هو التساؤل عن ماهية تلك المصطلحات والتكرارات
ي قدمت له في طبق يسمّى دينا ليفهم أنّ الانسان أسمى من
كرة وأنّ حريّته في إيجاد الأفكار التي تتناسب مع إبقاء منظومة
يّة إيجاد الأفكار هي حق شرعي له كانسان، والعدوّ الأوّل لهذه
اعدة الذهبية هي نظام التقديس، هو التمساح...

جاكوشا كان يظن أنّه ربّما يستطيع أن يستميلني إليه بمجرّد
يحرّك عاطفتي الدينية، هذا المخيال اللاشعوري الذي زرعته
ظومة بداخلي منذ أن بدأ عقلي يتجاوب مع العالم من حوله،
ن يظن أنّه بمجرّد أن يدغدغ تلك البذرة التي زرعها المعبد
اخلي سأخرّ ساجدة لمطالبه، بعد أن تحرّكني عادتي الدينية إلى
حث عنها مجدّدا كإدمان جديد، ولكنّي متأكّدة بأنّه لم ينسى
ني وصلت لموصلي هذا بعد ازدرائي للمعبد والدين وكفري به،
لا أدري لما استعمل هذا الخطاب معي؟ هل لكي يقنعني بأنّه
جاوب مع هذه المسرحيّة ولكي يرسل لي رسالة خفيّة بأنّه يفهم
بدأ ما أقوم به وأنّه في كامل الإستعداد لأجل أن يمثل هو أيضا
ره في هذه التمثيلية؟

أمسكت الرسالة عن رسول المعبد وأذنت له بالإنصراف،
رج من خيمتي وهو في كامل الخشوع والإحترام ولم يرفع عيناه
ن الأرض، لا أدري إن كان ذلك لإيمانه الحقيقي بالنبوءة أم أنّه

ينفّذ أوامر المعبد بتقديم هذا التبجيل لي ليتم وضعي في الصورة ولكي يكسبني جاكوشا الثقة فيه، وربّما هو يظهر هذا الخشوع لي من تلقاء نفسه خوفاً من القيه للتمساح كما تفعل المقدّسات الأخرى دائما...

بعد انصراف الرسول الذي لم أقدّم له أي إجابة واضحة، انصرفت أنا الأخرى لذاتي أفكّر في خطوتي المقبلة، أحاول أن أفسّر لنفسي رسالته تلك، أتجاوب معها وأنا أفكّر كذلك في مصلحة الطفل الصغير، فللمعبد أدواته أيضا ويستطيع أن يقلب المعجزة في لحظة ونصف إلى تفسير آخر، فيجعل من معجزتي مجرّد كذبة تشبه نفسها في الحقيقة، فأنا لا يمكنني وحدي أن أواجه هذا النظام الشرس بكل رهبانه ومعابده، لا أستطيع أن أقف في مواجهة جاكوشا وقد زرع نظاما عميقا ليصل إليّ أخمص نقطة في وعي الانسان وذاكرته ومخياله ووعيه، فالمعبد الكبير في سفح الجبل ليس مجرّد معبد حجري بل هو معبد روحي، فالمعبد العميق في النهر أكبر من ذلك المعبد هناك، والمعبد العميق في الانسان نفسه أقوى على احداث الضرر من المعبدين السابقين، فقوّة جاكوشا الحقيقية ليست في قوّته ولا في معبده بل في ضعف الفرد وفي المعبد التخيّلي المزروع عنوة في كل إنسان...

لـم يكـن علـي أن أخاطـر بحياتـي وحيـاة الطفـل الرضيـع كان علي أن أتجـاوب مـع رسـالة جاكوشـا وأن إليهـا قـدرًا مـن الاهتمـام فمعاداتـه الآن لـن تضفـي لأي نتيجـة بل قـد تجعلنـي أكسـب عداتـه وتعيدنـي إلـى مـوت أبشـع ربّمـا مـن ميتـة الصليـب ومـن عضّـة التمسـاح...

أمسكت صاحب الرأس الكبيـر بيـن يـدي أتأمّلـه وكأنّي أحـاوره، كنت أتمنّى لـو كان بمقـدوره أن يـردّ عليّ ليجيبني فيمـا كنت أتشـاور معـه، فقـد خفـت أن أقـدم علـى قـرار سلبي، فـأي خطـوة سـأتقدمها الآن ستؤثر عليـه بالضـرورة ولذلـك كنـت أشـعر بمسـؤولية كبيـرة اتجاهـه جعلتنـي أتخلّص مـن كل مكبوتاتـي المعبديـة وكراهيتـي لجاكوشـا وأن أحـاول الوصـول إلى قـرار عقلاني غيـر متسـرّع وغيـر عاطفـي لكـي أسـمح لنفسـي ولأوجاشـو بمواصلـة الحيـاة...

لـم أسـتغرق وقتـا طويـلاً لأراسـل المعبـد مجـدّداً معلنـة موافقتـي علـى العـودة إليـه، وحينهـا أعلـن المعبـد مباشـرة اسـتقبالي في حفـل كبيـر أمـام جماهيـر الشـعب معلنًا تحقـق نبـوءة الكتـاب المقـدّس أي ترسـيخ معتقـد التمسـاح هـذا أكثـر وأكثـر في وعـي الأفـراد وطمـس الحقيقـة أكثـر...

أرسـل لـي المعبـد سـفينة مزينـة بالـورود والأقمشـة الذهبيـة يتقدّمهـا رأس تمسـاح كبيـر، تلـك هـي سـفينة القائـد جاكوشـا ذات

الأشرعة الكبيرة، والتف أهل القرية من حولي مودعًا وهو يبكي في حين تجمعت قواربهم في مقربة من النهر حيث كان الجميع يتحضّر للّحاق بي لحضور حفلة الإستقبال والإعلان الرسمي للظهور المقدّس...

ركبت السفينة ولم أفلت الطفل من يدي وقد فرشوا لي أرضيتها بأوراق الأشجار والورود وعطّروا عرشي بالياسمين ومسك الليل، وقد خشع لي جميع خدم السفينة والرهبان وهم راكعون وساجدون، وراحوا يردّدون تبجيلهم لي وتقديسهم للصنم الأكبر في حين راح بعضهم يبكي معبّرا عن إيمانه الشديد...

جلست على العرش وأنا الاحظ الشعب الذليل وهو يعبّر عن تعظيمه لي من حولي، تأمّلت غبائه وعاطفته، تأمّلت شراهته لكل ما هو ديني، تأمّلت قدرة المخيال الديني لدى الشعب على جعله مسخًا على جعله وحشا وعلى جعله مجموعة من العبيد، على جعل الشعب يغفل عن الحشوات السياسية المبطنة في الدين وما يقوله شيَمُه وكيف يتمّ استعماله لأجل تقويض أي مسعى تحرري للانسان، لم يفهم الشعب صراع المصالح هذا، لم يفهم بعد هذه المنافسة الطبيعية بين الأنواع وكذلك بين البشر لتقلّد المناصب والمقامات وللسيطرة على الثروات، تأمّلت وجه أوجاشو وهو نائم كالملاك الطاهر كالإله الضعيف، برأسه الكبير الذي

يبدو أنّه بمقدوره أن يكسر كل شيء، أن يقتل كل شيء، حتّى هذا الجنون الديني الذي حولي، حول هذه المزدرية للدين والكافرة التي تجسدت في ثوب المعجزة والتي قُدّسَتْ في اللحظات الأخيرة قبيل الموت...

ثم غدت السفينة نحو حفلة الإستقبال، تحرّكت فوق النهر كالغيمة العطشى، كملاك الموت، وقنديل الحياة، لقد كان الجميع ينتظر وصول السفينة للقلعة، في حين كانت القوارب الصغيرة والمجدّفون فيها يتسارعون في النهر لملاحقتي ومجاراتي، في حين كانت الأمّهات يحملن أبنائهنّ ويشاورن لي بأيديهن، فقمت من مكاني أشاور لهن بيدي اليسرى وأنا أحمل صاحب الرأس الكبير باليد اليمنى، وراح بعض المتفرّجين على النهر أو على القوارب يسقط مغمًا عليه غير مصدّقٍ أنّه قد عاش ليراني أتحقّق، أنّه قد شاهد بأم عينيه معجزة التمساح، نبوءة الكتاب المقدّس، هذا الشعب الجاهل الذي يقدّس من يخدعونه و من يكذبون عليه، فماذا لو تجرأ أحد الآن وأنكر معجزتي وقدّم كل الحجج والبراهين على ذلك، بالتأكيد سيقتلونه، سيلغون وجوده أو على الأقل سيخيفونه ليصمت، ليتسنّ لهم التمتّع بمتعة الخرافة أكثر وأكثر دون أن يهزّ أحدٌ مضاجعهم الفكريّة، دون أن يجعلهم أحدا يفكّرون، إنّه ما يسمونه بالاستقرار، الاستقرار الذي لطالما كان

ودائمًا الورقة الرابحة للنظام الحاكم، إنّها الميزة التي يستفيد منها الشعب الغافل بتعطيل أدواته الفكرية ودحض تساؤلاته العادلة، و كذلك بقتل الاجابات المتوقّعة لأي سؤال قد يحرّك الوعي الراكد والمتعفّن. لأجل ماذا؟ لأجل بقاء النظام الحاكم من جهة ولأجل بقاء المنظومة الإجتماعية السائدة من الجهة الأخرى، لكن لما لا يفكّرون في حقيقة هذا الإستقرار، إنه استقرار في التخلّف، استقرار في الجهل، استقرار في الموت، ولو أنّ هذا الإستقرار قد أثمر أي نوع من أنواع السلم، فما هو سوى سلم مزيّف، سلم متخيّل، لأنّنا نتكر دائما لضحايا التمساح ونجعلهم أعدادا غائبة، إذ لا نعد موتهم في عداد الحرب بل في عداد المقدّس، وهكذا يبقى السلم المزيّف في الإستقرار المزيّف يصنع بهجة الشعوب النائمة وبقاء النظام المستبد في تخيلات تصنعها المنظومة الإجتماعية وسلطتها الحاكمة وتسمّى استقرارًا..

وقفت أمام رأس التمساح في مقدّمة السفينة وتأملته جيدًا، تأمّلت هذا المقدّس ذا الأنياب الكبيرة، تأمّلت بطشه وازدرائه للإنسان، تأمّلت ضحاياه في قوارب النجاة المزيّفة من حولي، تأمّلت وجوههم الغبيّة، الضاحكة الباكية،تأمّلت تقاسيم بؤسهم على جلودهم الناشفة، وعلى لحمهم الرخيص، لم يكن الأمر غريبا البتّة، بعضهم راح يلقي نفسه للتماسيح لتأكله تعبيراً عن

إيمانه بي وبالدين الذي حسبهم هو الدين الحقيقي ولا مجال للشكّ فيه، بعد أن أزال المعبد كل أنواع الخوف من ألم الموت وجعله متعة رائعة، كنت أراهم يرمون أنفسهم للتماسيح والتي كانت تلتوي عليهم بلا رحمة أو شفقة في حين كان أهلهم يبتهجون لها وهي تقطّعهم وهم يسألون الرب كالعادة أن يرزقهم الشجاعة للقيام بنفس الأمر...

لم تستغرق السفينة وقتاً طويلاً لتقترب من المعبد الكبير، إذ تكفي القوارب الصغيرة ذات مجدافين الكبيرين في أن توصلك إليها بسرعة، فالمسافة بين قرية ميهتابا والقلعة ليست بعيدة جداً، تذكّرت حينها يوم أخذت من أمّي، يوم أخذت إلى حفلة الاختطاف الرائعة تلك، وها أنا الآن في حفلة اختطاف أخرى، من إنسان إلى مقدّس، كان بالشط هناك قوارب كثيرة وجماهير غفيرة تصرخ معبّرةً عن فرحتها بوصولي وقد تزيّنت القلعة بأبهى حلّتها وجهّز المدرج الخشبي لأنزل من على السفينة كملكة مبجّلة.

وصلت السفينة لمرساها، ونزلت منها بوقار كبير، أدفع بآلامي السابقة في عمق هذه الأرض أسفل معبد الشر الجاثم فوق رؤوسنا ذا، وأنا أتأمّل الخنازير السعيدة تلك وهي تحوم حولي وقد هضمت جيداً براز الدين الناشف، وراحت الجماهير عن يميني وعن شمالي تحيّيني بأوراق القصب وأغصان الزيتون،

وهـي في حالـة مرضيـة مـن السـعادة والرضـا الدينـي تشـمئزّ لهـا العقـول المفكّـرة، وهـي تصـرخ بقـوّة (لا إلـه الاّ الصنـم، لا إلـه الاّ الصنـم، صـدق وعـده، لا إلـه الاّ الصنـم العظيـم) وراحـوا يكـرّرون نفـس النشـيد، امسـكت الرضيـع بقـوة في صـدري إذ خفـت عليـه مـن هـؤلاء الأمـوات الأحيـاء، مجانـين الديـن، هـذا الوبـاء القاتـل الـذي جعلهـم يتصرّفـون كالقـردة المريضـة، هـذا الوبـاء الـذي قتـل وجودهـم وجعلهـم يندمجـون في الجماعـة السـلطوية الأكبـر، بحثـت في فوضـى التقديـس تلـك عـن شـيء مـا يشـبهني، فلـم أجـد شـيئا علـى الإطـلاق، كان كل شـيء في ذلـك الحفـل ينافينـي، ينـافي طبيعتـي المتواضعـة ككائـن بشـري، ينـافي تمـرّدي في وجـه التماسـيح، هـل يعقـل أنّـي تحولّـت اليـوم إلـى تمسـاح آخـر بـدوري؟ ففـي كل مـرّة كانـوا هـم يهتفـون لـي كان جلـدي يـزداد سـمكًا وأنيابـي تـزداد طـولاً، كان شـعور السـلطة والتحكّـم بـات يأخـذ شـكله المحـدّب علـي وجهـي ويحفـر وجـوده في صميمـي الداخلـي، ومـع تكـرار صـور التقديـس والتعظيـم والتبجيـل مـن حولـي، كنـت أشـعر بغثيـان يطمـث قدرتـي علـى اسـتقبال هـذا الحجـم الرهيـب مـن الغبـاء، كنـت شـعر بالتقـزّز مـن بـركان العطـش الدينـي هـذا مـن حولـي، مـن حمقهـم وسـذاجتهم التـي جعلتهـم أرقامـا رخيصـة في يـد جاكوشـا وأتباعـه، هـؤلاء العبيـد الذيـن أمسـكو شـوكة الديـن وأدخلوهـا بعيونهـم، ليجعلـوا أنفسـهم عُمْيًـا للأبـد، ولكنّـي مـع ذلـك كنـت أمثّـل عليهـم دور السـعيدة بمـا

يقومون به، دور مزيّف كنت ألعبه لكي أقنعهم أكثر بواجبهم نحوي، ولكي أجعلهم يقدّسون حياتي وحياة الرضيع ولكي لا نعود مجدّدا ضحايًا لجنونهم الديني، على الرغم من ناب التمساح الذي بدأ لتوه يخرج من جبهتي على شكل قرن، ليحوّلني إلى آلهة...

كم تمساحًا عضّهم يا ترى؟ كم تمساحًا أدخل أنيابه بقلب وعيهم ليجعلهم أرقاما جوفاء، هكذا؟ ليجعلهم يسيرون في ظلام دامس أبدي وكأنهم يعيشون ببطن التمساح نفسه لا بقلب الحياة، هذا التمساح الرهيب الذي استعبدهم واستخلصهم و مقدّراتهم المادية والمعنوية لنفسه، ليتحوّل إلى صنم معبود، صنم متخيّل، يصنعون له قدرات رهيبة ومعجزات تفوق قدرة الإنسان على التقبّل ومع ذلك يتقبّلونها، كمعجزتي التي حالت بيني وبين غضبهم الديني، حالت دون إن يكتمل وجه التمساح وأنيابه فيهم، حالت دون حلول الصنم الأكبر الوهمي وانتقامه منّي...

لقد خدعت الرب، خدعته عندما تمكّنت من خداع هذه الأفواه المفتوحة، هذه الرؤوس المسطّحة العاجزة عن استقبال وعيها أو التقاط دبدبات وجودها الذي ذاب في المعطى الجمعي، لقد خدعت الرب عندما خدعت أتباعه البشريين، لقد خدعته ولكنّه لم يقل شيئا، استلذّ خداعي له كما يستلذّ أتباعه خداعه لهم، أو أنّه يستلذ الخداع أيّ كان مصدره، ربّ التقديس والخداع،

هكذا كنت أراه في وجوه هؤلاء المعطّلين عن التفكير، الممنوعين عن الوجود، المذابين والمنصهرين في الرب.

مشيت خطوة خطوة نحو المنبر الكبير الذي شيّد بالخشب لأجلس على عرشي، عرش الحارسة، عرش معجزة الدين التي ستزرع أنياب التمساح أكثر بلحم هذا الشعب المتديّن، ومازالوا هم يهتفون وينشدون، يقدّسون ويخشعون، يخضعون و يسجدون، في حين كان الرهبان يلبسون ألبسة غريبة، الرجال منهم يلبسون سراويلا ضيّقة بيضاء مفتوحة تبدي أعضائهم الجنسيّة عاريةً تماما كنوع من الإحترام لي، إذ كان عليهم أن يخفوا رجولتهم امامي في سراويلهم الضيّقة وان يبرزوا خشوع أعضائهم الجنسيّة كذلك بإبرازها وكأنّ لسان حالهم يقول لي ان افعل بها أيّها المقدّس العظيم ما تشاء، أقطعها أو ارمها للتمساح،لم يكن هناك أي فرق بين رجل الدين وعضوه الجنسي كلاهما كان خاشعا لي، يشبهان بعضهما بعض في سبب الوجود، فكلاهما ملغي وخادم لإرادة عليا مخفيّة في عالم آخر، عالم الأموات، عالم الأكاذيب، أمّا الراهبات فكنّ يرتدين ألبسة بيضاء بأكمام طويلة، ثوب أبيض كالثلج يتوسّطه حزام أسود كالعادة والغريب أنّ الثوب كان يبدي أثدائهنّ كاملةً دون أي غطاء، فهمت فيما بعد إنّهنّ كنّ يقترحن عليَ مساعدتي في إرضاع الربّ الرضيع، وأمّا في الجهتين الملويتين

من أسوار القلعة الأقرب إلى الحفل، فكان هناك ست رجال على الجهة اليمني وست مثلهم في الجهة الأخرى، يُجلَدون تطوّعًا وهم عُراة تمامًا، ودماؤهم تلوّن ظهور ومؤخرات بعضهم في حين كان الدم يخضّب صدور ووجوه البعض الآخر، ليُبدوا لي خشوعهم هم أيضا واستعدادهم للتضحية من أجلي ومن أجل الرضيع في جوٍ رهيب من العذاب والسخرية من ألم الإنسان، لأجل ماذا؟ لأجل مقدّس ما في عين الجماعة، مقدّس محروس بالهيبة والخرافة والتخويف، حدود ما تَرسُمها عقولهم المتحجّرة أمام الحريّة، أمام المتعة، أمام الفكر، أمام الشهوة، أمام العقول والقلوب، فتتحوّل بذلك الجماليات إلى أشياء ظاهرية، وأمّا الجمال نفسه فيتحوّل إلى طقوس من الألم والعذاب والخداع، ولو سألت هذه الوفود المنيّبة عن معنى الجمال فلن تجد من مفهوم له سوى طقوس العذاب والألم لهذه الحفلة الدمائية، فكلّ ما قد يأمر به الدين، أو أي فعلٍ لأجل الدين، يعدّ جميلاً ولو كَرِهَ الكافرون.

امتزج صراخ المتطوّعين للعذاب مع دبيب الدبور الذي انتشر في صوت المؤمنين المقدّسين لي، ليمنحني صوت الآخرة، صوت القيامة، هذا الفاصل الشيطاني الذي يجعل من النهر العلوي دَنِيًّا إلى وعي الشعب، يغرق خلاياه العقليّة ويجعله يسبح في عالم ما وراء الأشياء...

جلست على العرش ومازلت أمسك الرضيع في يدي، نفخ العازفون في البوق سبع مرّات ليذكّروا الشعب أنّهم في جو مقدّسٍ فوَجب عليهم الصمت بعدها وخرّ الجميع ساجدًا لي، أشفقت عليهم حينها فلم أجد حيلةً تمنع دموعي عن السقوط لمحو بعض هذا التخلف فيما يمكنها أن تخفيه منه في بصري، جاء أحد الرُهبَان وركع لي ثمّ اقترب بعض الشيء للجماهير ووقف وهو يرتّل على مسامعهم رسالة جاكوشا فنهض الجميع من خشوعه ذاك وراح يصغي له بوقار بالغ زاد من حدّة شفقتي عليهم واشمئزازي منهم ومن ذلّهم الأبدي واستعدادهم الطوعي للخشوع والسجود والركوع:

﴿باسم أولوهو، ربّ النهر، الصنم الأكبر، التمساح الأكبر، المقدّس الأكبر، باسم كل تمساح في النهر، وباسم الشهداء الذين ضحّوا بحياتهم ولحومهم لكي يُشبعوا تماسيحنا المقدّسة والمبجّلة، هاهو أولوهو اليوم يبشّرنا بوجوده، يبشّرنا بصدق رسالته، يضعنا أمام الأمر الواقع بضرورة الرضوخ لأوامره واجتناب نواهيه، والاقتراب له بلحومنا وحياتنا في أفواه تماسيحه المقدّسة، والابتعاد عن معاصيه خاصة منها ما كان يقرّبنا من بعضنا البعض ويبعدنا عنه، كحب الآخر وحب الحياة، هذا الصنم الأكبر الذي جعلنا أمّة عظيمة، أمّته التي اصطفاها من بين كلّ البشر، يا أيّها الشعب

ظيم بتذلله للتمساح، يا أيها الشعب القوي بضعفه أمام المعبد،
من آمنتم برسالة الإيمان، هاهو ربكم يخرج لكم من صلب
زدراء والكفر معجزةً من معجزاته، ليجعلكم تشهدون بأمّ أعينكم
'دة الرب الصغير، أوجاشو المقدّس وحارسته التي اصطفاها من
ن كلّ راهبات المعبد لتكون آيةً من آياته وهو الصنم العظيم. يا
ـا الشعب لقد جاءت المعجزة لتخرس الأفواه الملحدة والمشكّكة
ديننا الحميد، وفي أحقية معبدنا العظيم وشرعيته في حكمكم،
أيّها الشعب فلتزيدوا من تضحيتكم لأجل الدين شكرا للربّ
ى نعمة الظهور المقدّس، نعمة الصنم الأكبر الذي اختار
يهديكم بصيصًا من روحه بينكم في طفل كان محرّما على
حياة فأصبح محرّما على الموت، فيا أيّها الشعب الكريم يا
ن كنتم دومًا مخلصين للصنم الأكبر هذا موعدكم لزكاة المال
ـروح فمن ضحّى البارحة بطفل لتمساح عليه اليوم أن يضحّي
فلين، ومن صلّى ركعة عليه اليوم أن يصلّي ركعتين، ومن تبرّع
ـعبد بدرهم واحد عليه اليوم أن يتبرّع بدرهمين، يا أيّها الشعب
والكم للتماسيح، أرواحكم للتماسيح، لحومكم للتماسيح، عقولكم
ماسيح، من فكّر سرًا عليه أن يستحي اليوم ويخشى الصنم
كبر، من شكّ عليه أن يتوب اليوم قبل الغد وأن يلقي نفسه
ـساح جائع لكي يفوز برضا الرب قبل فوات الأوان، يا أيّها
ـعب الذليل أمام التمساح العظيم، يا من تستلذ ذُلّك لتصبح من

خلاله عظيما، اقتربوا للرب أكثر وفلتزد عباداتكم وتضرّعكم إليه، لأجل رضاه ورضا التماسيح المقدّسة، أمّا بعد إخواني في التمساح، اليوم أضفنا في دستورنا مادة جديدة تقول: ألجا ابنة كيشاريني وأوجاشو ابن الميّتة مقدّسان، لا يجوز ازدرائهما أو الإساءة لهما، ولو سرًا فالرب يعلم ما يُجهرُ وما يُسَر، وبالتالي من يزدري أو يسيء للحارسة وروح الرب سيلقى جزاءً وعقابًا شديدًا، وبعد هذا فشرفٌ عظيم لي اليوم أن نستقبل معجزة من معجزات الآلهة في معبدنا الأكبر في قلعة الدين ومن اليوم نسعدُ أن نعلن لشعبنا السعيد والمبارك بأنياب التماسيح من حوله عن رسميّة الظهور المقدّس، لنبدأ مع بعض مراسيم تتويج الحارسة﴾

ثمّ راح الراهب يصرخ: ﴿لا إله إلا الصنم، لا اله الاّ الصنم﴾ وراحت الجماهير الشعبية تهتف بصوت واحد وبكل حماس: ﴿لا اله الاّ الصنم، لا اله الاّ الصنم ، لا اله الاّ الصنم﴾

وفي خضَمِّ الهتاف صمد صوت البوق من جديد، واقترب راهب عاري حاملاً معه تاجًا على يديه اقترب منّي رويداً رويداً مع صوت الإيقاع المضطرب وصراخ الخنافس العمياء، اقترب مني وانحنيت له فوضع التاج على رأسي ونفخ في البوق الكبير فغادرت الطيور أغصانها كالنحل الهائج، ثمّ سجد لي وإذا بسيف الحرّاس يقطع رأسه فاتّسخ ثوبي ووجهي بدمائه، صُدِمت حينها فعانقت

أوجاشو بقوّة في صدري ووضعت يدي على فمّي حينها وصرخ الراهب المتكلّم بقوّة وسعادة: ﴿وهذه أوّل تضحية رسمية لأجل الحارسة وروح الرب، تبارك اسمه عاليا، لا إله الاّ الصنم، لا اله الاّ الصنم﴾

وراحت الجماهير تهتف مجدّدا سعيدةً بالأضحية: ﴿لا إله الاّ الصنم... لا اله إلاّ الصنم﴾

ثمّ حُمِلَ جَسَدُ الراهب ورأسه المفصول في قطعة قماش ووضع فوق كأس كبيرة من نحاس وراح يُعصرُ من دمائه بآلات حادة ثمّ ملأت بعض الكؤوس الصغيرة منه وأهديت للجماهير ليرتشفوا منها بعض القطرات والراهب المتكلّم يصرخ كعادته وهو سعيد: ﴿هذه دماءٌ مباركة، أنّها دماء الراهب المضحّي، اشربوها، لتغدوا في عروقكم ولتبارك أحفاد أحفادكم﴾

وكانت حينها الجماهير تتهافت على كأس الدم في مشهد مخيفٍ ومُريب يبرز عطشهم للعنف الذي أنبتته فيهم السادية الدينيّة، كان لبدّ من قتل الراهب وإهانته أمام الجماهير ليصنعوا حالة من الخوف والرهبة في عقولهم، كان لبدّ من التضحية بمقدّسٍ أصغر لصناعة قداسة مقدّسٍ أكبر، قُتِلَ الراهب العاري لاحياء المقدّس الملبوس في كل عقل عاري، وشُربت دماء الإنسان لكي يصبح رخيصا في المخيال العام، ولكي لا يتعاطف إنسان

مع دمائه أبدًا، وليصبح الجميع نذلاً حقيرًا ورخيصًا في منظومة كهنوتية حاقدة على كلّ ما هو بشري، على كلّ ما قد يمثّل حياةً من شكلٍ ما، وهناك برز الحقد الديني على كل المفاهيم العقلانية، وتأمّلت وجه التمساح في وجوه كل تلك القِرَدَة البشريّة، كان من الصعب أن أرى وجه الإنسان فيهم، كان شيئًا ما يحول دون وصولهم إلى درجةٍ بشريّة، كان نفس الشيء يطمس عقولهم عن التفرقة بين الشرّ والخير، بين الفضيلة والرذيلة، ذلك الشيء هو الدين المسيّس، الدين الفاسد، الدين السلطوي، ثمّ حُملت بقايا جسده المعصور والقت للتماسيح المجوّعة لكي تستلذّ لحمه وسط هتاف جماهير الجنون الديني.

وفي لحظات عميقة من كراهية الذات واحتقارها عادت الجماهير الى نشيدها الديني مقدّسة لي في غناءٍ مستمر، وفي وجوه مبتسمةٍ وكأنّها لم تشاهد لتوّها عملية قتلٍ وعصرٍ لانسان:

﴿جئناك جئناك يا حارسة الإله من كلّ قريةٍ جئناك، نرتّل كتاباتنا العتيّة، أجدادنا أخبرونا عن حارسة تقيّة، وروح الرب تسري في الرعية، لا إله ّإلا الصنم، لا إله إلاّ الصنم ربّ التماسيح القويّة، تباركت السلطة العامة وتقدست في أرض النهر، لا إله إلاّ الصنم﴾

كنت أستمع لهم منتظرةً بفارغ الصبر انتهاء مسرحية الدماء والغباء هذه، مسرحية القتل والتزييف، كنت أشعر حينها بمسؤوليتي بفعل أمرين مهمين، أمّا أن أحيي الجميع من سباتهم ونومهم الذي جعل منهم مجموعة من فاقدي الإحساس والضمير، مجموعة من الأموات الذين يظنّون في موتهم الحياة، أو كان لديّ بديل آخر أن أقتل الجميع لكي أريحني من هذا الكذب الذي ارتديه ولأنّي لطالما كنت أزدري المقدّس ازدريت نفسي حينها، كرهت نفسي، ولم يكن لديّ من حيلة في يدي إلا أن احافظ على قداستي لأحافظ على حياتي وحياة الطفل الرضيع، ربّما قد يموت الكثيرون وهم يضحون بأنفسهم تعبيراً عن تقديسي، ولكنّهم سيفعلون هذا كمغفلين قد طُمِسَت عقولهم ورفضوا تحريكها، أمّا هذا الطفل الرضيع فهو بريء ولم يصل بعد إلى هذه الدرجة من نكران الذات لأجل التمساح، وسأعمل جاهدة لكي لا يصل إلى ذلك...

وقف الراهب مجدّداً منادياً على البوق الكبير أن يرفع أذانه لكي ألقي كلمتي المقدّسة على مسامع الجماهير الصمّة، وإذ لم أحضّر أي كلمة بمناسبة الحفل فلم أجد طريقاً لذلك سوى بالإرتجال، وقفت ولازلت ممسكة الطفل في يدي وخاطبتهم بنبرة مستعلية تشبه قداستي الجديدة وسط هتافهم المرضي:

﴿يا أيّها الشعب المزكّى، يا أيُّها الشعب الطاهر، المطهّر، المقمّر والقابل للامتلاء بأي شيء باسم الدين. يا من قدّمت حياتك كاملةً للتمساح، يا من قدمت عقلك كاملا للصنم الكبير، يا أيها الشعب الصابر، المتذلّل للرب، يا من جعلت الموت متعة والحياة ألم، يا أيّها التائهون في الإيمان، يا من تناسيتم وجودكم في زحمة السير إلى الرب، يا من عطشتم وبحثتم عن الماء في كل مكان ومنعتم عنكم وعن أبنائكم ماء النهر، يا من عذّبتم وقتلتم وأكلتكم المقدّسات، يا من عشتم لأجل الموت، يا من تمحون وعي أبنائكم بتوريثهم ذهنياتكم، هاهو الربّ يصدق وعده ويهديكم من روحه معجزة تقرّبكم أكثر منه، تجعلكم تتمنون الألم أكثر لأجله، يجعلكم أكثر ذلاً لأجله، يأخذ برقابكم أقرب نحو استعبادكم، لقد جاءت معجزتي لتذكّركم بضرورة التنازل عن بعض الحرّيات والحقوق لأجل المعبد الكبير، لأجل ديننا هذا الّذي علّمنا التواضع للموت وأنكر علينا وجودنا وحياتنا واستقلاليتنا، لقد أبعد عنّا ضلام الحريّة والحب وجعلنا أكثر واقعيّة وعقلانيّة لنتقبل حقيقتنا ككائنات ثانوية لم يكن وجودها على الأرض سوى لعبادته وتأليهه و تقديس تماسيحه الرحيمة، هذه الكائنات البنية ذات الجلد الخشن القريبة للاخضرار، ذات الأنياب الكبيرة، إنّها آلهتنا القويّة، فلطالما دعوناها بتقبّل لحومنا طعامًا لها فلم تكن سوى سريعة في استجابتها الدعاء وذلك لرضاها عنّا ومحبّتها لنا،

فمن ذا الذي تأكله التماسيح وينعم بلذّة التقطّع بين أنيابها؟ إنّنا محظوظون بهذه النعمة العظيمة، نشكر أولوهو العظيم أنّه جعلنا بمقربة من رحمته التمساحية واصطفانا لنتلذّذ بألم التمساح. فتندمج لحومنا في المقدّس، اندماج الجسد في الجسد، اندماج الإنسان في الآلهة، لنُقَدَّسَ بدورنا ولنستحق من بعد ذلك العيش في جنّة التماسيح العلوية ليستقبلنا أولوهو ومعه جاكوشا في رحلة من اللذة الأبدية على أبواب النعيم﴾

قاطعتني الجماهير العمياء، فيما كنت أخطب فيها من لغة لا أؤمن بها وراحت هي تهتف بصوت واحد ﴿ لا إله الاّ الصنم، الشكر للرب على نعمة التمساح﴾، وفي وجه تلك الحالة المرضية من تخيّل نعمة التمساح رأيت أحد الشباب يبكي خشوعا وقد وصل إلى ذروة الايمان وهو يشكر الرب على نعمة التمساح متأثّرًا بخطابي وراح يجري متحمّسًا لتلك النعمة وقد ذرف ما يكفيه من الدموع وألقى نفسه للتماسيح الجوعى فتلاقفته دون صبر وأعطته المها بكرم بالغ ليدخل الجنّة، لحظات بعيد ذلك وراح بعض الشباب والشيوخ يلقون أنفسهم تبعًا لها وسط تسبيح الجماهير وفرحتها بالعطاء الديني وهم يقلّدون الضحيّة الأولى كما جرت العادة دائماً...

لا أدري كيف فهموا كلماتي تلك، ولكنّي أردت أن أرسل لهم بعض الرسائل الخفيّة لإنقاذهم من جُحْر التقديس والتخلف ولأرفعهم من درجة ضحايا مستلذين إلى درجة ضحايا يفهمون المهم ومن ثمّ يتمرّدون عليه لكي يغدو يوماً ما بشراً أسوياء، بشرٌ لا تخدعهم الكلمات والشعارات الواهية التي تتجمّل بالعواطف الرنّانة و آيات الدين، هل رأيت يا أوجاشو عزيزي كيف استطاعت الكلمة المزيّنة بكلمات التقديس أن تدفع بذلك الشاب إلى الموت بديه؟ أن يصبح مضغة سهلة في فم التماسيح الجائعة؟ فاللغة لها دور كبير في صناعة الضحيّة، في صناعة موته، في صناعة تضحيته وفي صناعة بؤسه، في جعله مستعبداً للأبد، فكلمات التقديس المتوارثة والمتكرّرة في الحقب العمرية المختلفة للإنسان الواحد من قطيع المتدينين بمثابة كلمات مفتاحية للسيطرة على غريزته الحيوانية وحبه في البقاء، تلك الكلمات المفتاحية التي تُشْعِلُ في الإنسان جماعته وأفكارها فتسحق وجوده المستقل بشكلٍ كلّي، بشكلٍ مطلق، بشكلٍ مزرٍ، فتنبت فيه أغصان الدين والمجتمع فيقترب الإنسان من حتفه ومن موته ونهايته...

لا شكّ أنّ الدين، الجماعة، السلطة، القطيع، التقاليد والعادات كلّها تسعى بقلب واحد لإلغاء الإنسان، فلا غريب إن دفعته إلى قتل نفسه أو تضحية بوعي التنافسي والمحب للحياة لأجلها، فهي في الحقيقة توصله إلى مرحلة عميقة من نكران الذات لأجلها،

ثم لمحو الذات، ثم لمحو الجسد، فالمحو يكون عبر مراحل، عبر سلّم، يدفع الإنسان أوّلا لمحو مشاعره، ثمّ لمحو عقله، ثم لمحو وجوده المعنوي، ثم لمحو وجوده الجسدي، إنّها طريقة مثلى في إلغاء الإنسان وتدميره، حيث تسحب تلك المفاهيم المتسلّطة والمتجبّرة طاقة الإنسان ووجوده لصالحها، لصالح بقائها هي ثم تستخدم وجوده لمحو الآخر وهكذا، كنظام تكراري يقضي على الحياة بطريقة آلية لصالحه، ولذلك لطالما دعى الدين أتباعه للموت لأجله فهو في الحقيقة كان يدعوهم لهدفه الرئيسي في إلغاء الفرد، سواءً أن كان ذلك روحياً أو عقلياً أو حتى جسدياً إن لزم الأمر.

لقد كان دين التماسيح يدمن لحم الإنسان، كانت مطالبه المتكرّرة بتلك القرابين البشريّة سواء في الكتاب المقدّس أو في حفلات الرهبان وفي العبادات وفي الفقه تجعله يبدو شرهاً لالتهام الإنسان، جائعاً لمص وجوده وفكره ووعيه، لم يكن دين التمساح ليسمح ببروز إنسان حر في هذا المرج الأحمر الدموي، لم يكن مستعداً للرفع من سعر الإنسان، كان رُخصه غلاء الدين، فقد كان يعلم أن بروز أي إنسان هنا أو الرفع من قيمته سيجعل الدين يخسر قيمته وبروزه، وعكس هذه القاعدة هي هدف دين التماسيح بالأساس...

كان عليّ أن أتصرّف، كان عليّ أن أوقف حمّام الدم ذاك، ولكن لم يكن عليّ إنقاذ ضحاياه، المتطهرين حسب الدين والشهداء، كان عليّ أن أواصل خطابي لكي أدفعهم للإستماع لي وتقديسي عوض الإلتهاء بالتماسيح ورمي أجسادهم لها، أجسادهم الفارغة التي لا عقل لها ولا هناك قرّرت مواصلة الخطاب:

﴿يا أيّها التائهون، هاهو الرب ينزل بعضًا من روحه لكم في هذا الطفل الرضيع، لكي يكون رقيبا عليكم، ولكي تتوقفوا عن مراقبة أنفسكم ومراقبة بعضكم البعض، ليأخذ بيده هذا العمل لترتاحوا أنتم من دور الرقيب على الناس وأفعالهم، لكي تتعوّدوا على حياتكم وعلى العمل فيها عوض التباكي عمّا يفعله الآخرون، لكي يعود النهر لكم وتعودون إليه، ولكي يعيش الصنم فيكم وتعيشون لأجله فتعيشون لأجلكم، لاتبحثوا عن الألم، الألم هو الذي سيأتي إليكم، إنّه المتعة المؤلمة التي تبحث عنكم في كتب الدين، في رجال الدين، أولائك الذين وُلدوا في اليوم المحرّم ليحرّموا عليكم من بعد ذلك كل شيء لأجل نعمة المقدّس، لأجل نعمة التمساح، أنتم من استبدل حياته بالألم، أنتم من جعلتم من أنفسكم عظماءً بتذلّلكم للآلهة، وباستعبادها لكم، أيّها الشعب العظيم سبّح بحمد جاكوشا، قائدنا العظيم والذي اختاره أولوهو ليكون القائد الأبدي على شعبه العظيم، أمّته العظيمة، وليشهد

قدوم المخلّص، قدوم هذه الذات الإلاهية المذكورة في الكتاب المقدّس ولو جزءاً منها لكي يتواضع لكم وليكون صلة ما بين النهر العلوي والنهر السفلي، يقول الرب في الكتاب المقدّس﴾

يقسم الرب من روحه طفلاً يزيّن لكم النهر الدّنيّ كمصباح ذري، ويجعل لكم فيه المعجزات والحكم والعلم، ويفتح لكم من خلاله البركة واليمن، فضحوا بوجودكم وكينونتكم إليه، كما تضحّون بوجودكم وكينونتكم إلي، واصغوا له واسمعوا لعلّكم تباركون، يا أيّها الشعب لا خلاص لكم اليوم سوى بالتقرّب للرب، بالتقرّب لتماسيحه، وبتبجيل القائد جاكوشا فهو لسان الربّ في الأرض، وبنكران الذات أكثر وادماجها أكثر في الجسد الموّحد للجماعة المتديّنة الذليلة ليسهل على الرب مراقبتكم وليسهل على جاكوشا حكمكم، هذه هي رسالتي اليوم لكم فاشكروا الصنم الكبير على نعمة الظهور المقدّس و على نعمة التمساح﴾

وبمجرّد ان أنهيت خطابي عادت الجماهير إلى هتافها الديني المرضي: ﴿ بالروح بالدم نفديك يا تمساح، بالروح بالدم نفديك يا جاكوشا، لا إله الاّ الصنم، لا إله الاّ الصنم، ربّ عضّة التمساح المقدّس، وانياب جميع المقدّسات﴾

حينها تشوّكت أعصابي وغدوت عليها، غاضبة أدّعي السعادة وقد منحت النظام ما يريد من خطاب لكي أضمن بقائي وبقاء

أوجاشو على قيد الحياة، كان واجبا عليّ أن أهادنه،كان عليّ أن أوقع هذا العقد اللفظي مع جاكوشا لكي أبدي له استعدادي للمرور في خطّته، فلما الكذب؟ كلانا يعلم هذه الكذبة القاتلة، كلانا يعلم أن لا وجود لمعجزة ولا شيء ولن يكون صاحب الرأس الكبير في أمان الآ وقد أظهرت الولاء لقائد التماسيح، لجاكوشا، ولكي أفعل ذلك كان عليّ أن أدفع الشعب نحو الشعور بعظمة القائد وقداسته هو الآخر لكي أقدّم تبريراً لوجودي أنا والطفل على قيد الحياة كأداة من أدوات القائد أوجاشو في حكم الشعب والتسلّط أكثر عليه لا سلاحًا يهدّد بقائه.

لقد بدى الأمر واضحا، المقدّس الجديد أتى أكله، الشعب زاد من درجة تضحيته لأجل الدين ولأجل المنظومة، وأصبح متمسّكًا بقيمها الإستبدادية أكثر وأكثر، وقد قدّم اعتراف المعبد بالظهور المقدّس الى زيادة أيمان الضحايا الأبديين بالتمساح، هؤلاء الذين اختاروا بأيديهم أن يكونوا ضحايا السلطة السياسيّة التي تتقوّى بالدين، وهكذا أفرغوا أنفسهم من أنفسهم واستوطن جاكوشا أجسادهم بدلاً عنهم، سكنهم أولوهو، وحاصر عقولهم بحجارة صنمه الكبير، هذا الصنم الذي لم يسأل أحد هنا إن كان حقيقة أم خيال...

وفي وسط هتاف القردة وتسبيح الخنافس، نُفخ في البوق لمرّة أخرى، فاصطفّ الجميع ووقف الراهب وراح يصرخ فيهم بعطش القتل: ﴿ قبل أن نأذن لكم بالإحتفال علينا أن نتبرّع بأضحية صغيرة للتمساح كمسك الختام فمن يشأ أن يفعل ذلك لأجل الطفل المقدّس؟﴾ راح الكثير منهم يتنافسون لأجل أن يكونوا الأضحية الأخيرة في الحفل فداءً لروح الرب الرضيع، فصرخت أحد النساء وقد استطاعت أن تخرج من بين الحشود وأن تتجاوز الحرّاس...

باكيةً بكل خشوع مترجيةً الراهب وتقبّل قدماه وهي تحمل طفلها الرضيع بين يديها...

﴿أرجوك أقبل هذه الأضحية الرخيصة منّي، دعني أبارك ابني، ضحّوا به، أعطوا جسده الفاني للتمساح المقدّس وخذوا بروحه الأبديّة إلى نهر التماسيح العلوي﴾ فتقبّل الراهب منها أضحيتها وحملها عاليًا حمل الرضيع وهو يبكي ثم خاطب الجمهور: ﴿هذا أوّل رضيع يزكّى به لأجل الرضيع المقدّس، مصداقاً لقول أولوهو: مزال الخير في شعبي إلى أن يأكل التمساح الأكبر الأرض ومن عليها﴾ وراحت الجماهير تصفّق بحرارة لأمّ الرضيع عرفانا على تضحيتها وإخلاصها للدين، أمّا هي راحت تشكر الصنم الأكبر، وهي تودّع ابنها وتسأل له الغفران الإلاهي،

وهي تضحّي به لأجل رضيع آخر، حاولت أن أوقف الجريمة تلك ولكنّي تراجعت في آخر لحظة فماذا قد أفعل وسط هذا الجهل، لن أستطيع إيقاف عمليّة الجنون الديني هذه، ثم لفّ الراهب الرضيع في قطعة قماش أبيض وسط صراخ الجماهير وألقى به للتماسيح حيًا وهو يقرأ بعض التعويذات و يبكي خاشعًا يسأل الرحمة من التماسيح، والتي كالعادة لم تتوانى عن مضغه وتقطيعه، تلك المقدّسات الشرهة والجائعة التي لا تشبع من التهامنا، وحينما فعل ذلك راحت الجماهير تصفّق بحرارة وسعادة، بحرارة تشبه جحيم أولوهو الذي وعدهم به، نفس الجحيم الذي كان يحرق قدرتهم على تمييز الفضيلة من الرذيلة، وكما تحمل أمواج الموت أرواح القتلة القادمين إلى الحياة كان بعض الأباء يحملون أطفالهم على أكتافهم ليتمكّنوا من رؤية الطفل الرضيع وهو يُفترس ويمزّق لحمه من قبل الألهة المتوحّشة وهم في قمّة السعادة والإحتفال، كانت شفاههم طويلةً تصل اذقانهم بعيونهم وترسم فيهم ضحكة الشر، كانوا يتسارعون لذلك، يتسارعون لرؤية طفل يتمزّق، روح تُزهق، وكانت أمّه الأكثر سعادة بينهم، كانت عروس تلك الجماهير وهي تعبّر بكلّ سذاجة وغباء وإخلاص للدين عن مدى سعادتها وهي تنظر بفرح لبقايا طفلها وهو يتجزأ بين التماسيح، رجلٌ لهذا يَدٌ لذاك: ﴿ انظروا لإبني وهو يستمتع بالم التمساح، انظروا إليه الآن سيذهب للجنّة وسيعود ليأخذني معه

ى هنـاك قريبـا، وداعًـا ابنـي العزيـز لقائنـا في الجنّة»كانـت بلهـاء
.رجـة لا تتصوّر.كانـت مؤمنـة لدرجـة لا تتصـوّر. فاكلت التماسـيح
رمتها لدرجـة لا تتصوّر أيضـا. لقـد آمنت بالحقيقـة التـي تؤمـن
بـا الأغلبيـة. الحقيقـة المزيفـة التـي أقيمت لأجلهـا المعابـد. سـراب
حقيقـة ذاك المغلّف بالديـن، بالعقيـدة، بالمقـدّس، لقـد رمـت ابنهـا
ـى لارجعـة، سـتفتقده؟ حتمًـا؟ ربّمـا؟ ولكنّهـا بالطبـع مؤمنـة بأنهـا
نمنـت لنفسـها مكانًـا في جنّـة التمسـاح...

ومـن بعـد ذلـك وضعـت الفواكـه ووزّعـت المأكـولات علـى الجماهيـر
راحـت الفرقـة الموسـيقية تعـزف ألحانهـا وسـط رقـص وابتهـاج وقـرع
كـؤوس الخمـر الدينـي وعـادت الأمّ لحالتهـا العاديـة سـعيدة وكأنّهـا
م تقتـل ابنهـا لتـوه وهـي تمنحـه للتماسـيح...

تحمّلـت معاناتـي في صمـت وأنـا أتصنّـع ابتسـامة مزيّفـة ثـم جـاء
جـال عـراة الصـدر أشـدّاء البنيـة طـوال الأجسـاد، يحملـون عرشًـا
علـى أكتافهـم وذلـك ليحملوننـي إلـى صـدر القلعـة ، ولا أدري مـا
حاجتهـم هـم أيضـا لابـراز أعضائهـم الجنسـيّة لـي وهـم يقيدونهـا
بالحديـد كنـوع مـن التعبيـر عن الاحتـرام لـي كمقـدّس آخـر وجـب لهـم
الإنحنـاء لـه. ألهـذا الحـد يسـمحون للمقـدّس الدينـي أن يتدخّـل حتـى
في أعضائهـم الجنسـيّة، حتّـى في شـهوتهم، حتـى في لباسـهم، حتّـى في
اختيـار طريقتهـم في إظهـار الاحتـرام؟

حملني الرجال هنيهة هنيهة والرهبان من حولي يركمون ويسجدون لي، وأنا أحمل في عقلي كل تلك المشاهد الدموية فيما سموه إحتفالاً، وفيما سمّيته أنا محفل الدماء، وليس بالعجيب أن يكثر سفك الدماء هنا، أمام المعبد الكبير، فعلى تماسيحه أن تأكل أكبر عدد من البشر ليواصل هو السيطرة على مقدّراتهم...

وصلت إلى البوّابة الكبرى للقلعة، وفُتحَت لي بأنوارها الساطعة وألوانها الفاقعة التي كانت تنتشر في أوشحتها، وقابلتني بيترام في ثوب أبيض مطرز بالفضّة والذهب و هي في أوجّ سعادتها تحمل صحنًا بلوريًا في يدها فيه بعض النبيذ للترحيب بي، فقد اختارها المعبد لذلك لعلمه بمعزّتها عندي، تأمّلتها وكذا تأمّلت شعرها وهو يتوهج مع الشمس وعيناها البنيتان تتلوّنان أكثر، وهي تبتسم، فأمرتهم بإنزالي، وضعت الطفل على العرش واتجهت مسرعة نحوها فاسقطت الصحن من يدها وعانقتها بقوّة ونحن نبكي اشتياقا لبعضنا البعض، حينها تذكّرت كلّ شيء، تذكّرت يوم تمّ اختطافنا من طفولتنا لنصبح أنذالا كالبقيّة، لننظم لعصابة قوّادي الدين كباقي رجاله ونسائه، لنصبح قوّادين لدى جاكوشا وسلطته، لنصبح ما نحن عليه اليوم، مجرّد خدم للتماسيح اللعينة، خدمًا للمقدّسات الخرافية، ومساهمين في صناعة صور الخوف في المخيال العام، عانقتها بقوّة، وأغلقتها بصعوبة، بينما هي

أمسكت يدي بكلتا يديها ثمّ قالت لي والدموع لا تفارق عينيها:
﴿ لقد انقذته يا الجا لقد فعلتها، دعيني أراه وأحمله أرجوك﴾

أفلتت بيترام يدي إصبعًا إصبعًا ثمّ اتجهت مسرعةً وهي تبتسم نحو العرش المحمول، مسحت دموعها ثم حملت أوجاشو بين يديها وهي في كامل سعادتها: ﴿أهذا هو صاحب الرأس الكبير إذن؟ إنّه محظوظ فعلا... هو الوحيد الذي لم تستطع التماسيح أكله، لقد استطاع كسر أنياب الدين، أسنان المقدّس﴾ ثم ضحكت بيترام مثانيةً وكأنها تخشى من عضّة التمساح على وجهي وعانقتني بقوّة لكي تمتص مني قداستي إلى إنسانيتها، معربةً عن سعادتها بعودتي للمعبد ثمّ جاء الرهبان وطُلِبَ منّي بكل خشوع أن أتبعهم إلى مكان المبيت، أمسكت بيترام من يدها والطفل الرضيع في العرش محمول على أكتاف نفس الرجال دائما واتجهنا صوب مخشعي ومضجعي وحيث سأُعبَدُ في هذا المعبد وسط خشوع واحترام كلّ الرهبان. سألتني بيترام في تلك اللحظة: ﴿ الجا ما هو شعورك وقد أصبحت مقدّسًا جديداً ﴾ أجبتها على الفور: ﴿أشعر بالتقزّز﴾ سألتني مجدّد: ﴿ التقزّز؟ ولما التقزّز؟ ﴾ نظرت في عينيها وأجبتها متحسّرةً: ﴿أشتاق لنظرتك الباردة هل تتذكرينها؟﴾ أظنّها قد نسيت ولكنّي لم أنس كان عليها أن تتذكّر أنّنا نحن أيضا كنّا ضحايا المقدّسات، ذلك المقدّس الذي جعلنا

نخطف من أهلنا ونرمى إلى الأبد في متاهة العبودية هذه، ر
لا تتذكر، فقد غُسل دماغها بما يكفي لخنق ذاكرتها مثلما يُف
دائما أو إنّها تتحدّث مازحة لا أدري ﴿نعم مازلت أتذكّر جيد
أجابتني بيترام ثمّ عادت لتقول لي:

﴿ولكنّنا لطالما كنّا ضحايا للمقدّس، ضحايًا فقط، و
أنّك سرت مقدّسًا جديداً اليوم فبإمكانك أن تخبريني عن ش
المقدّس وهو يضحّي بالآخرين لأجله فأنت اليوم مقدّسة وقد
التضحية بالكثير من المؤمنين لأجلك﴾

أجبتها ونحن نصعد السلّم: ﴿بيترام، شعوري كمقدّس
يختزر أن يكون مقدّسا سوى للحفاظ على حياته لن يكون بأفض
حال من شعور ذلك المؤمن الذي يتمزّق بين أنياب الآلهة المقدّ
ولكن دعيني أخبرك أنّ أيّ مقدّس يسعى حقًّا لسعادته ومصل
في البقاء كمقدّس سيكون سعيدا جدًا بتمرّغ الآخرين في وح
فبقاء المقدّس مرهون بوجود أكبر عدد ممكن من المضحّين، م
هم مستعدين كلّ الإستعداد لتنفيذ أوامره، وللتضحية بحيا
لأجله، المقدّس هو أداة تجميد، أداة غلق، أداة قتل، سبب وج
المقدّس في الكيانات السياسية لا يهدف سوى لإيجاد مبرّر للة
ولجعل الضحيّة يدافع عن جلاّده، المقدّس ليس سوى طري
إرهابية لأخلقة الشر، ولإفراغ السلطة من هدفها الحقي

وجعلها تنخرط في مهمّة اعتباطية في الدفاع عن موروثات الشعب وقيمه البالية، ولشرعنة القهر بأسلوب ديني ومنه شرعنة كل أنواع الفساد من سرقة واختلاس وغيرها، التنوّع القداسي ذا المنشأ الواحد، أو الوحدوية التقديسية كذلك، ليسا سوى حالتين متشابهتين ومساهمتين في مقدّس واحد وهو المصلحة، ومن هنا التقديس هو فعل الخطر، هذا المقدّس المرسّخ بالعنف، وبتجريد الإنسان من إنسانيته، ومن ثمّ صنع ضمير جديد له متكيّف مع مخاوفه الجديدة والتي يسمّيها عادة بالمقدّسات»

واصلنا المشي على السلم و أنا أحادثها أحيانا بصوت خافت كلّما اقترب راهبٌ منّا، ولكن لعلمي بكوني أصبحت مقدّسًا جديدًا كنت أدرك بأنه لا راهب بإمكانه أن يتجاوز مخاوفه منّي، لقد أصبحت متلازمة خوف جديدة، صنمًا لبدّ أن يركع له وأن يسجد، بل سيقف عند الخط الذي رسمه الكتاب المقدّس أمامي، وبما أنّي مقدّسة فهذا يخولني أن أقول آرائي بحريّة كوني أتساوى مع المقدّسات الأخرى في الحقوق والتي تتمثّل في (حريّة الرأي، حريّة إتهام المؤمنين، حريّة إهانة الآخرين، الحق في ازدراء ما لا يمت بالصلة مع المقدّس نفسه، الحق في وضع حدود على المؤمنين، الحق في وضع المحرّمات،الحق في طمس الآخر، الحق في قتل الكافر، الحق في قتل المسيء، الحق في وضع شروط قاسية

للحصول على الرضا، الحق في الاستعلاء والتكبّر، الحق في نشر الكراهية... وغيرها من الحقوق).

سألتقي بيترام مجددًا: ﴿ وبما أنّك قد منحتني فرصةً جديدة في الحياة مع كلّ تلك الحقوق التي لا تجوز سوى للمقدّسات ماذا ستفعلين بعدها ﴾ ابتسمت حينها وطرحت نفس السؤال على نفسي، ما الخطوة المقبلة إذن؟ هل سأبقى مقدّسة إلى الأبد التهم الآخرين؟ ربّما الإجابة الأعمق التي طرأت على بالي حينها كانت أدق.فبكوني حارسة روح الرب فهذا يجعلني في درجة أعلى من كلّ المقدّسات الأخرى. فلما لا أقوم بإرضاخها لي، وجعلها أدوات بسيطة في يدي ثمّ أقوم بمحوها تدريجيا؟ كانت الفكرة ذاتها شجاعة جدًا فكرة إلغاء الدين، وإلغاء المقدّس، إلغاء هذا الوحش الكبير الذي يلتهم الناس. فعندما سأصير مقدّسًا أكبر حجمًا وقيمة من بين باقي المقدّسات سيكون من السهل عليّ التهامها، إذن ستغدوا المقدّسات الأخرى مجرّد ضحايا لأنيابي، مثلما كان المؤمنون دائمًا ضحايا للأنياب المقدّسة. تأمّلتها عن قرب ثم قلت لها:

﴿لا شيء.سأعيد كل شيء لنصابه فقط. سأعيد كتابة كل شيء﴾

وحينها، وبعد مدّة من المشي، وصلنا إلى غرفتي الجديدة وانبهرت بكبر مساحتها وحجمها، لقد كانت غرفة كبيرة، بل كان بيتا كبيرًا به أعمدة مطليّة بالذهب وتماثيلٌ رخامية وأخرى برونزية وكما تتوسّطه نافورة مائية ونوافذ عليا من الزجاج الملوّن وحيطان مزخرفة وفسيفساء تحبس الأنفاس، كان وجه التمساح منتشراً في المكان كلّه، في التماثيل وفي السرير وفي إحدى جوانبه كان عرشٌ على بابٍ تدنو منه بعض السلالم إلى الأرض، كانت تحج الجماهير إليه لعبادتي كلّ أسبوع، حيث أجلس أنا على العرش وهي تسجد وتركع أمامي على مدى السلام، بمناجاة خاشعة وذليلة وغبيّة، وكان لي في البيت ذاك ما يكفيني وأكثر من الخادمات والخدم، ودّعتني حينها بيترام حيث نادت عليها رئيستها، عانقتها بقوّة ثمّ انصرفت، طلبت من باقي الرهبان الإنصراف، وجلست على السرير وأنا أتأمّل وجه أوجاشو وأتأمّل رأسه الكبير، هذا الرأس الذي استطاع أن يدمّر سطوة جاكوشا، هذا الرأس الكبير الذي اصطفاني من بين الراهبات حارسةً عليه، هذا الرأس الذي حطّم مخاوفي الدينية، تلك الحدود التي رسمها الدين في ضميري الإجتماعي حينما أخفى المعبد وجودي عندما ألقى قلادتي في البئر:

﴿أنت فعلاً إله يا أوجاشو ليس لأنك تخلق الناس أولأنّك تحرقهم، بل لأنّك الوحيد الذي سيحرّرهم، وبل لأنّك استطعت بطريقة أو بأخرى التغلّب على شرك الدين، على تلك الحفرة التي يصنعها الصنم المتخيل في كل رأس لكي يحشر فيه نفسه إلى الأبد، كفتيلة تزرع في التراب ما تفتأ أن تمرّر جذورها إلى الأرض ثم لترتفع سيقانها لتحجز مكانها فيه الأبد، أنت أوّل شخص تمنع التماسيح عن أكل لحمه، أنت أوّل ما حرّمه الإنسان على الدين، كم أنا فخورة بك عزيزي الصغير، لقد استطعت أن تنفذ من بين فجوات جنونهم الديني وأن تصنع لنفسك معبداً جديداً في معبدهم القديم، ربّما لم يحدث الأمر بتخطيط منك ولكنك مقدّس فعلا الآن، لقد خدعناهم باستعمال مقدّساتهم لم نستغرق وقتًا طويلا لنفعل ذلك، وها نحن ذا الآن إلاهين جديدين في هذه المنظومة التركيبيّة﴾

ثمّ قبّلته واستلقيت على السرير ورحت أفكّر في طريقة ما أستفيد فيها من وضعيتي كمقدّس جديد لألتهم المقدّسات الأخرى، لقد استهوتني الفكرة كثيراً، فبوضعيتي هذه يمكنني أن أؤثّر على قرارات المعبد كما يمكنني أن أؤثّر بشكل كبير على أفكار المؤمنين وعلى محرّماتهم، ولكن كان يجب عليّ أن أفكر في طرق احترازية من غضبين، غضب المعبد اتجاهي وغضب الشعب.

إذ يمكنني بتلك الطريقة أن أستفزّ غريزتهم الدينيّة، وأعصاب التمساح الداخلي بجوفهم، إذ أنّ المحرّمات تلك كانت مزروعة فيهم بشكل عميق، وإنّ قلعها بشكل مفاجئ سيجعلني بالتأكيد أقطع معها جزءاً هامًّا من ذواتهم ممّا قد يجعلني الحق ضرراً بليغاً بصحّتهم النفسيّة،إذ لا يمكنني أن أستبدل جوّهم الديني المتجمّد هذا بتغيير مناخي حاد قد يجعلهم يُصدَمون وأنا أبتر من أجسادهم المعنوية أفكاراً لطالما صدّقوها فيثورون بعدها ضدّي حفاظاً على الإستقرار الديني والفكري الذي يحسبونه النعيم لعدم تجريبهم لشيء آخر غيره، وللحفاظ على المنظومة وتوريثها إلى الآخرين وللأجيال القادمة من بعد ذلك، بتحريض من طبيعتهم التي يتمّ استخدامها الآن بشكل غير مدرك منهم لخدمة المعبد وقوانينه الإستعبادية القاتلة...

إذ لاأزال أتذكّر ثورة التماسيح، تلك الثورة التي أحرقت الأخضر واليابس باسم الدين على امتداد النهر وراح ضحيّتها آلاف الأبرياء من أبناء الشعب الغبي، حيث داست على الأجساد، وقضمت الأرواح، ولم تفرّق بين الصغير والكبير، بين الرجل والمرأة، لم يسلم منها طفلٌ ولا شيخ، الجميع كان ضحيةً لها بطريقة أو بأخرى، كان على الجميع أن يقتل الجميع، في حرب إبادة كلية، محو كلّي، بلع كلّي، لأجل التمساح دائما، لأجل الدين..

ويحدث أن يأكل الدين أبنائه،نعم يأكلهم، كما تأكلهم التماسيح بالظبط، يأكلهم فُراداً أو جماعة، فغايته الأولى أن يبقى ولو بدونهم. هكذا كانت ثورة التماسيح تلك، ثورة دينيّة تمساحية وانتشرت في أرض التسماح في أيّام كانت السلطة فيها قد تخلّت عن بعض القوانين الصارمة والمقدّسات بسبب انتشار الفقر. إذ كان عليها أن تقتص من حالة الغضب الجماعي عن طريق تسهيل بعض أمور الحياة حتّى تُقتص من كظمهم، ولتُبعد عنهم هواجس الثورة على السلطة الدينية، كان المعبد في ذلك الوقت متخوّف من تحوّل معاناة الشعب إلى ثورة ضدّه، إلى ثورة ضدّ الدين نفسه، كونه يستهلك من ثرواتهم وأموالهم ما لا يستهلكه أي شيء آخر، كان الدين بمثابة بلّوعة تمصّ من الناس إقتصادها، ولهذا حاول المعبد أن يبعد عن نفسه الشُبهات وأن يجعل الشعب يبحث عن أسباب تخلّفه في مواضيع أخرى غيره. ولكن ما حدث كان العكس، إذ وما إن قلّص من حجم العقوبات وتمّ إيقاف بعض الطقوس و التقليل من ضريبة المال وضريبة الروح (إلقاء الأطفال إلى التماسيح) جُنّ الجنون الديني لشعب الذل والمهانة. لقد خافوا من عقاب الآلهة، من نزول صاعقة ما عليهم، لم يهظموا إنقاص عذاب الدين أو آلامه لقد كانوا مدمنين عليه بشكل كبير. لقد كان من المستحيل عليهم تقبّل فكرة التخفيف من وطأة الدين أو سيطرته، لقد كان الأمر ثقيلا جداً عليهم، لا يمكن لأحد أن

ينقص أو يعدّل في الدين، فهذا حسبهم تحريف لكلام الرب، فلا تقليم مخالبه ولا خلع أنيابه سيمرّ مرور الكرام، سينطق التمساح في داخل كلّ مؤمن للدفاع عن منظومته الهمجية وضمان عدم تحرّر الأفراد منه، سيخرج من سرّهم ليجاهر بابتلاعه الجميع وسيغدو الانسان مجرّد دين متحرّك، مجرّد تمساح.

راحت جحافل الغربان في الشعب تتذمّر من انتشار ما سمّته بالحريّة والفجور، لم يتذمّر الشعب من حالته الإقتصادية والإجتماعيّة والثقافيّة المزرية ولكنّه تذمّر من حالة نقصان الوازع الديني، استثرى الغضب فيه شفقةً على التماسيح التي لم تعد تأكل من البشر ما يسدّ جوعها، وبالرغم من عدم نزول العقاب الإلاهي عليهم إلاّ أنّهم كانوا ينتظرونه بكل شغف، ينتظرون حدوثه وشيكًا في أي لحظة، ربّما الأمر عجيب جدًا ولكنّهم لم ينتظروه فقط بل فيهم من كان يتمناه، كان يريد حدوث الشر الأعظم، كان يريد هذا الإنتقام الإلاهي ليفرض الرب نفسه على الجميع إكراهًا، ليُفرض التمساح بجميع محرّماته وطقوسه ومقدّساته على الشعب بالقوّة برضاهم أو بدونه، طمعًا جماعيًا في لحظة واحدة، لم يكن لديهم الكثير من الوقت لفرض الدين على الأفراد واحدًا واحدًا، كان يجب أن يفرض دفعة واحدة ولو بالقوّة والإكراه.

لقد كانوا يعبدون الصنم الأكبر ويتذرّعون له لكي يتدّخل لوقف مهزلة الحريّة تلك كما كانوا يسّمونها، كانوا يصلّون له آناء الليل وأطراف النهار لينتقم من الشعب بسبب ارتكابه معصية المحبة والحياة والحرية، هذا الشعب الذي حاول بعض افراده على قلّتهم التعايش مع امتداد الحبل الديني قليلا، ولكنّ المعبد لم يحاول العدول عن قراراته، إذ إنّ جاكوشا كان يظن أن حالات التذمّر تلك حالات مرضيّة ستتوقف بعد وقت قصير، إذ إنّ سنوات الفقر لزالت تنخر الشعب وليزال الخطر محدقًا بالمنظومة الدينيّة مع تواصل المجاعة والجفاف لم يجد المعبد طريقًا آخر لتشتيت انتباه الشعب عن سبب مشاكله الحقيقية إلاّ بالنأي بالنفس وتعطيل بعض الأحكام الدينية، ولنكون منصفين فإنّ المعبد لم يفكّر حقا في طمس معالم الدين أو في تقزيم صورة الصنم الأكبر في المخيال العام أو في الإنقاص منها، بل كان يريد الحفاظ على نفسه والحيلولة دون وصول الشعب لدرجة من الوعي تمكّنه من فهم سبب تخلّفه وجهله، لذا لم يكن المعبد على استعداد لإعادة القسوة التعبديّة الدينية كما كانت عليه من قبل، فقد عطّل المعبد العديد من الأحكام، كضرورة قطع إصبع لكلا الزوجين قبل الزواج وإلقائه للتماسيح، وضرورة رمي الطفل الأوّل للتمساح دائماً لأخذ ترخيص بإنجاب أبناء آخرين، أو فرض قطع شحمة الأذن للنساء عند بداية الطمث، وغيرها من الأحكام، فقد تخلّي النظام عنها كلّها لأجل إبعاد الشُبهات عنه.

ولكن وقع ما لم يكن في حسبان السلطة، فقد تكوّنت جماعة دينية من الشعب تسمّي نفسها (جبهة إنقاذ التماسيح) وقد كان هدفها الأسمى إنقاذ الدين، وفرض أحكامه بقسوة، لإنقاذ التماسيح من الجوع، ولكنّ السلطة لم تتحرّك لإيقاف هذه النواة السياسية كما كانت تفعل دائما مع المعارضين، فبالنسبة لها كانت الجماعة تدافع بشكل أو بآخر عن أحقيّة السلطة السياسية في البقاء بمجرّد الحكم بما أنزل الرب في كتابه المقدّس من انصياع للتمساح، كما أنّ المعبد لم يكن يرى في جبهة إنقاذ التمساح تهديدًا حقيقيًا له إذ لم تكن تدعو هذه الجماعة سوى للمزيد من التسلّط والتجبّر والإنغلاق الفكري، كما أنّ المعبد بكونه القوّة الروحيّة الأولى في البلاد لم يكن ليخشى أن ينقلب الشعب عليه لصالح البوتقة الدينية ولذلك تركها تعمل بحريّة وهدوء وشجعها بالمال سرًا فقد كان يتوقّع أن تنصاع الجماعة له بعد أن أغواها بجميع المغريات واستعملها كأداة أخرى لاحتواء غضب الشعب والهائه، وأداة في وجه المعارضة الحقيقيّة من المزدرين والكفّار ورافضي عضّة التمساح والمطالبين بإعادة الحكم لشعب النهر والعقلانيين وغيرهم الذين كانوا ينشطون سرًا ولم يمثّلوا سوى أقليّة صغيرة من الشعب، فقد كانت السلطة تتخوّف من هؤلاء لأنّ دعوتهم كانت للتحرّر وللتخلّص من سيطرة المعبد، ولذا تحالف نظام جاكوشا الأبدي المستبد مع جبهة إنقاذ التمساح لصنع حاجز

ضدّ أي حركيّة فكريّة أو ثورة عقليّة في بلاد النهر، فاستُخدمت جبهة انقاذ التماسيح كآلة حادة على رقاب جميع الآلاف الشرفاء الذين كانوا يحاولون دائما أن يلفتوا نظر الشعب لمشاكله الحقيقية لمعرفة قاتليه ولصوصه الحقيقيين الذين سرقوا منه كلّ شيء، وسلبوا منه إرادته وحريّته العقليّة والجسديّة.

انتبهت جبهة إنقاذ التماسيح لقدرتها على استحواذ عقول العامة خاصة وأنّ الشعب كان قد حُضِّرَ لتقبّل مثل هذا التطرّف الديني فيما زُرِعَ فيه من خرافات مقدّسة، فراحت تمرّر أفكارها المتطرّفة في أوساط الشعب فاستمالت الشباب منهم بخطابها الحماسي والعاطفي وجعلت من التمساح يبدو حلاً لكلّ مشاكل النهر وشعبه، وراحت تهذي بما تفسّره هي عن الكتاب المقدّس للشعب وكان الشعب يصدّق كالأبله كعادته دائما، فانتشرت أفكار الجبهة كالنار في الهشيم ووجد المعبد نفسه في مواجهة غول قد استحوذ على الوعي الديني للشعب، فتحوّلت العصا الدينية من يد السلطة الأكبر إلى يد جبهة إنقاذ التماسيح...

لقد كانت أفكار جبهة إنقاذ التماسيح تقوم أساسًا على الحُكم بالكتاب المقدّس وعدم إلغاء أي عقوبة من أحكامه أو طقس تعبّدي ما مهما كانت الظروف ومهما كان يبدو ذلك الحُكم قاسيًا أو مجنونًا، ففعل عكس ذلك هو الكُفرُ الأعظم حسبهم، كما كانت تدعو الجبهة التي الرفع من عدد ضحايا النهر وعدم تخفيض

عدد الأضحيات البشريّة للتمساح فلطالما كانت قيادات الجماعة تبكي في خطاباتها وهي تتحدّث عن الوضعية المزرية للتماسيح بسبب تخفيض عدد الأضحيات البشريّة لها، فقد كان حال تلك الآلهة الجائعة مثيرًا للشفقة وكان عليهم التحرّك لإنقاذها من الموت...

وكاد هذا الخطاب المغلّف بالسموم الدينيّة أن يُظهرَ للشعب الربّ المتخيّل وأن يجسّده لهم لغويًا، أن يجعله يحبو أمامهم كطفل صغير ليحمله كل مؤمن بين أحضانه كاب جديد له، ليحميه ممّا قد يمسّه من طعن أو كُفر، أو حتّى تشكيك، فقد جعل خطابهم العاطفي الشعب على مقربة من الآهه أكثر، لقد أصبحت الجماهير المنوّمة والمغيّبة متأكّدة كل التأكّد من وجود الصنم الأكبر، ليس لأي حجّة عقليّة ما، بل لأجل خطاب جبهة إنقاذ التماسيح...

لم تهتم هذه الجبهة للبطون الجائعة، ولا للأطفال المشرّدين، وللفقر الذي قطّع أمعاء الشعب، بل كل ما كانت تهمّها هي تلك التماسيح وبطونها، جوعها واشتياقها للحم الإنسان، واستحوذت الجبهة رقاب الناس، رقاب هؤلاء الحمقى المؤمنين وجعلتهم أكثر من أي وقت مضى في قابلية للتضحية فداءً للتمساح...

وقف المعبد على أهية الإستعداد لأي محاولةٍ من جبهة إنقاذ التماسيح للإستلاء على الحُكم في صراعٍ قذر على المصالح بين قيادات هذه الجبهة وقيادات السلطة من الرهبان وعلى رأسهم جاكوشا، وبالرغم من اشتراكهما في نفس الهدف في إخضاع الشعب إلاّ أنّ هدفهما معًا كان هدفًا ماديًا بحتًا في الاستحواذ على السلطة وفوائدها مهما اختلفت فيهما أدواتهما في القيام بذلك، وهكذا تطوّرت الجبهة وأصبحت كيانًا موازيًا للسلطة العامة، فكلا الكيانين يستمدّ طاقته عن طريق شحنها من جهل وغباء الشعب ومخياله الديني العاطفي.

وفي لحظة ما احسّت جبهة الإنقاذ نفسها أكثر قوّة وتأثيرا على الشعب من المعبد الأكبر، فأخذها حماسها إلى الطمع في السيطرة التامة عليه ونشر أفكارها فيه والإنقلاب بالقوّة على الرحم الذي أنجبها لتصبح المقدّس الجديد، فنظّم أتباعها المظاهرات ونشّطت الوقفات ضدّ المعبد الأكبر للمطالبة بانقاذ التماسيح وإعطاء ما يكفي من اللحم البشري لها في البداية، ثمّ تحوّلت المطالب رويدًا رويدًا إلى ترك الحكم لجبهة انقاذ التماسيح كونها الأدرى بشؤون الدين، وهكذا فَهِم جاكوشا وسلطته أنّ الشعب لن يفهم أبدًا سبب المشكلة، فعوض أن يفكّر في الدين على أنّه جزء من المتاعب التي يعيشها، فكّر عكس ذلك تمامًا.

لقد رأى في الدين الحل لمشاكله التي لطالما كانت مشاكلا ذات أسباب دينيّة...

كان على السلطة التصرّف حيال الأمر، فادّعت أنّها ستنظّم استفتاء عامًا حول الأمر، فقبلت الجبهة واستعملت المعابد في الإشهار بنفسها ولإقناع الشعب بالتصويت لها، كما استخدمت نفوذها في المعابد وبعض الرهبان الذين كانوا يساندونها من أجل التزوير في بعض قرى النهر ممّا جعلها تفوز بالاستفتاء...

وجد المعبد الكبير نفسه في مواجهة مشكلة كبيرة، إذ لم يكن أبدًا على استعداد لتسليم الحكم لجبهة من الشعب ولو كانت تشبهه هي الأخرى، فالمعبد لديه الكثير من الأسرار ولن يستطيع أن يأتمنها لأي كان، فاستعمل القوّة لحلّ جبهة إنقاذ التماسيح رافضًا لتسليم السلطة لها، فاعتقل منتسبيها وبعض قياداتها، ودمّر المعابد التي تدعمها، كما نصّب المشانق في العديد من القرى ومدن النهر لتهديد أي مؤمن تخوّله نفسه أن يرفض قرار المعبد بالإنقلاب على نتائج الإستفتاء، فدخل العديد في نوبة من الصمت القهري، بينما كان حُماة التمساح يخطّطون لاستخدام الفوضى لإعادة العجلة إلى الدوران...

انقلبت الجبهة على كلّ شيء تقريبًا، حتّى على أتباعها، انقلبت على جميع المؤمنين، إذ جنّ جنونها وأصبحت لا تميّز بين

أحد وآخر، بين العدو والصديق، بين من يصمت ومن يحاربها، كانت تفكّر في خلق فوضى عارمة، ومجازر في كلّ مكان لكي تفقد السلطة صوابها وتسلّمها زمام الأمور فأعلنت الحرب....

حمل أتباعها على عاتقهم قرع طبولها، طبول هذه الزانية التي اختارت أن تمارس الدعارة الدينية بالتوازي مع الصلاة. في جبهة هدفها الأسمى أن يلتهم التمساح أكبر عدد ممكن من البشر في مواجهة سلطة سبق وضحّت بالعديد منهم لأجل نفس التمساح، لقد كانت جبهة إنقاذ التماسيح أقرب للسلطة في كراهيتها للإنسان وفكره، وأبعد عنها في التزمّت والتطرف الديني. كانت السلطة تجيد اللعب على الحبلين، فهي تعرف حقيقة دين التمساح وبالتالي كانت تتعامل معه كأداة قهر وليس كغاية سلطة فهي كانت تستعمله لإخضاع الشعب ولحصر فكره ووعيه بينما كانت الجبهة ترى في التماسيح الغاية المطلقة من السلطة والهدف الأسمى لها، وهنا كانت الصعوبة في إيجاد توافق بين التيّارين...

لقد عملت جبهة إنقاذ التماسيح على خلق أسلوب حياة خاص بها يميّزها عن الآخرين ولكي تزيد من حماس الشباب في الإنضمام لها، خاصةً منهم من يبحث عن نسج شخصية خاصة به في النهر، شخصية تجعل من المنتسبين للجبهة يبدون أكثر وعيًا وأكثر احترامًا من الآخرين في شعب لا يرى في الأخلاق ولا

في الإحترام سوى ما قد يُبجّلُ به التمساح، وهم يبحثون عن حقّهم في الوصول لدرجة راهب كون هذه الصفة لا تمنح سوى لمن ولدوا في اليوم المحرّم، حيث كانت تفسّر الجبهة آية الرهبان في الكتاب المقدّس على طريقتها حيث كانت تدعوا الى فتح الباب الى الجميع لاشتغال هذا المنصب دون تقديس ديني بينما من ولدوا في اليوم المحرّم فهم الرهبان الكبار الذين يجب تقديسهم، وبمثل هذه المقترحات كانت تبدو الجبهة أكثر انفتاحًا ممّا هي عليه بينما في الحقيقة كانت تخفي تحت ردائها تماسيحًا كبيرة بامكانها أن تأكل الجميع...

كنّ نميّز أعضاء الجبهة كذلك من لباسهم وغرابتهم الجسدية، فهم مشوّهون بشكل كبير، أولائك الرجال والنساء الذين كنّا نفرّق بينهم وبيننا من خلال أشكالهم الدينية المخيفة، لقد كانوا ينفّذون أغلب ما في الكتاب المقدّس من احكام، حتّى تلك التي تفاضى عنها المعبد الأكبر، لقد كانوا يقلّمون أسنانهم لتغدو أنيابا في سنٍ مبكّرٍ تشبّهًا بالتمساح، وكانوا يطلقون لحاهم ثمّ يربطونها بخاتم التمساح أيضا، وكانوا يشوّهون رقابهم بوشم تمساح كبير كذلك، كأنّ هوسهم بوحش النهر ذاك يفوق حتّى غريزتهم في البقاء، كل شيء فيهم أو حولهم او معهم كان تمساحًا، هذه الطريقة الغريبة في لبس جلد ذلك الكائن المقدّس جعلهم

يبدون هم كذلك تماسيحًا بشكل أو بآخر، وكرّسوا مع مرور الوقت صورتهم التمساحية تلك في الوعي العام حتّى أصبحوا الممثلين الشرعيّين له والناطقين بلسانه.

وكانت أشكالهم الغريبة تبعث الخوف والتقزّز في آن واحد، إذ كانوا يلبسون عباءات قصيرة تبدي أفخاذهم والتي كانوا يكثرون من وضع المسك عليها ليتكثّف الشعر فيها، نساءً ورجالاً، ويلبسون الأخضر والبني تشبها دائما بنفس التمساح، وكانوا يصرخون دائما أغنيتهم الشهيرة التي تسبق حفلات الذبح ﴿لا اله الاّ الصنم ربّ التمساح عليها نتعب وعليها نرتاح﴾ لقد كان الموت يشبههم كثيرا خاصة عندما يضعون الشيوخ الطاعنين في السنين أمام مرأى أهلهم وذويهم أمام تماسيح النهر وهم ساجدين لتأكلهم التماسيح الواحد تلو الآخر تطبيقا لأحكام الكتاب المقدّس، هذا الحُكم الذي كان المعبد الأكبر قد ألغاه منذ سنوات عدة فأعادته الجبهة في تحدٍ واضح للقانون، حيث عاد المسنّون ليُقذفوا إلى التمساح لقتلهم، في مراسيم إعدام مقدّسة أيضًا، لقد تمرّدت الجبهة على المعبد وسلطته وأعادت إحياء هذا الحكم وقد انصاع لها الشعب. لقد وجد هذا الأخير في زيادة عذاب الدين فضيلةً واجبة التنفيذ. فهو سيكون أكثر تقرّبًا للرب بالتقرّب لأمله، سيكون المؤمن دائما أقرب للنهر العلي لهذه الجنّة الموعودة بالزيادة في حجم العذاب

والألم، وهكذا فقدت السلطة سيطرتها على الشعب باستعمال جبهة إنقاذ التماسيح لنفس أدواتها في السيطرة عليه، لقد جاءت الجبهة في الوقت الحسّاس لتثبت للشعب الذليل أنّها بإمكانها أن تمتطيه بشكل أحسن، أن تشدّ وثاقه بقوّة أكبر، وأن تروّضه بشكل أسرع وأكثر قسوة، لقد بدت الجبهة أكثر تمرّسًا من المعبد الأكبر ذاته ركوب الشعب، لقد أخذ عشق التذلّل هذه الجماهير الغفيرة المستعبدة إلى جلاّد يعرف جيدًا كيف يجعل من ألم السوط أشدّ على ظهورهم، كيف يجعل من الإضطهاد والقمع أكثر ألمًا بكل بساطة: كانت الجبهة حازمة أكثر في تنفيذ آلام الدين مهما كانت وحشيّتها وجنونها فاكتسبت تعاطف الشعب المذلول.

لقد حضرت بنفسي أحد تلك الطقوس البشعة لإنهاء حياة المسنين ورأيت بأم عيني بشاعة ميتتهم، كانوا يُجلبون ثم يعرّون تمامًا ويوضعون أمام التماسيح في وضعيات سجود وهم يبكون ويودّعون أحفادهم الأطفال الذين يتشوّقون لمشاهدة التماسيح تلتهم أجدادهم متعة الالتهام المقدّسة، أو بتعبير آخر الايمان الأعمى، الإيمان باختصار، دين كوجه آخر، يحملهم ذويهم على أيديهم لمشاهدة الذبيحة، أبائهم الذين لم يفوّتوا فرصة الاحتفال بالتخلّص من أبائهم، وقد غدوا هم النسخة الحية وطبق الأصل عنهم، لا جدوى من بقاء الأجداد ان كانوا يعيشون مجدّدًا بنفس

أفكارهـم وتقاليدهـم في أجسـاد أصغـر سـنًا، انّ في هـذا الحُكـم الدينـي البهيـج، القتـال والدمـوي المهيـب، لـم يكـن مشـروع تضحيـة فقـط، بل كان مشـروع تخليـد للأجـداد مـن خـلال زرع صورتهـم وهـم يضحّـون بلحومهـم للتمسـاح في وعـي أحفادهـم، لكـي يكونـوا قـدوةً بعـد ذلـك، هـؤلاء الأحفـاد الذيـن كانـوا في قمّـة البهجـة وهـم يودّعـون آبائهـم المخضبـين بدمائهـم والمُمزّقـين، لـم أدري كيـف لـم يتخيلـوا أنفسـهم في مكانهـم يومًـا مـا؟ لقـد كان عقلهـم محصـوراً في بقعـة زمـن واحـدة، بقعـةً تجعلهـم متأخريـن عـن مواكبـة حتـى مشـاعرهم آنيـة، مجـرّد ذوات مـن الماضـي لا تعـرف حتّـى طريقـة استـدراك وعيهـا، في مشـاهد يوميـة غلبـت عليهـا الدمويـة...

لقـد كانـت ثـورة التماسيـح عنوانًـا حقيقيًـا للغبـاء الشـعبي، لقـد تحـوّل عقـل العامـة إلـى عقـل جـرذٍ صغيـر لا ينفـك عـن البحـث عـن قطعـة أكلٍ حقيـرة لتغريـه المصيـدة في موتـه دون أن يـدري، لقـد كان الشـعب براقـص جهلـه بـين قطبـين لا يرايـان فيـه سـوى قاعـدة شـعبية وقطيعـا لالتهـام اكاذيبهمـا كمـا تلتهمهـم التماسيـح بالظبـط...

لقـد أقنعـت جبهـة انقـاذ التماسـيح الشـعب بضـرورة تطبيـق أحـكام الكتـاب المقـدّس الشـريرة والإستمسـلام لآلامهـا وعذابهـا، طوعًـا أو اكراهًـا، كونهـا كلام الـرب المقـدّس، واسـتطاعت وعلـى الرغـم مـن قمـع المعبـد الأكبـر أن تنفّـذ أفكارهـا وأن تنشـرها في كل

أرجاء النهر، قامت على أثرها سلطة جاكوشا باعتقال العديد من قيادات الجبهة فنظّمت هذه الأخيرة نفسها وانتهجت القتال المسلّح لاسقاط النظام...

في البداية لم تكن الجبهة تقتل من الناس سوى حرس السلطة وأتباعها من الرهبان، كانت ترى في ذلك طريقة مُثلى للحفاظ على ولاء الشعب لها، ولكنّ الشعب قد تعاطف مع معبده، تعاطف مع السلطة التي تنخره أكثر منذ البداية، تضامن مع البطن الذي أنجب جبهة انقاذ التماسيح، على الرغم من أن الكثيرين فيه تضامنوا مع أفكار الجبهة ولكن يبقى للمعبد الكبير هيبته في النفوس، فكان من غضب الجبهة أن تنقلب هي الأخرى على الشعب، لتقتل النساء والأطفال والشيوخ والرجال في مجازر قلبت النهر الى سيل أحمر جارف، وراح نظام جاكوشا يزيد من وحشيّة الحرب باقامة مجازر ينسبها لجبهة انقاذ التماسيح، وراحت جبهة انقاذ التماسيح تقيم مجازراً تتّهم فيها السلطة بدورها، في حرب شعواء لم يذهب ضحيتها سوى الشعب، وفي حين كان الإنسان يُقتَل ويُذبّح ويُعذّب كانت كلاً من الجبهة والمعبد يدّعيان الحرب لأجل التمساح، لأجل إنقاذه أو الحفاظ عليه/ في احتقار كبير للذات الانسانية، والغريب أنّ كل هذا كان يحدث برضا من الشعب نفسه، فعلى الرغم من تذمّره الاّ أنّه كان منصاعا كليًا للحرب في إحدى الفريقين معًا يجعله منخرطًا بالضرورة فيها...

استطاعت السلطة الكهونوتية في تلك الأثناء إقناع المعارضة الحقيقيّة على الانضمام لها في حربها على جبهة انقاذ التماسيح، بعد ان أقنعتهم بأن تحمي النهر من التطرّف الديني كما أسمته، وأمّا وهذه المعارضة الساذجة فلم يكن من الصعب عليها تصديق نظام جاكوشا وحيلته هذه، وعلى الرغم من كونها لطالما كانت ضحيّة هذا النظام الدينيّ الذي يتحكّم في مصير النهر وشعبه، ويقدّس التماسيح بنفس الطريقة التي تقدّسها جبهة الانقاذ، ولم يعبّر يوماً ما عن استعداده لفتح صفحة جديدة مع الحريّة الفكريّة أو حريّة التعبير، وعلى الرغم من أنّه كان يتغنّى بدفاعه عن هذه الحريّات الاّ أنّه كان في الحقيقة يبحث عن ذريعة ما لاستقطاب نخب الشعب في حربه على جبهة إنقاذ التماسيح والبحث عن مشروعية ما من خلالها تجعل حربه أقلّ قذارة ممّا هي عليه في الواقع، بينما كانت جبهة انقاذ التماسيح تنتقم من كلّ شيء لديه صلة بنظام جاكوشا حتّى من رهبانه و معابده، لقد ذبّحت الأطفال والقت بعائلات باكملها للتماسيح وانتشرت الفوضى وزاد الهرج، وغدى القتل روتينا يوميًا وفضيلةً يتغنّى بها المتشدّدون، لقد كانوا يقطعون رأس أحدهم ثم يزغردون زغردة الأوباش ثمّ يضعون الرأس على قصبة طويلة ثمّ يصعد أحدهم أعلى شجرة ما فيحرّك عود القصب بفرحة عارمة تمسكه ومن ثم يلفّه حوله والرأس يتساقط دمًا على وجهه وثيابه ثمّ يرميه بقوّة الى النهر وسط قهقهات مقاتلي الجبهة وسعادتهم..

الغريب في جبهة إنقاذ التماسيح أنّها كانت تدعو الناس للتضحية بحياتهم لأجل التمساح، بينما لم يكن لقادتها أن يضحّو يومًا ما لأجله، لقد اكتفوا هم بالمظاهر ودعوة الناس لذلك، بينما كانوا يحافظون على حياتهم وحياة أبنائهم ويولونها قدرًا هامًا من الإحترام...

في الحقيقة كانت الجبهة وقادتها تماسيحا أخرى، بعدما اكتسبت الحجم الرهيب من القداسة الشعبية وغدى قادتها في مخيّلة الأغبياء أصنامًا أخرى لا يجوز نقدها أو حتّى الإقتراب منها...

عندما لاحظ بعض الشعب همجية جبهة إنقاذ التماسيح سلّم أمره بالكامل للهمجيّة الأقل همجيّة، للسلطة العامة، لنظام جاكوشا، لتلك الهمجيّة التي تعوّدوا عليها منذ البداية ولم تعد بالنسبة لهم أي شيء يُذكر، لم يعد شعورهم يقوى على إدراك ألم المعبد أو همجيته، أسلوب حياة توارثه الشعب جيلا عن جيل فافتقد قابليته للنقد أو للشعور، أقنعت السلطة بعض النخب بضرورة الالتفاف عليها لمواجهة جبهة إنقاذ التماسيح، وأغوت الآخرين بشتى أنواع الإغواء والإغراء، فذهبت المعارضة الحقيقية والنخب المثقّفة الشريف منهم والدنيء ضحايا لمشروع جاكوشا الفاسد في وجه جبهة إنقاذ التماسيح الأكثر فسادًا، تلك النخب

المعارضة التي استطاعت مع الوقت أن تتحرر من المؤطّرات التي وُضِعَ فيها الإنسان في هذا العالم الديني الفاسد فاثبتت ذكائها في إدراك الأشياء بينما فقدت جميع قدراتها العقلية في خطاب المعبد فسلّموا له كلماتهم وأقلامهم وأصواتهم، سلّموا له تاريخهم وأفكارهم، فسلّمهم المعبد الأكبر الواحد تلو الآخر إلى التمساح، لقد ساهم في قتل المثقفين منهم الذين ساندوه ومن عارضوا جبهة الانقاذ أضحيةً بعد أخرى للموت، وقد تحالف بطرق سريّة لقاء مجموعة من المصالح مع الجبهة لتقتالهم، فهو من جهة كان يدّعي حمايتهم بينما في الحقيقة كان يريد هو الآخر موتهم، كان يريد المعبد بدوره القائهم حتّى لا يشكّلون له خطراً بعد حسم هذه الحرب المضمونة ضد الجبهة، وهم قد صدّقوه، صدّقوا أنّ ذلك البعبع الذي لطالما كان يلعهم سيتركهم اليوم يعيشون دون أن يضحّي بهم لمعبوده المتوحّش، لقد صدّقوا أن الذئب بإمكانه يومًا ما أن يتصالح مع الخرفان، مع الائك الذين يكتشفون الحقيقة ويخبئونها في جحورهم.

لا شيء كان يخيف السلطة أكثر من الحقيقة، وأمّا جبهة إنقاذ التماسيح ليست سوى غضب مؤقت سينجلي يومًا ما وستعود التماسيح بها أو بدونها سيّدةً على هذا الشعب المخدوع...

كيف لهم أن يصدّقوا من كان بالأمس القريب يقطّع لحمهم ويقدّمه قربانا للتماسيح المقدّسة؟ كيف لهم أن يضعوا أيديهم في يد من استحدث هذه الديانة من السراب ليسيطر على الشعب ومقدّراته؟

لا فرق بين نظام جاكوشا وجبهة إنقاذ التماسيح فكلاهما يستمدّ مشروعيته في البقاء بالتمساح، بمقدّس الشعب ودينه وعلى اللعب على وتر العاطفة الدينية الجيّاشة...

بعد حرب طويلة ضدّ الذراع المسلّح لجبهة إنقاذ التماسيح، تصالح المعبد الأكبر معها، وقدّم العديد من الإمتيازات لقادتها وذبّاحيها على مرأى الشعب والمعارضة شراءً للسلم، ولكن أيضًا لغاية أخرى أشدّ مكرًا، لقد كان جاكوشا يعلم جيّدًا أنّه لو حارب الجبهة حرب استنزاف إلى آخر فرد منهم سيمسح التطرّف للدين نهائيًا لدى الشعب، وهذا يعني أنّ تلك الحيلة الماكرة في التحكّم لن تنطلي مجدّدًا عليه، فتلك العصبيّة الدينية هي كذلك سبب بقاء نظامه أيضًا، ولذلك تصالح النظام عند آخر لحظة مع الجبهة ووفّر للمتطرّفين كل الوسائل ليكونوا على الأقل ماديًا في وضع مريح ذي أفضليّة على باقي الشعب لكي يكونوا دائمًا قدوةً لهم ولكي لا يخسروا مكانتهم المالية فيه، كما سلّم جاكوشا المدارس على طبق من ذهب لهم، وسهّل لهم التحكّم في وسائل الإعلام

وفي المحاكم والقضاء، ومع الوقت لبس المعبد ثوب جبهة إنقاذ التماسيح دون التعبير عن ذلك لكي يستفيد من إرثها الشعبي، وفي نفس الوقت منع النظام تدريس حقبة الحرب، بل صوّرها بطرق فنيّة في مسارح القرى لكي يقدّم لنفسه دور البطولة، بينما أُحتُقر الأبطال الحقيقيون ممّن قاوموا التطرّف التمساحي ذاك، وغدوا مجرّد أرقام لا تذكر، بينما حُصِّنَت جبهة إنقاذ التماسيح والمنتسبين لها في عمليّة غسيل عقل كبيرة راح ضحيّتها شعب بأكمله اكتفى بالتفرّج على حيثيّات مشاهد مرضيّة، في حرب وديّة بين نقيضين يشبهان بعضهما البعض في كل شيء، لقد غدى المجرمون أبطالاً وشخصيّات نهرية، شخصيات تمساحيّة يقدّم لها شرف الاستشارة للإبقاء على صورة رجل الدين أو المدافع عن الدين دائما موقّرة ومحترمة لكي لا يتمرّد عليها الناس أبداً، وهكذا بقيت التماسيح تلتهم أفراد الشعب يومًا بعد آخر، وعادت السلطة في حربها ضدّ المعارضة الحقيقيّة، وقد أبقت على التطرّف وجعلته منظومة تعليميّة لكي تبقي لنفسها دائما غطاء البطولة في مواجهة التطرّف.

ولإكساب نفسها مشروعية حكم أبديّة لمحاربة جبهة إنقاذ التماسيح الأبديّة...

لقد كان نظام جاكوشا ولآدًا للتطرّف، وسيبقى كذلك دائما ليجد ذريعة لمحاربة التطرّف ذاته، محاربة ما يسمى لانتاجه هو نفسه، إنتاج التطرّف ومن ثمّ ادّعاء محاربته، أو بالأحرى محاربة قشوره وتنفيخ لبّه، في معادلة وَقِحَة للسيطرة على الشعب، الأمر لا يتوقّف عند هذا الحد وفقط بل يتعدّاه لغايات أخرى أشدّ لؤمًا، فلكي يبقى هو، جاكوشا القائد، في صورة المتديّن المعتدل كان لبدّ عليه من خلق تديّن متشدّد ولكي لا يستطيع أفراد الشعب إدراك التشدّد فيما يسميه الإعتدال، فلا إعتدال إن لم يكن هناك تشدّد، بدون هذا النقيض لن يكون للنقيض الآخر أي سبب في الوجود، لا أحد سيرى في التدين المعبدي السلطوي تديّنًا معتدلاً بدون إيجاد تديّن أكثر تشدّدًا، وهكذا يصنع النقيض لإيجاد سرابه ولكي يصوّر الإضطهاد ذي المرجعية الدينية ذات التأهيل الرسمي من سلطة على أنّه شرّ مقبول وأحيانا خيرٌ مؤلم عكس الاضطهاد الديني الذي تمارسه المرجعية الدينيّة المتطرّفة والذي يسمّى عادةً بالتطرّف والذي تصوّره على أنّه شرٌّ مرفوض وخيرٌ لبدّ من محاربته، وهكذا تعمى بصيرة الشعب عن إدراك ماهية الإثنين، فيستغني عن الإثنين لأجل الإثنين، ثم يفقد إدراكه للتطرّف ذاته وللتديّن ذاته، فيصبح في حالة مرضيّة من التديّن تجعله مجرّد رقم في دائرة جوفاء قد يستخدمها فيما بعد في حروبه الإستعراضية لأجل تمساح الدين، فإمّا سيكون ذلك

الرقم متدينًا في لوائح المعبد أو متدينًا في لوائح الجبهة، وفي كلتا الحالتين سيكون مضطهدًا وهو يطالب بمزيد من الإضطهاد على نفسه دون إدراك منه لوجود الإضطهاد وهو يلقي بحياته أضحيا رخيصة لأجل تمساح النهر الحقيقي، السلطة.

هناك شيئين مهمّين كان يجب عليّ معرفتهما من خلال هذه الحرب المسيّسة التي قادها المعبد ضدّ جبهة إنقاذ التماسيح التي خلقها بنفسه وأبقى عليها للتخويف وللإغراء، وأن أستخلص العبرة منهما ثمّ أستعمل استنتاجاتي في حربي لإلغاء المنظومة التركيبيّة، أنّ المعبد لن يسمح أبدًا بخلق سلطة موازية له في البلاد وخاصةً وإن استثمرت في حقل الدين الذي يعتبره مرتعًا خاصًا به واحتكارًا لمعبده، وثانيًا انّه لن يلغي أي حركةً دينية بشكل اجتثاثي، بل سيترك مساحة من التبجيل لها حتّى لا يفقد العصبية الدينية مركزيتها في المنظومة الإجتماعية ولكي لا يتحرّر الفرد بعد ذلك من سطوة الجماعة، من سطوة الوحش المروّض، وهو يُفقده أقوى أسلحته في السيطرة على الأفراد المتمثّلة في الدين، إنّها لعبة قذرة فهمتها انا أيضًا وسأحاول من خلال عبَرها إيجاد ممرٍ لتنفيذ خطّتي في إلغاء التمساح أو على الأقل في التقليل من سطوته و لبرد أنيابه، وكنت أعلم أنّ الأمر خطيرٌ جدًا للقيام به، خطير لدرجة أنّه سيدخلنا في حربٍ أقذر من

ثورة التماسيح، فالأمر سيهدّد بقاء نظام بأكمله ولن يتوانى عن استخدام أي شيء لايقافه فالأمر يهدد بقاء النظام الإجتماعي المشجّع للشمولية الدينية والسلطوية...

المنظومة الإجتماعية الملصّقة بغراء الدين كانت السبب المباشر في بقاء نظام جاكوشا، وإنّ إفراط هذا الأخير في التعبئة الدينيّة عن طريق ضخ المقدّسات في الشعب كان الهدف منه الإبقاء على نفس الغراء اللاصق، ومن البديهي القول بأن أكبر مخاوف هذا النظام ان تتفكّك هذه المنظومة أو أن يتقلّص حجم الغراء فيها، كان عليه دائماً أن يضخ من الدين في المجتمع ما يكفي بقائه الدائم على سدّة الحكم، حكم باسم التمساح دائمًا، باسم المقدّسات مهما كانت دينيّة أو تاريخيّة، وهو بذلك كان يتعمّد تجميل صورة المتطوفين وأعضاء جبهة إنقاذ التماسيح لكي يصوّرهم دائماً في مكانة بطولية عاطفية تجعلهم يدعمون بقاء نظامه كلّما ظنّوا أنفسهم يساهمون في الإنقلاب عليه، لقد كانت المعارضة المتديّنة معارضةً فارغةً وجوفاء، إذ لا يمكن أبدًا أن تشكّل عائقًا حقيقيًا لنظام الحكم فهي كل ما تطالب به ليس سوى مزيدًا من السيطرة والتجبّر على الفرد وهذا في الحقيقة ما يرتكز عليه نظام الحكم نفسه وهذا مايفسّر الليونة التي يتعامل بها جاكوشا معهم، عكس ما تظهره هذه الأخيرة من تذمّر مصطنع من حالة إضطهاد

مزيّفة، فحتّى الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه أحيانًا فلم يكن سوى خطّةً من نظام جاكوشا نفسه لجعل رجال الدين المعارضين دائما ما يبدون في صورة البطل المغوار ليحوزوا تعاطف الشعب معهم وبالتالي يحوز الدين على تعاطفهم أيضا ممّا يجعل نظام جاكوشا يتمتّع بأريحية كبيرة، فأسباب بقائه تكمن في بقاء قداسة التمساح وهذا ما تحدثه فعلا هذه المعارضة المتديّنة...

وفي كل هذه التمثيليّة الدمويّة التي إرتديت فيها قناع المقدّس، ذلك القناع الذي يمنع الآخرين من رؤية الوجه الكاذب لي، الوجه المدنّس، المزدري والكافر، أتقنت لعبة جيدًا، فهمت ما يريده هذا الشعب، إنّه يريد مشجبًا لفشله وتخلّفه، يريد شيئا ما يعلّق عليه بؤسه ومأساته، كان يريد أن يقنع نفسه بأي طريقة كانت بأنّه على الحق، وإن كان يبدوا الأمر واضحًا جدًا بأنّه كان مخطئًا تمامًا، كان الشعب يريد هذا بأي طريقة كانت حتّى بإيهام نفسه بسراب الدين، بتقديس كل شيء ومن ثمّ الخوف من كل شيء، ومن ثمّ الدوس على الذات وإلغاء كل لواحقها الفكريّة والجسديّة، ثمّ تسليم وعي الإنسان لتمساحه الداخلي، ليغدوا كائنًا مسلوب الوعي، مسلوب الإرادة، مسلوب الذات والإدراك، مسلوب العاطفة، كل ما فيه يغدو عضواً استثنائيا وهدفه الرئيسي في الحياة ليس سوى إثبات الدين كل يوم أكثر ليكبر التمساح بداخله تدريجيا

بيضه في جوف من حوله فتثمر بذرته في الجميع فيغدو
ع تمساحًا أيضًا.

ف سأحاورك يا صاحب الرأس الكبير؟كيف سأخبرك عن
أغبياء هذا؟ كيف سأقصّ عليك كذبتي وكيف قدّست؟
صبحتَ مقدّسًا يعبدونك؟ كيف كنت طفلاً يقارب موته،
أكله التماسيح، وغدوت بفضل كذبة روح الرب في الأرض
مًا تلتهم الأطفال الآخرين بدورك، ها أنت تترعرع الآن
تعي وتدرك وجودك المقدّس من البداية وسيكون صعبًا
جعلك تفهم أنّك إنسان عادي مثل الجميع، لا أريدك أن
بهذا المرض الخبيث، هذا المرض الذي يجعلك تقدّس موت
ن وعبوديتهم لك، هذا المرض الذي سيأكل إنسانيتك رويداً
ليبرد أسنانك فتغدوا تمساحًا مثل المقدّسات الأخرى، قد
، الأمر في البداية ولكنّي واثقة بأنّك ستثور عليه في النهاية
سير، ستثور على قداستك بعد أن تدرك بطيبتك أنّها شرٌّ
لذا سامحني إن كتبت لك هذا القدر صغيري، سامحني،
م أكن أريد أن أجعل منك تمساحًا، تمساحٌ يراودك الناس
نومهم، لتأكلهم، لتجترّهم، لتكرّرهم في نسخٍ ممسوحةٍ من
يء إلاّ منك، المعذرة يا أوجاشو، جعلت منك مقدّسًا لأحميك
ونهم الديني، فلا شيء بإمكانه أن يحميك من دينهم إلاّ أن

تكون مقدّسًا، أن تكون دينًا أنت الآخر، سامحني يا صغيري لقد فعلت هذا لأجلك، لأجل إنقاذ هذا الرأس الكبير الفريد من نوعه من أنياب تلك التماسيح القذرة، ومن أصحاب الرؤوس الصغيرة التي حولك، فكيف ستتعايش مع رأسك الكبير؟ هل ستقتل مقدّسات الدين باستعماله مثلما قتلت أمّك؟ أم أنّك ستحبيها مثلما أحببتني؟ أرجو يا أوجاشو أن تفهم أن رأسك الكبير هذا قد وُجد لكي يكسّر أصنامهم الحجريّة والمتخيّلة، لا لكي يغدو صنمًا هو الآخر، يومًا ما يا صغيري ستفهم هذا بنفسك، وستفهم بعد ما ستدرك بأنّك كمقدّس لست سوى خدعة وكذبة قد صدّقها الشعب، وستفهم بعدها أيضًا بأنّ المقدّسات الأخرى ليست سوى نفس الشيء، ليست سوى كذب مقدّس هي الأخرى، ولأنّي سأزرع فيك روح الصدق والتمرّد سيكون من الصعب عليك يا صغيري أن تغدو صنمًا، ستقتل التمساح الذي بداخلك بنفسك ستجعله يركع أمامك وستمسك الكلاّب بيدك لتقلع أنيابه، ثمّ لتقطع جلده السميك ليبدو لك لحمه الضعيف القابل للإلتهام مثلما التُهم البشر باسمه، ثمّ لتعود إنسانًا مجدّداً لتقتل التماسيح في داخل كل المؤمنين لتنقذهم وتريحهم من الدين الشره هذا إلى الأبد، أتمنى ذلك يا صغيري، أتمنى أن تكون ذكيًا لتدرك ذلك بنفسك وطيّبًا كفاية لكي لا تكون أنانيًا للحفاظ على قداستك كما يفعل الدين عادةً وكما يفعل الحاقدون...

وضعت أوجاشو على السرير وتأمّلت الشعب المذلول من النافذة، تأمّلت سذاجته وتصديقه لكل ما يُقال له باسم الدين، تأمّلت طيبته التي تحوّلت لوحش يقتل باسم الطيبة وباسم الأخلاق، فلا شكّ أنّ أولائك الذين يلقون بأبنائهم للتمساح لا ينوون قتلهم ولا أذيتهم، فهم يظنّون أنهم بفعلتهم هذه يسدون صنيعاً هامًا لهم، فهم يظنّون بأنّهم بجرمهم هذا سيجعلونهم أكثر اقترابًا من جنّة التمساح لإنقاذهم من جحيم نفس التمساح، الأمر أشبه بأن تسلّم رقبتك لعدوّك لكي تنقذ نفسك منه، ولكنّهم كانوا يتوارثون جريمتهم هذه جيلاً بعد جيل، لقد فقدوا عن طريق التكرار في كل ذاك الزمن الطويل قدرتهم على تمييز الألم الذي يتسببون به لأبنائهم، وفي الحقيقة هؤلاء الآباء والأمّهات الذين يلقون بأبنائهم للتماسيح ليسوا سوى ناجين من الالتهام والتمزيق هم أيضًا، ليسوا سوى أولائك الناجين في حفلات قتل الأطفال تلك التي تعوّد المعبد إقامتها منذ بداية هذا الدين، لقد عاشوا صدفة بعدما التهمت التماسيح أشقّائهم، لقد كانت التماسيح المقدّسة تلتهم الصغار أكثر من غيرهم، فنظام المعبد أراد بمقدّسه هذا أن ينقص من النسل وأن يحدّده، لكي ينقص من حجم الاستهلاك في النهر ولكي يحكم سيطرته عليه، أمّا ومن الجهة الأخرى فكان قتل الأطفال وتقديمهم كقرابين للتمساح يهدف أيضا لخلق حالة من الخوف والشكر، الخوف من التمساح نفسه، وشكره في نفس

الوقت كونه قد سمح للناجين بالحياة، أنّها حالة مرضيّة متدهور زرعها المعبد بداخل هؤلاء الممسوحين، إقناعهم بضرورة قتل بعض أبنائهم ليعيش الآخرون فقط عن طريق التكرار والتوارث وبدون أي حجّة كان بالفعل أمرًا لبدّ من دراسته بشكل جدّي إذ لم يحاول المعبد حتّى أن يشرح لهم سبب قيامهم بهذا، لقد اكتفى المعبد بفرض هذا الطقس الإجرامي على الجيل الأوّل بالقوّة والتخويف ثمّ جعله ينتقل من جيل لآخر كما تنتقل العادات والتقاليد.

(الطفل الأوّل يُقتل، الطفل الذي يَقتل أمّه أثناء الولادة يُقتل، الطفل الذي يضحك كثيرًا يُقتل، الطفل الذي يتعلّم النطق باكرًا يُقتل، الطفل الأصم يُقتل، الطفل المعاق يُقتل، الطفلة الثالثة تُقتل، الطفل الذي يتجاوز النسبة المسموح بها من الجمال يُقتل، الطفل الذي يولد بأي تشوه كان يُقتل، الطفل الذي يولد كثيف الشعر يُقتل، الطفل الذي يبدو ذكيًا يُقتل، الطفل الذي يمشي قبل السنة الأولى يُقتَل، الطفل الذي ينادي أمّه في الشهر السادس يُقتل..)

لقد كان المعبد يبحث عن أي طريقة كانت ليتخلّص من الأطفال، أن يتخلّص من أي بذرة أمل في خلاص الشعب من جحيمه، كان يعلم أنّ شعبًا يلقي بأبنائه للتماسيح لأكلهم لن يتوانى عن تنفيذ جميع الأوامر الأخرى للمعبد مهما كانت تبدو قاسية أو مريبة، لقد كان الشر فضيلة في هذا العالم الفاسد ولم يعد أحدًا

انـه أن يثور علـى هـذه المكرّرات التي أكلت وعيـه ورحمتـه، لا
، أسـوء مـن أن يلقـي الانسـان فلـذة كبـده للتمسـاح، وأن يشـاهده
ق أمامـه، يتقطّـع للأبـد مـرارًا وتكـرارًا، ستبقى صـورتـه وصـوتـه
يتقطّـع إربًـا إربًـا إلـى الأبـد محفـورة في أخمـص ذاكـرة هـؤلاء،
كذكريـات سـعيدة بعـد ضمـان رحلـة مجانيـة لأطفالهـم إلـى جنّـة
أنيـاب التماسـيح، جنّـة مؤلمـة إلـى حـد التمـزّق، التقطّـع، التـنازل
الكرامـة وعـن العقـل، محـو الـذات، التصـادم مـع الخيـال والواقـع
، الخيـال والواقـع، جنـة الكـذب والحرمـان، جنّـة وَضَعـت أسسـها
البدايـة علـى جثـث الأطفـال والأبريـاء، وعلـى أشـلاء المفكّريـن،
لطالمـا قيـل لنـا عنهـا أنّهـا تقـع في مـكان مـزر وبـارد في بقعـة
ة بيـن نـاب تمسـاح وضرسـه في هـذا الطقـس الدمـوي المقـدّس
ي يُقـام مـع بدايـة الربيـع مـن كل سنة، يـزور معظـم النـاس قريـة
ـوكا الواقعـة بمحـاذاة المعبـد الأكبـر، وهـم يحملـون أبنائهـم
مـع في أيديهـم، واضعيـن إيّاهـم في الميـزان عـراة تمامًـا وخاليـن
أي قيمـة بشـرية أو حيـاة لحسـاب أوزانهـم، أوزان أجسـادهم
، تلك الجثث التي لا معنى لهـا ولا هـدف لهـا مـن البدايـة سـوى
ادة أو للالتهـام، كـون الطقـس كان يتوجـب الوصـول إلـى وزن
ـدّد مـن الأطفـال لطحنهـم تحضيـرًا لإلقائهـم للتمسـاح، وحسـب
ـدة يبـدأ الحسـاب بالأطفـال الواجـب عليهـم المـوت ومـن ثـمّ
ـعين حتـى الوصـول إلـى الكميّـة والـوزن المطلـوب...

كانت وجوههم سعيدة جدًا كالعادة، يتناوبون على إلقاء أبنائهم واحدًا تلو الآخر، يمشون على استرسال، كانوا يقتربون من الميزان تبعًا القاتل تلو القاتل، وكما يفعل المؤمنون عادةً، يعصبون أعينهم الداخلية ويفتحون أعينهم الدينية جيدًا، ينطق الرب على شفاههم ويستعمرهم التمساح كلّهم، يأخذ منهم كل شيء، ثم يجسّدهم في فراغ أجسامهم وهم مجوّفين، ثم يقطع قدرتهم على المحبة و على الإحساس بفظاعة ما يقومون به، يضع الواحد فيهم ابنه على الميزان وهو سعيد بإنجازه ذاك، يحسب وزن الطفل ويضاف الرقم إلى الكتلة العامة، ثم يمسك الطفل ويلقى به في مرحاة كبيرة مع الأطفال الآخرين تحضيرا لطحنهم، بعضهم يموت قبل ذلك بانقطاع نفسه وعدم قدرته على التنفّس بسبب تراكم الأطفال فوقه، أو بسبب وقوع رأسه بقوّة على سطح المرحاة أو على رأس طفل آخر، وعند الفراغ من وزن الأطفال المحرّمين على الحياء حسب دين التمساح، ينتقل الدور على الأطفال المتبرّعين والذين يصطفّ آبائهم وأمّهاتهم في صفّ الموت ذاك غير آبهين بمصير أولائك الضحايا الأبرياء، يتمّ وزنهم بنفس الطريقة ثمّ يلقون الى المرحاة دائمًا، وعند الوصول بعد جهد طويل الى الوزن المطلوب والذي لا يجوز تجاوزه أبدًا، يحدث أن يقطع من الطفل يده او رجله أو عضو آخر، عين ربّما أو حتّى اذن لكي لا يتجاوز الحجم المطلوب، وتقدّم الأشلاء المتبقيّة إلى الأباء كذكرى سعيدة ع ,

المطحون، وقد يحدث العكس قد لا يحتاج الوزن ليتم مكياله
عضو من جسد الطفل. فيقطع الوزن المطلوب منه ثمّ يسلّم
ع وبعد ذلك يعيش حياته مشوّها أو يختار أهله برضاهم
رّة أخرى لتمساح آخر في حفل آخر أو في تابنية أخرى...

د اكتمال النصاب، تُقرأ آيات من الكتاب المقدّس، تترتل
ي الموسيقي على المسامع الخاشعة للمضحّين وبعض الحضور
للتسليّة، وبعد يوم متعب من الكيل والوزن، يصرخ الراهب
متشوقًا لعملية الرحي ﴿فلتطحنهم المرحاة جيداً، وفليتقبل
اح الذي في السماء قرباننا هذا، لا اله إلاّ الصنم﴾ وبعد
اك تبدأ المجلة بالدوران لطحن الأطفال، يمتزج صراخهم
، عظامهم وهي تتكسر وتتهشّم، كانت تحدث إيقاعًا رهيبًا،
لألم والموت، إيقاع السذاجة والغباء، لقد كان بعض الحضور
في أصوات القرقعة العنيفة لتهشّم العظام تلك متعةً كبيرة،
يصرخون في حماس كبير وهم يقرعون كؤوس الجمّة، وكان
، الأطفال المضحّى بهم في كامل سعادتهم، وجوههم تتسع
جريمتهم، وتصعد شفاههم إلى الأعلى، وكأنّها تسقط في
الرب، حفرة عميقة بحجم الألم المطلوب، ثمّ يضع بعضهم
لى خديه معبّراً عن وصوله لقمّة النشوة والسعادة وتنتشر
واء قطرات الدم ورائحة اللحم البشري المطحون، وبعدما

يتم رحيهم بشكل كلي، يجتمع الجميع ليشارك في عمليّة تصفية المنتوج من بقايا الأطفال التي لم تطحن جيّداً، وترمى العيون التي حافظت على شكلها وسط الحُطام البشري لكي لا تدنسَ القربان بما رأته من الحياة، إذ لا يقبل الرب حاسة من حواسنا بل هو يريدنا عُميًا دائمًا ولو كنّا قرابينًا مطحونة أو مشوّهة، ثمّ تُحمّل لحومهم المطحونة تلك في أكياس بعدما يتم عجنها بدماء الضحايا نفسهم، ويقف الجميع أمام التماسيح، أهالي الأطفال المقتلون والحضور والرهبان، ويلقون بقطع اللحم المطحون إلى أفواه تلك الوحوش المقدّسة في مظاهر احتفال شنيعة تجسّد شراهة الإنسان المتديّن للعنف والإبادة لأجل المقدّس...

حتّى بعض الأطفال وأشقّاء الضحايا الصغار كانوا يشاركون أهلهم في إلقاء قطع لحم أخوانهم إلى التماسيح، وهكذا يقتل إحساسهم منذ الصغر ليصبح الأمر عاديًا جداً، أن تقطع طفلاً وتلقيه للتمساح، أن تطحن أخاك لأجل المقدّس، أن تمحي وجود ابنك نهائيًا بأمر من الدين، شرّ مقدّس ينظر له دائما على أنّه خير، خير مدلّس ينظر دائما له على أنّه قتل، ولكي يظفر المقتول بمكانة بجنّة الخلد الموعودة عليه أن يمرّ أوّلا بكل هذا الألم، بكل تلك الحقارة الدنيئة أيضًا، فيمزج لحم الضحايا بعضه في بعض، لكي يسلّم القربان كليًا وجماعيا للموت، إذ لا يقبل الرب،

إنسـان فـرداً، بـل يفضلّـه دائمًـا جماعـة، فكمـا يمحـي وجـوده في حيـاة باسـم جماعتـه يمحـه كذلـك في المـوت في نفـس الجماعـة، لا غرابـة في مـزج لحـوم هـؤلاء الأبريـاء، فالتمسـاح الأكبـر، الصنـم أكبـر المتخيّـل، لا يرضـى بالفردانيـة حتـى في المـوت والفـداء، لبدّ أن سير في اتجاهـه جماعـات وجماعـات، فالفردانيـة لـه وحـده، حكـرٌ ليه حسبه، وهـو يعلـم أن الإنسـان يمكنـه أن يصـل لدرجـة الإلـه يـوم درك حريتـه الفرديّـة واسـتقلاليته النوعيـة عـن الجماعـة، وادراك وره في صناعـة وعـي الجماعـة عـن طريـق الفكـر الحـر والشـك وعـن لريق هـزّ مضاجـع شـعبه الفكريـة لتشـعل شـمعة في الظـلام الدامـس جتمـع الديـن.

بعـد أن تنتهـي مراسـيم طقـس القتـل ذاك، يبـارك النـاس لأهالـي لأطفـال المضحّيـن، وهـم في كامـل السـعادة متشـكّرين الـرب علـى تقبّل لقربـان، في حـين يدخـل الأهالـي في حـوارات فيمـا بينهـم يتذكّـرون نهـا الطفـل وذكرياتـه وذكريـات طفولتهـم في إلقـاء إخوانهـم الأشـقاء لتماسيح، وهـم يتشـكّرون الـرب علـى نعمـة رؤيـة طفلهـم وهـو يطحـن يتألّـم ولـو مـرّة في الحيـاة، وعندمـا ينصـرف الحضـور عـن جلسـة لعربـدة والقتـل تلـك يتذكّـرون بـكل شـغف واشـتياق أصـوات تهشّـم عظـام الأطفـال في المرحـاة، كمـا يتذكّـرون طريقـة التهـام التماسـيح لحـوم البشـريّة المطحونـة...

لا شكّ أنّ الدين هو الدافع الرئيسي لهذا السلوك المشـ
ولكن لا شكّ أيضًا أنّ هناك حاجة بشريّة ماسة استباقية للد
تجعل الإنسان يرحب بهذا العنف، أظن أنّها طبيعة مخبّئة
الإنسان تدفعه إلى إيجاد الألم، تدفعه لأذيّة الآخر وما إن يأ
الدين يتشبع بتلك الغريزة ويدفعها للتحرّر فيتشبّث الإنسـ
بالدين ليبرّر لنفسه حريّة أذيّة الآخر تحت نفس المسمّى، تحـ
نفس الذريعة، وهو يضفي للسلوك المشين ذاك نوعًا من القدا
بانسابها إلى الرب.

لا شكّ أيضًا أنّ صانعي هذا الدين كانوا يفقهون طبيـ
الإنسان بشكل جيّد، يعلمون ما يريده سرًا أو جهرًا ويدركون طـ
تطويق غرائزه الحيوانية لاستعمالها ضدّه، لتقييده وربطه بـ
يشتهيه سواء إغراءً أو تخويفًا، كانوا يعلمون أنّ في الإنسان جا
عميقًا من الشر ينتظر من أحد ما أن يسكب عليه نوعًا مـ
الفضيلة والتقديس، كانوا يعلمون كل شيء في الإنسان فجعلوه
يعلم شيئًا عن نفسه، جعلوه يمارس شرّه ضد نفسه، غريزة حـ
البقاء ضد نفسه، حياته ضد نفسه، بخلق حياة موازية تكون نـ
من حياة مزرية يصنع الدين بؤسها ليستبدلها بحياة أفضل، حـ
لا يمكن الوصول إليها الاّ عن طريق نكران الذات والتخلص مـ
روابطنا الشعورية مع الآخر، فنصبح مجرّد ذوات قاتلة لا هدف لـ
في الحياة سوى حماية الدين نفسه الذي يمثّل الفضيلة الأسـ

كلها المطلق في حين يتخلّص هو من الإنسان كونه الذات
دّدة بالنسبة له عن طريق جعله يخضع للجماعة باستعماله
، الذاتي ويقلب أهدافه الطبيعية في الحياة إلى محرّك لانتاج
ين بتخدير إدراكه وفكره وعواطفه ويجعله يرتكب الشر بشكل
ى من أي ندم وهكذا مع الوقت يتحوّل الانسان إلى آلة قتل،
تدمير، آلة عنف، وعندما يغمر الانسان شكٌ ما اتجاه دينه
يتوانى أبداً عن قهر الشك ذاك لكي لا يتعذّب فيما بعد بأي
ر ندم أو تأنيب عمّا ارتكبه باسم الفضيلة الدينية قبل ذلك...

هل تسمع يا أوجاشو صرير الجراد القادم من صدري، هل
مه جيّداً، ذاك الجراد الذي يريد أن يلتهم ما زرعه المعبد منذ
إات من خوف وإيمان أعمى في عقل هذا الشعب المنوّم، ذاك
راد هو أنا، ويوم ما سيخرج من داخلي، من فاهي ومسماتي
، مهبلي ومن فتحة الشرج، سيخرج من أي نقطة مفتوحة نحو
العالم البائس، ليأكل تخلّفه، سيخرج كصرخة أسطورية لجبل
ت، ليعلن عن قيامة الرب، عن آخرة هذا الدين الذي أكلنا،
نتقم الجراد من كل شيء وحينها لن يقتل الأطفال مجدّداً
سنطحن أنياب المقدّسات، وسنعيش لأوّل مرّة بلا تماسيح،
هنا سيفرّ الرب مع وقع أقدام البغال والحمير، وسيركبه
تبرون كالعادة وسيذهب الجميع إلى الزوال...

وكان هذا الطقس الدموي أوّل ما أردت أن ألغيه يا أوجاشو. أو ما كان يريد جرادي التهامه، أردت أن أنقذ الأطفال من الألم الفظيع ذاك، من ألم المرحاة، من ألم الطحن وتهشيم العظام، أردت أن أقنع الآباء والأمّهات بشراسة ما يقومون به وبفظاعته، أردت أن ألمس بيدي الخيط الرقيق الذي كان يربطهم بأبنائهم والذي قطعه الدين وأن أعيد وصله من جديد، أن أربطه بحكمة ثم أنفخ فيه من عقلي لأجعله أخشن من أن يقطع ثانية، أن أجعلهم يتصالحون مع كياناتهم التي اختارت التكاثر، وأن يلغوا هذه الكراهية التي تتابعهم من أبنائهم من أي جيل جديد قد لا يعيش نفس القهر والغباء الذي عايشوه، فالتمساح الذي يتفوّط لا يمكنه أن يقدّس. ولا شكّ أنّ غائط هذا الرب قد ملأ حياتنا التعيسة، ولا شكّ أنّنا بحاجة أكثر من أي وقت مضى لجلسة ازدراء، لجلسة كفر وزندقة، نحن في حاجة لشكّ جماعي كهذا الإيمان الجماعي، لكي ننقذ حياتنا من هذا الكابوس الذي يرتدي قناع الفضيلة، هذا الشيطان المريض الوجه، الذي لا يستح من أن يظهر لنا في ثوب الملاك الطاهر، وهو يحمل لنا في يديه مذابحنا ومقاصلنا، لنسجد ونركع لرب اختارنا أن نكون شياطينه للأبد لنحوّل حياة الأبرياء إلى تعاسة مطلقة، لرب اختارنا أن ننجر أخشاب توابيتنا بأيدينا لنقطّع لحومنا لأجله، كمن أطلق هذا الدين في الشعب كوحش كاسر يلتهم كل شيء أمامه، ويحصر الحقيقة فيه وحده، في هذا

ش الملتهم، ومن ثمّ إقناعنا باسمها بأن نقتل ذواتنا ولواحقها
سبح مجرّد أدوات لحمايته ولضمان بقائه وبقاء تجبّره...

أردت أن أنقذ الاثك الأطفال المساكين الذين لم يساعفهم
ظ في أن يظفروا في حقّهم في الحياة، ولم أجد أي طريقة
ل ذلك بشكل مباشر، لم أتجرأ على ذلك، فالجراد الذي
خلي كان يأنُّ أحيانا ويكمت صوته حينما يتذكّر بأن بين يديه
ل يبحث عن الحياة، لازال لحمه طريًا ولو قدّس في معبد كل
فيه له أنياب، ناديت على بيترام لكي أتجاذب معها أطراف
حديث ولأرى ما إن كان بوسعها أن تقدّم لي مشورتها بخصوص
ذا الأمر، كنت بحاجة لكلام امرأة امتزج لعابها مطوّلاً بلعاب
اكوشا لتقرأ عليّا نصيحتها بعقله، كنت بحاجة لرائحة جسده
مفن وهي تخرج من أفكارها كنت أريد فكرةً يحملها التمساح
حده في جوفه أو في ذاكرة من عبير مسلّمات هذه القرى العفنة
تطق بها رفيقتي في الإزدراء وجسدها المدنّس بصفير الرب في
نجواتها...

جاءت بيترام كعادتها قدّمت لي التحيّة أمام الحرس قبل
ذلك انصرافهم، وناولتني سَمعَها بعد حديث قصير لا يهمني منه
شيء.

– قلت لها وأنا أحمل أوجاشو في يدي: بيترام، لقد قضيت
أيّامًا متتالية في قداستي هذه ولم أشعر وأنا أحملها على عاتقي
سوى بالازدراء، في كلّ مرّة ينحني أمام الائك الضعفاء المجانين
الائك المؤمنون الذين لا يتاونون عن خفض رؤوسهم، هواة السجود
والركوع، كم كنت انقزّز وأنا جالسةُ العب دور الألهة أمام رؤوسهم
الخاشعة وأضحيّاتهم البشريّة اليانعة، لم أعد أتحمّل كلّ هذا
بيترام، أريد حلاً.

– ردّت بيترام : هدئي من روعك صديقتي، لست بذلك
الضعف الذي تمثّلينه الآن، لقد استطعت أن تكتسبي قداسة
الآلهة بين لحظة وضحاها، ولا يحق لك اليوم أبدًا هذا الأنين
المضطرب، هدئي من روعك أرجوك، لأجل أوجاشو، أي خطأ قد
ترتكبينه الآن قد يعيدك إلى اللحظة الصفر، إلى لحظة الصلب
إلى عضّة التمساح، اصبري، غيرك يصبر كونه عبدًا ذليلاً، أنت
إلاهة مقدّسة ولا تصبرين؟...

– تأمّلتها قليلاً ثم قلت لها: ولكن يا بيترام، الوهيتي ليست
اختيارًا فأنت تعلمين أنّني لطالما ازدريت هذه الفكرة بشكل مطلق
فكيف لي اليوم أن أكون سعيدةً وقد تقمّدتني، ارتدتني كما يرتدى
الثوب الرث، أصبحت مقدّسةً، قاتلةً، تُسفك الدماء لأجلي وتقدّم
القرابين البشريّة، يمنع الناس عن الشك في ذاتي وتقمع أفكارهم

لأجلي، كل يوما أرى رؤوسًا بشرية تقطّع أمامي للفوز بجنّة لا أعرفها حتّى، يدعون لي التوسط لهم عند ربّ السماء وأنا لا أؤمن به حتّى، هل تظنين الأمر بهذه السهولة يبترام؟ أظنّك قد فقدت قدرتك على الامتصاص، لقد اسودّ العالم في وجهي يوم عُدت إلى هذا المعبد، لم يعد لدي القدرة على التحمل. في الماضي كنت أقف شاهدةً على قتل الأبرياء باسم التماسيح، أمّا اليوم فأنا تمساح بشري، أنا من يلتهمهم يبترام هل تفهمين هذا؟

أنا:

من يلتهمهم.

ردّت يبترام غاضبةً : لا لست أنت من تلتهمينهم، بل جهلهم من يفعل هذا، كانوا يفعلون نفس الشيء قبل قداستك وهم يفعلون نفس الشيء الآن بعدها، وسيفعلون ذلك دائمًا، لم ولن يتغيّر شيء، لست أنت من خلق الدين أو استحدثه، أنت فقط وجدت طريقة ذكيّة في التنصّل من عقابهم الديني، لتفرّي بجلدك ولتنقذي هذا الطفل البريء ورأسه الكبير، ألجا عزيزتي لقد تعوّد هذا الشعب على الهرج والقتل، لقد تعوّد على العنف، تعوّد على التمساح، الكل مدمن هنا على تلك المضغة المقدّسة، من حقّهم أن يتمزّقوا إن أرادوا ذلك، فهم يفعلون هذا باسم الحفاظ على تقاليد الأجداد وعاداتهم، ليس ذنبك أن كنت تعيشين وسط

شعب يصدّق كلّ شيء يرمى له باسم الدين، لست أنت من يجب أن يحمل وزر هذا الشعب في أجياله المتواصلة، انفذي بجلدك واصلي في كذبتك الجا لن تخسري شيئًا كوني أنانية بعض الشيء، يحق لك هذا.

- أجبتها متوتّرةً ومتأمّلةً في ذات الوقت: ولكن كيف يمكنني أن أكبت رغبتي في تحريرهم؟ كيف يمكنني أن أكبت هذه الرغبة الجامحة في قصف أسوار هذا المعبد الشره؟ لا أريد لأحد أن يسفك دمائه مجدّدًا لأجل تمساح ما، لا أحد يجب أن يتألّم لأجل المقدّس، من حق الجميع أيضًا أن يعرف الحقيقة، أن يفهم حقيقة هذا الدين الشرّير، أن يفهم كيف يسيطر عليه جاكوشا باستعمال معتقداته الدينيّة، وكيف جُعل منه عبيدًا في حلقات متواصلة تسمّى مجتمعات، يجب أن يعرفوا كيف قام المعبد لأجيال عن طريق التكرار بمحو ضمائرهم الإنسانيّة واستبدالها بأخرى مزيّفة من صنع الدين، وكيف تمّ محو إنسانيتهم وفكرهم ووعيهم واستوطنهم التمساح الأكبر فاستحوذ على وجوههم ففقدوا تماسيحًا تلتهم بعضها بعضًا من حقّهم أن يعرفوا كل هذا وكل شيءلكي تتوقّف هذه الكذبة الأبديّة ولكي تنجو الأجيال المقبلة من هذه. الكارثة الفكريّة التي امتصّت منّا السعادة الحقيقية، انظري يا بيترام، إن استطعت أن أوقف هذه العنجهية الدينيّة واستطعت أن أقنع هذا الشعب بضرورة ترك هذه الخرافات سأتمكّن من الحياة أنا

وصاحب الرأس الكبير وسيتمكّنون هم أيضًا من النجاة، ولن يُقتل ولن يذبح ولن يطحن بريء لأجل تمساح أبدًا.

ردّت بيترام بنبرة تهكّمية: لن تتمكّني أبدًا من إقناعهم يا ألجا، ستتعبين نفسك فقط، حتّى ولو اقتنعوا لن يرضوا أبدًا بتدمير ما ورثوه عن أجدادهم، حتّى لو وضعتي أمام مرآهم كل الحجج والبراهين الدامغةصدّقيني لن تغيّري فيهم شيئًا البتّة،ليسوا منوّمين فقط يا ألجا بل هم الدين نفسه، إن حاولتي إلغاء الدين سيشعرون بخطر إلغائهم هم أيضًا، الأمر لا يقتصر على مجرّد إيمان أعمى بالدين يا ألجا بل يتعداه إلى حالة من التقمّص. في الحقيقة لست وحدك الآلهة هنا، كلّهم آلهة بطريقة او باخرى، لذا أنصحك يا ألجا بأن تواصلي تمثيليتك هذه، أمّا هم فسيقطعون رؤوسهم وسيطحنون أبنائهم وستلتهمهم التماسيح بك أو بدونك.

قاطعتها مجيبةً: بيترام، لأكون صريحةً معك لديّ خطّة لأجل هذا، اسمعيني جيّدا، هل تتذكرين ثورة جبهة إنقاذ التماسيح وكيف زادت من وطأة الدين بفضل قداستها المصطنعة؟ ماذا لو قمت بالإنقاص من وطأة الدين باستعمال قداستي الحقيقيّة وأنا آلهة الآن بقداسة كاملة؟ ماذا لو قمت بتحرير الشعب من بعض أوامر الدين، أمرًا أمرًا؟

سـألتني بيتـرام: ويحـك مـاذا تقصدين؟ مـا هـذه الخط العجيبـة؟ هـل تريدين النفـاذ إلـى قلب الدين وتفجيره؟ بهـ الطريقـة، ستتفجرين معـه تأكّـدي..

أجبتها: وإن يكن فلأنفجر معه إن كان هـذا مـا يجب عليّا فد ليموت الوحش

سـألتني: أي وحش؟

أجبتها: الرب

قالت لي: وهل تظنين الأمر بهذه البساطة، أن تقتلي الوح الأوّل، التمساح الأكبر، الأضخم، الوحش الذي أكل الجميع، الوح الفتّاك، لن تتمكّني سينتهي الأمر بالتهامك

أجبتها: الآن كفّي عن التذمّر واسمعيني

-ردّت: كلّي أذان صاغية تفضّلي

قلت لها: بيترام عزيزتي، لست غبيّة لأفجّر الدين كلّه دف واحدة بهذه الطريقة المتعجرفة التي تتخيّلينها، بل سأفج بالتجزئة، سأبدأ ببعض طقوسه لأنتهي بالصنم الكبير، لست أر نهاية سريعة بل أريد نهاية يُحرق فيها المعبد على نار هادئة يشتمّ دخانها لينجو بنفسه ومقدّساته منها، فتحرقه هي روي

رويدًا دون أن يشعر حتّى، سأحرق المقدّسات الواحدة واحدةً واحدة، لن يثور المعبد عليّ بهذه الطريقة، هل فهمتني الآن؟ فماذا تنصحينني؟

ضحكت بيترام ثمّ قالت لي: ولكن ما الذي يجعلك تطلبين النصيحة منّي؟ الشيطان نفسه لن يتمكّن من خداعك، أو فهم خططك، نصيحتي لك اتركي عنك هذه الأفكار واندمجي مع ألوهيتك سيكون الأمر أفضل لك ولصاحب الرأس الكبير، لا تحاولي كسب عداء المعبد و جاكوشا سيكون الأمر خطرًا عليك وقد تلفين ألوهيتك في ومضة برق، أمّا وإن أصرّيت فمشورتي لك سهلة، أنت آلهة الآن يكفيك أن تأمري الشعب فينقاد لك لا تنسي هذا.

فكان ردّي: نعم أعلم هذا، وهذا ما أنوي القيام به أصلاً، إلاّ أنّي أبحث عن طريقة أمثل لتقديم الأمر، سيسأل الجميع لما أردت القيام بذلك، فماذا قد تكون إجابتي؟، يجب أن تكون مقنعة حتمًا.

ردّت بيترام : بالرغم من أنّ الأمر يبدو خطرًا جدًا ولكني أعرفك جيّدا، بما أنّك وضعت هذا صوب عينيك لن يرتاح لك بال إلاّ وقد حققتي مرادك، وبما أني صديقتك فأنصحك بفكرتين يمكنهما مساعدتك على تنفيذ ما تطمحين إليه، أوّلاً أخبريهم

أنّ التمساح الأعظم، الرب الكبير، يحادثك وحيًا في أحلامك ويطلب منك توقيف بعض الطقوس الدينيّة وذلك رحمةً بشعبه، أمّا الفكرة الثانية فاخبريهم أنّ صاحب الرأس الكبير يحادثك في الخلوة ويطلب منك ما تطلبينه بدورك منهم.

أجبتها وأنا سعيدة: لهذا طلبت مشورتك يا غاليتي، كنت أعلم أنّ عقلك الفريد بإمكانه ان يجد أقوى الأفكار، أنا سعيدة أنّك لم تخسري هذا الجانب من شخصيّتك، كنت أظن أن المعبد قد نجح في جعلك تشبهين الآخرين، في جعلك قوّادة الدين، ولكن يبدو أنّك لازلت تحافظين على قدرتك الفكريّة بعيدًا عنه.

ردّت بيترام: لم يحوّلني المعبد أبدًا، كل ما هناك أنّي غدوت أنانية جدًا عندما أصبحت جسدًا خاو من اي روح، كان علي أن أمثّل دور المؤمنة الخاشعة والعاهرة القانتة لكي يرضى عنّي المعبد والرهبان، فكيف تتخيلين مصير قحبة دين بدون ابتسامة شاردة وغباء مفرط، قحبة ذكيّة؟ أين حدث هذا؟ هذا ما لا يجب ان يكون، القحبة الممتازة هي القحبة الغبيّة، هكذا تصبح اكثر إثارة جنسياً، وهذا هو دوري في هذا المعبد في الكتاب المقدّس وإلاّ غدوت طعامًا للتماسيح.

ثمّ ضحكت بيترام وأردفت: المهم الآن، ما هو الطقس الأوّل الذي تنوين إلغائه يا ألجا؟

أجبتها: إلغاء طحن الأطفال، سالغي احتفال قرية باراجوكا السنوي...

أجابت بيترام: ولكن يا ألجا، أنت تعلمين أنّ هذا الإحتفال يعتبر مصدرًا إقتصاديًا هامًا لقرية باراجوكا والقرى المحيطة بها، ممّا سيجعل سكّانها يثورون ضدّ قرارك، لا أحد سيتركك تلغين هذا الإحتفال، المعبد يأخذ الكثير من الإستحسان بسببه، كما أنّ الناس الذين ينوون الإحتفال بعقيقة العائلة بتطهيرها بأحد أبنائهم لن يرضو بهذا أبدًا...

أجبتها: وهل هذا يسمح لنا بتوك أطفال أبرياء يطحنون في مرحاة لأجل هوس ديني وتقاليد مقدّسة، أو يلقون لأفواه التماسيح وهم عراة وكانّهم ولدوا للألم، وهم ليسوا سوى صفحات بيضاء لا قرار لها حتّىو بتلك الطريقة الشنيعة، لأجل ماذا؟ لأجل أن تكتسب قرية براجوكا بعض المال ويأخذ المعبد بعض الاستحسان، لما الرب خسيس هكذا؟ لما هو بهذا اللؤم دائمًا، لما هو بالشراهة لدرجة أن يلتهم الجميع، على هذا الرب أن يتعلّم الآن الصيام، كمّا علّمه لنا، لا طفل يجب أن يطحن بعد الآن لقد سئمت هذا الافتراس الديني الإلاهي...

ردّت بيترام: أعلم أنّك قد أصريت على هذا ولن يمنعك شيء عن تنفيذ ما تريدينه، أتمنّى لك التوفيق ولكن متى ستعلنين هذا لتلك الجماهير الغبيّة؟

أجبتها: أثناء الصلاة اليومية التي يمارسونها في معبدي الخاص وهم يركعون أمام قدماي ويسجدون، سأعلن دون العودة للمعبد عن خطاب الاهي سأقدّمه لهم بعد أيّام وسأطلب منهم نشر الخبر في جميع القرى والمدن...

ردّت بيترام: ولكن ألا تخافين المعبد وجاكوشا؟ لن يرضى اتخاذك لقرار دون العودة له سيعتبر الأمر تمرّدًا وانفلاتًا عنه، أخاف أن ينتقمو منك ألجا...

أجبتها: أنا حارسة الرب بشكلٍ رسمي، أنا الناطقة باسمه الآن، المعبد نفسه لن يستطيع إيقاف هذا الحلم المتمرّد عن التحقّق الآن.

قالت لي: ولكنك ستحسبين متمرّدة على الدين يا ألجا...

فكان ردّي: وإن يكن، ماذا لو اختار الرب أن يتمرّد على دينه،؟ أليس هو كامل الإرادة؟التمرّد على الذات وأفكارها إرادة أيضا، فليكن كاملاً هذه المرّة أيضا في المخيال العام، أم أنّه كامل فيما يرضونه وناقص فيما لا يرضون؟ لقد أعجبتني فكرتك بيترام أنا حارسة الرب، أنا معجزة، لدي من القدرات ما لا يملكه أحد في هذا العالم الديني الفاسد، يحق للتمساح المقدّس الذي بداخلي أن يأكل التماسيح الأخرى،ما دام تمساحي هو الأقوى والأكثر قداسة

قالت بيترام : حسنًا يا ألجا لديّ ثقة كبيرة بذكائك، ولكن أريد أن أخبرك بشيء قد أخفي عنك في المعبد، ربّما الأمر سيجعلك تعيدين ترتيب أفكارك من جديد.

سألتها: ما هو بيترام؟ أخبريني

أجبتني: هل تتذكّرين الراهب الذي أوقف عملية صلبك وقتل الطفل في قرية مهيتابا وقد قال أنّك المعجزة التي تحدّث عنها الكتاب المقدّس؟ هل تتذكّرينه؟ لقد صدر أمر بإعدامه فور عودته للمعبد في ذلك اليوم بسبب إيقافه لحكم قتلك، ناداه جاكوشا ليشرح له ما حدث، ذهب إليه الراهب ليبشّره بالظهور المقدّس وهو في قمّة السعادة فأمر جاكوشا الحرّاس برميه من أعلى قمّة القلعة، ما أريد أن أقوله لك يا ألجا، جاكوشا ليس بذلك الغباء ولا بذلك الضعف الذي تتخيّلينه، قد ينتقم منك في أي لحظة وقد يجعل منك تقفزين من مكانة الرب العالية إلى مكانة الجثة المقطّعة والمطحونة، لا تكوني مغرورة جدًا ألجا، تصرّفي بحكمة وبهدوء كنت أعلم أن جاكوشا حقير كدينه، ولكن أن يقتل راهبًا فقط لأنّه فسّر آيات من الكتاب المقدّس فهذا أمرٌ لا يمكن المرور عليه بسرعة، لبدّ من التفكير فيه جيّدا، في هذه الإرادة السلطوية في ترسيخ قيم الإنتقام، والإنقلاب على نفسها دون التفريط في تنفيذ الحقد والجريمة باسم نفس الدين، أليس وضيعًا جدًا أن

يكون الإنسان مدّعيًا للفضيلة ولسان الرب وفي نفس الوقت قاتلاً لأجل مصلحته الشخصيّة...

لا أكذب أن خبر إعدام الراهب قد حرّك فيا بعض الفكر وبعث في نفسي بعض التردّد في تنفيذ خطّتي لإلغاء الدين، فأنا الآن في مواجهة معبد قرّر مواجهتي منذ البداية بترسيخه لقداستي التي رفضها منذ البداية أيضًا، لقد كان المعبد ينافقني لأجل مصلحته، ولكنّي اتخذت قراري في النهاية، ساواصل في خطّتي مهما كان النتيجة، فقد ادركت أنّ قداستي أصبحت أكبر من قداسة من المعبد نفسه، ووعي الشعب أصبح متصلاً بوعيي أكثر من اي شيء آخر، وان كنت أعلم جيدًا من البداية أنّ الخطوة التي قرّرت الإقدام عليها ستكون خطرةً جدًا إن لم أعرف طريقة تسييرها والتعاطي معها وأن اقدّم لها بعض الوقت الذي تحتاجه، لكي أضمن بقائي وبقاء صاحب الرأس الكبير على قداستنا الإلاهية تلك وفي ذات الوقت نكون قد الغينا طقسًا مؤلمًا للغاية ونكون أيضًا قد انقذنا الاف الأطفال الأبرياء، أن يختار أحدٌ ما عبادة التمساح هذا لا يعطه الحق بأن يلقي طفله له، أو أن يلقي الكافر به إلى أنيابه فالأطفال يولدون كفّارًا ثم يلقون للإيمان كما يلقون للتماسيح دون وعي منهم ودون إرادة...

قرّرت إذن المضي قدما في خطّتي. أجبت بيترام بكل ثقة : ﴿ وإن يكن فليحدث أي شيء، سأنقذ الأطفال من هذا الإيمان القاتل مهما كانت النتيجة﴾، لقد كانت إجابتي واثقة من نفسها. لست أنا من قالها، بل قالت نفسها بنفسها، إذ كان عليّ أن أواصل، أرواح كثيرة في حاجة لتمرّدي في هذه اللحظات، ولا يكفيني الوقت لأفكّر حتّى فيما أقوله. الكلمات كانت أقوى منّي في التعبير عنّي، سأبدأ ،إذن ومهما يكن، سأفعل، لتبدأ مسيرة الكشف عن حفرة الرب، عن سرّه، عمّا يخفيه عن هؤلاء المجهّلين، ولن أقول لهم السرّ مباشرةً، عليّ أن أستعمل الرمز في تنفيذ خطّتي المقدّسة هذه في إلغاء الدين إلى أن يكتشفوا الحقيقة وحدهم. سأبدأ بتقليم مخالبه، ثم بخلع أنيابه، ثمّ بتجويعه، ثم بقتله، وهكذا سيختفي التمساح رويداً رويداً.

إذن أعلنت الحرب على المعبد، أعلنت الحرب على هذه الطقوس القاتلة، أعلنت الحرب على ذلك البعبع الذي زرع بداخلي باسم الدين، كفرت به وساقتله، لا شيء بداخلي يريد التمسّك به، أفلت أصابعك عن يدي، أسقط في حفرتك، لا تترجّاني في الحياة، يحق للانسان الحياة أيضًا، لا حقوق للأشخاص المتخيّلة، الجسد الفاني المتألّم وحده من يستحق الحقوق، أمّا الذوات الأبدية المتخيّلة فلا حقّ لها سوى في الموت الإختياري، الطوعي أو الجبري أحيانا...

نظرت إلى السماء، كنت أحدّق في ذلك المربّع الزجاجي هناك الذي يبدو بين الغيوم، حيث يُخرج التمساح الكبير لنا رأسه كلّ يوم، تأمّلت ذلك التكبّر الفاشم، تأمّلت تلك الأنياب الكبيرة المنيرة، وتلك العيون الحاقدة والمثيرة والتي تعكس وجوه المؤمنين، ناديته بقوّة وحزم: ﴿يا أيّها التمساح الأكبر، يا من التهمت الجميع باسم مباديه لم تطبقها أنت على نفسك، يا من تفتح فاهك كلّ يوم لتبلع عقولنا ووعينا، يا من اخترت ذلك النهر العلوي لتلعنا بدينك، ألم يحن الوقت الآن لتنسحب، لتحافظ على كرامتنا وما تبقّى من شرفك، ألم يحن الوقت بعد لتغلق نوافذ هذا المربّع الزجاجي لتنقشع عن فكرنا غيمتك السوداء، قرّر الإختفاء، قرّر الرحيل، لم يعد لك مكان بيننا، لقد أكلت من أكلت تماسيحك جسده، وأكلت ما أكله دينك من وعي البشر، يا أيّها التمساح الأكبر، الصنم الأكبر المتخيّل، القابع في خيالاتنا الموروثة، في مخاوفنا العميقة، في صلواتنا التي تخمّرت وأسكرتنا سُكر الرذيلة العليا، انصرف للأبد، انصرف وخذ أشيائك معك، خذ كتابك المقدّس الذي ألغانا، ومعبدك الذي أعيانا، خذ عنا تماسيحك التي التهمتنا، وأنيابها التي قطّعتنا، خذ عنا مرضاك، ذلك الذي آمن بك فأرضاك، أو ذاك الذي لأجل جنّتك صلّى لك وصلاّك، أدخل رأسك رويداً رويداً في قوقعتك المتخفيّة كما تفعل السلحفاة، وبسرعة البرق انقشع خلف الغيوم، لنمحوك كما محيتنا، إلى

لابد، إلى الابد﴾ وامسكت حجرا وكسرت المريع الزجاجي ومنذ ذلك الوقت تخلّصت منه، تخلّصت من هوسه وهلوساته، تخلّصت من أنيابه وسمومه، وغدوت حرّة، أشبه نفسي وذاتي، وتشبّعت بكرامتي حينها فولدت من جديد كما ولدت في بدايتي الكاذبة في ليوم المحرّم...

في اليوم الموالي، اتجهت لمبدي لأقوم بوظيفتي كآلهة وكحارسة للرب، ليعبدني الجهلة كالعادة، جلست على عرشي وبدأت وفود الحجّاج ككل أيّام الصلاة تدخل المعبد بوقار، نساء ورجال وهم يرتّلون بعض أقوالي أو بالأحرى ما جُمع لهم من أكاذيب على أنّها أقوالي وأحاديثي، وهي مجموعة تبجيلات للصنم الأكبر، لأولوهو وللمعبد والتماسيح، وهو كتاب كتبه رهبان المعبد باسمي بأمر من القائد جاكوشا، ولم يكن عليّ أن أرفضه، كان الانك الحمقى المؤمنون يردّدونها بكل سعادة ومن جملة ما كانوا يرنّمونه وينسبونه لي: ﴿أنا حارسة الرب، أنا ألجا، أقذفوا أنفسكم لأجلي في فم التمساح، واسجدو اركعوا﴾ وهذا القول كان دعوة رسمية من المعبد باسمي للحج لي والصلاة وتقديم القرابين التي كان يأخذها جاكوشا إلى عالم لا أعرف أين يقع، و كانوا يقولون أيضًا ﴿أموالكم للمعبد، ثرواتكم للدين، التمساح، الصنم، الدم والألم﴾ وهذه طريقة أخرى لفرض إيمان أعمى بأحقية المعبد في مقدّرات

الشعب بشكل مطلق ثم تتردّد الشعارات التي تلعب دور المخدّر للوعي بالربط رضا التمساح والصنم بالدم والألم للزيادة في عدد الأضحيات البشريّة، ومن أكاذيبهم أيضًا قولي: ﴿لا تفكّروا فالرب يفكّر في مكانكم،لا تعبّروا عن آرائكم الرهبان يعبّرون في مكانكم، لا تجادلوا،لا تشكّوا، لا تبدعوا، لا تتجوا، إنّ الرب يريد بكم اليسر والسهولة فلا تجعلوا الحياة مؤرّقة وصعبة على عقولكم﴾ وهذه هي الطريقة الأمثل في التحكّم في العقول ووعيها للإطالة من عمر الخرافة وقابليتها للسيطرة على الشعب، ومن الأقوال الغبيّة أيضًا ﴿لا طفل أسعد من طفل تأكله التماسيح، ولا أجمل من طفل شوّه لأجل أن تشبع التماسيح﴾ وهذه المقولة هدفها الأساس هو تجميل القبيح، وجعل من جريمة القتل تبدو تضحية رفيعة لأجل الرب ولظفر بجنّة القتلة والمجرمين، وهكذا تتزيّن هذه الخدعة في عقول هؤلاء الدواب البشرية العاقلة...

كان الهدف من وضع هذا الكتاب هو إيجاد مكرّرات لاواعية لتحفر في عقل الفرد، لبدّ من إيجاد كلمات تنسب لآلهة ما وجعلها تتردّد دائما لتكتسب القداسة، والقداسة هي الخوف والتكرار، فكلاهما وجهان لنفس العملة، وهكذا اكتسبت أنا القداسة بدوري، اكتسبت ما يخيف في ذاتي واكتسبت أيضًا عبادتهم لي والتبجيل.

القداسة هي الخوف، وهي كذلك تمثال الكذب، لا شيّ يجب أن يكون مقدّساً جداً إلاّ إن كان مخيفا جداً وكاذبًا جداً، وهكذا يُصنع الوهم المقدّس ويتكرّر جهله...

كانوا كالعادة يتذلّلون أمامي ويمارسون طقوس غبائهم، يركعون ويسجدون ومنهم من اختار لحس أرضية المعبد بلسانه لتنظيفها بلعابه لإبراز تبجيلهم لي، كانوا يعبّرون عن تقديسهم أحيانا بطرق مفرطة في إهانة الذات كشتم أنفسهم وتبجيلي في نفس الوقت، وكانّ الآلهة التي بداخلي لا يجب عليها سوى أن تكون قاهرةً ومذلّة. لقد تعوّد الشعب على هذا النوع من الآلهة وبتذلّلهم بذلك الشكل كانوا يقومون بما يظنّونه قد يرضيني ويفرحني كآلهة..

وعلى عكس صلاتهم اليوميّة لي، حيث كنت أجلس عادةً أتفرّج على صلاتهم إلى أن تنتهي ثمّ أنصرف خلف الغيوم، وقفت هذه المرّة وطلبت منهم الإستماع فخرّوا ساجدين ﴿ بأمر من الصنم الأكبر، التمساح الأكبر، آمركم بعد أسبوع بالتمام من الآن القدوم إلى باحة المعبد لألقي خطابًا ربوبيًا عليكم، والحاضر يعلم الغائب﴾ لقد كانت هذه الكلمات أوّل ما سمعوه مني منذ واقعة الكسوف، وكان الأمر معجزة أخرى بالنسبة لهم، فزادوا في تذلّلهم أمامي قبيل الإنصراف. لقد أصابتهم نوبة من الإيمان والذل

بسبب سماعهم صوتي فراحوا يعبرون عنها بتصرفات أقرب للحيوانات المسعورة منها للإنسان، بعض النساء رحن يصرخن ويرطمن وجههن نديبًا جنائزيًا، والرجال كانوا يتشقلبون على أنفسهم وهم يصرخون كقردة أصابتها كثرة الطمث، لقد وصلوا إلى ذروة الإيمان.

انتهى الطقس التعبدي وعدت لمضجعي، تناولت أوجاشو بين يدي، ثم قبّلته. وهو الذي يعجز عن حمل رأسه الكبير الذي حال دون أن يتعلّم النظر في أعين الشعب بتكبر كما تفعل الآلهة دائما، كان يبدو متواضعًا جدًا كرب، يخفض رأسه للجميع، ينحني أمام جميع عبيده المؤمنين، كان إلى ذلك الحين قد شيع عن رأسه خرافة جديدة، قيل أنّه يحمل كتابًا مقدّسًا جديدًا بداخله، بعض الناس قالوا إنّه يحمل أرواح الموتى بسجن بجوف رأسه، البعض قال أنّه يحمل طاقة كبيرة لقراءة الأفكار وإرسال الأحلام إلى الشعب عن طريق ذات الراس، أما البعض الآخر فراحوا يربطون بين أي ظاهرة طبيعية غريبة و رأسه الكبير، وهناك من اختصر الطريق وقال أنّ الربّ نفسه يعيش بداخله، وبمجرّد أن تتردّد إشاعة ما وتتكرّر في الشعب، يقدّسها وتصبح غير قابلة للنقد، وتصبح بذلك جزءًا من الدين.

من هذا الذي بمقدوره أن يكذّب إشاعة جديدة ترتدي فرو الدين الدافئ، الإشاعة الدينية تتحوّل مع وقت إلى خرافة عقليّة، وكل خرافة في هذا العالم الديني الفاسد يجب عليها التقديس، التي بأي خرافة لشعب الدين، لعبيد التماسيح، سيحتظنونها وينفخون فيها من جهلهم ثمّ يقدسونها للأبد، ثمّ يوّطرون أنفسهم فيها بمجموعة من الآلام تناسب حمايتها، ولكي لا تسوّل لهم أنفسهم بعدها ولا أي جيل بعدهم نقدها أو رفع لثام القداسة عنها.

لا شيء في الحياة بإمكانه إيقاف خرافة قد حان وقتها، الخرافة مثل السم، تنتشر في جسم الشعب وتضاعف نفسها والمّها ولا تنتهي إلاّ بموته. وفي حالة الخرافة فإنّ موت الجسد، ليس سوى موت وعي الأفراد بذواتهم لصالحها ولصالح السم الذي يقتلهم بإرادتهم.

انتشر خبر الخطاب الذي وعدت به الشعب، ووصل الخبر للسلطة أيضًا، جاء راهب طاعن في السن ومعه أربعة حرّاس يحرسونه، دخل غرفتي بعد أن استئذن ثم أوقد شمعة ووضعها أمامي وشمعة أخرى وأوقدها أمام صاحب الراس الكبير ثمّ قال لي بعد أن بجّلني وسبّح باسمي وباسم الطفل: ﴿تباركت وتباركت روح الرب التي تحرسينها، أحمل لك استفسارًا من القائد جاكوشا واستأذنك في قوله﴾

أجبته: ﴿تفضّل، واسرع فأنا أنتظر وحيًا جديدًا من الرب﴾

فقال: ﴿حسنًا جلالتك، جاكوشا يسألك عن سبب دعوتك للشعب لخطابك، وعن محتوى الخطاب﴾

فأجبته : ﴿لا شيء قد يضر المعبد، على العكس شيء ما سيزيد من تمكين أوجاشو في هذه الأرض، جمعتهم لأقيم لهم خطابًا دينيًا بما أوحى لي ربّ أوجاشو من خلاله ﴾

فسألني مجددًا : ﴿ولكن حول ماذا؟﴾ لقد كان مُصرًا ، يبدو أنّ المعلومات التي قدّمتها له لم تكفيه، كان يريد معلومات أكثر ليقدمها لجاكوشا، تنهد ثمّ أردف: ﴿ أقصد ما موضوع الخطاب بالتحديد﴾

أجبته: ﴿موضوعها ديني بحت، إنّها صلاة كبرى، سأتحدّث عن وجوب تقديس أوجاشو وتقديس جاكوشا﴾

سألني مجددًا: ﴿هل يمكنك أن تقدّمي لي المزيد من المعلومات؟﴾

أبديت الغضب على وجهي ثمّ أمسكته بقوّة من خديه وكأنّي أزرع أظافري فيهما: ﴿ما هو شعورك وأنت تتحدّث لآلهة أيّها الأحمق، هل تريد أن أقطّع لحمك قطعة قطعة وألقيها للطيور الكاسرة﴾ بلع الراهب ريقه ثمّ طلبت منه المغادرة بلكنة قوّية

فانصرف وقبل مغادرته بلحظة قلت له : ﴿في المرّة القادمة عندما تحمل لي رسالة من القائد لا تأتي بالحرّاس معك لأنّي سألقيكم جميعا للتماسيح المقدّسة﴾

كان يجب أن أتعامل معه بحزم لكي لا يشعر بخوفي فيشك في مكانتي، أنا مقدّسة، وعليه أن يتحدّث معي باحترام وخوف، ولكي يكون قدوة للآخرين في خوفي والإيمان بي، لقد تصرّفت كآلهة وكأي مقدّس آخر، فعندما يختفي خوف المؤمن تختفي أيضًا قداسة الآلهة، ولا يمكنني أن أسمح بحدوث هذا الآن، ليس قبل إسقاط المعبد

أيّام قليلة قبل الخطاب، أمر جاكوشا بتزيين ساحة المعبد وتحضير المصطبة، وأبدى تعاونه معي، في الحقيقة كانت تلك رسالة ثقة كان يريد من خلالها وضعي أمام المسؤولية لكي لا أتجاوز المحظور، المحظور الذي أبدًا لم يعدّه لي أحدٌ هنا، ولكنّي كنت أفهمه من خلال مكتسباتي اللاوعية وذاكرتي في سجن الدين هذا، الذي لم أعد أطيقه أو أتحمّله...

حضّرت نفسي جيّدًا، لأوّل خطوة في إلغاء الدين، في هذه الخطّة المخيفة، كنت أكلّم نفسي مطوّلاً، كنت متخوّفة من ردّة فعل غير متوقّعة لجاكوشا، فعلى الرغم من أنّي لم ألمح وجهه مرّة في حياتي، إلاّ أنّي كنت أتخيله مخيفًا جدًا، لقد كان الخوف يغلّف

اسمه المريب: مثلث الوجه بانحناءات كثيرة، وخدوش على جبهته كحروف قديمة، وهالات سوداء كبيرة تنتشر على وجهه، وبعض الخطوط السميكة على رقبته تشدها كأوتاد الخيم على باقي جسده القصير والنحيل، وكتفان صغيران ينتهيان بأذرع طويلة، ورجلان صغيراتان ليمشي على أصابع أقدامه المتّسخة، كنت أتخيّله يشدّ نفسه على نفسه ثم ينفجر إلى قطع حديد ساخن كشظايا اللهيب، أو إلى رائحة كريهة، ثمّ يتجمّع ثانية وينفث النار من فمه ويطير عاليًا بعد أن تخرج أجنحته من مؤخرته، ثم ينقسم إلى ثلاث أو أربع أو خمس، حسب حاجته، ولا أدري على الإطلاق لما كانت هذه التخيّلات التي كانت تتملّكني عنه تتطوّر كل يوم، وكلّما كنت أمرّ على فعل خطير ما، أو حادثة قتل ما، وكلّما تملّكني غضب حول تمساح ما، يتطوّر التخيّل إلى شيء أبشع مما كان عليه في البداية...

في الحقيقة كان كل المؤمنين والملحدين وغيرهم يتخيّلون جاكوشا على شكل ما، كانوا يرون فيه القبح والجمال في نفس الوقت، الخوف والإيمان، القداسة والكره، لم يكن إلاهًا، لم يكن أيضًا مقدّسا دينيًا، ولكنّه كان شيء أكثر قداسة من الجميع فقد كان يمتلك قوّة الأمر والنهي وكانت بيده سلطة العقاب الفوري وجميع تماسيح النهر، لقد كان في مكانة سياسيّة أهم من الرب

نفسه في هذه المنظومة وكان على الجميع أن يحترمه وأن يبجّله وأن لا يقترب أبدًا لما قد يمنعه أو يحرّمه، ولم يكن أحد بمقدوره أن يقاومه أو حتّى أن ينتقده. جاكوشا والرب كلاهما مقدّسان وكلاهما مخفيان وكلاهما قد نُسج عنه خيالات مختلفة في أوهام المؤمنين، ولكن بصراحة جاكوشا كان أعلى مكانة من غريمه وصديقه، فقد كان جاكوشا يتشبث بالرب في وضع كان فيه الرب ذاته في وضعية السقوط وكان جاكوشا هو المنقذ، ففي حين يبدو الرب دائما مشجبًا للسلطة إلاّ إنّه في الحقيقة لم يكن سوى كائنًا ضعيفًا يحتاج لحماية السلطة نفسها، فتحافظ عليه لكي تحافظ على سبب بقائها، الرب في الأسفل، السلطة في الأعلى، والشعب بينهما يرى الصورة بالمقلوب كونه يقف على رأسه...

اتّجهت قبيل الخطاب إلى حجرة الشيطان، حيث تمارس اللعنة والكراهية كل يوم على شخص عار تمامًا في نصف بلورة زجاجية لصيقة الحائط، وحيث يجلس الرهبان قبالاته وهم يلعنونه ويشتمونه. في الحقيقة هذا الرجل الذي سميّ شيطانًا، كان في بادئ الأمر راهبًا مخلصًا لنظام جاكوشا إلى أن اختفى عن الأنظار في أحد الأيّام، ثمّ ليعود ويحكي عن مدينة تقع بعد المنطقة المحرّمة العبور، وعن مامرة ما، راح يجوب بقاع النهر متخفيًا وهو ينادي بفكرته هذه، وفي الحقيقة، لم يكن يخلق

أوهامًا من لاشيء، عالمنا هذا تفصله حدود محرّمة التجاوز بالفعل، ولذلك نحن نعيش في عزلة داخلية ولا نعرف نهائيًا ما يحدث خارج هذه البقعة، بعضنا يدرك أنّ هناك امتداد جغرافي، بينما يظن أغلب المؤمنين أنّ هذا العالم ينتهي في تلك الحدود ثمّ يبدأ عالم الرب، وبعد أن عاد هذا الراهب قبض عليه جنود جاكوشا ومنذ ذلك الوقت، أضيف الشيطان إلى قاموسنا الديني، وقد لفّقت له حكاية غريبة، لقد قيل للجميع بأنّ الراهب لم يكن راهبًا يومًا بل كان شيطانًا متخفيًا في جسد رجل، وأنّه كان يخطّط لإغواء المؤمنين بالكفر، صدّقت المجاميع الدينية الظالة رواية جاكوشا، ومنذ ذلك اليوم وضع هذا الراهب في نصف بلورة زجاجية عاريًا تمامًا بعد أن تمّ شل قدماه، وفقع عيناه، ومد أنبوب غذاء إلى بلعومه وبعض الثقوب للتنفس ليبقى على قيد الحياة وسمّي الشيطان.

لقد كانت قصتّه تشبه إلى حد ما قصتنا أنا وصاحب الرأس الكبير، فنحن لأجل قصّة وهمية نسجناها باسم الدين قد غدونا آلهة، وأمّا هو لأجل قصّة أخرى ردّدها على مسامع المؤمنين نُسجت له شخصية الشيطان، وبين الآلهة والشيطان أوجه تشابه عديدة، فكلاهما نسجت عنه قصص وأوهام وأصبح الشعب عليقًا بينهما يرى فيهما كل على حدى تصوّرًا عن الآخر

المضاد، فاصبح الرب والشيطان واحد فتجسد في الإنسان فوُضع هذا الأخير في بلورة زجاجية ومنع من التعبير عن فكره وأعماقه إلى الأبد وسط لعنات المؤمنين.

فيما قد يشبه الرب شيطانه؟ في عيشه على وعي البشر ومخايله، فهذا الشيطان البشري الذي حبس في نصف بلّورة زجاجية لم يكن سوى ذبابةٌ قد أصدرت الكثير من الصوت إلى أن سقطت في شباك عنكبوت الرب، لتصطادها وتحبسها كدليل على وجود الشيطان، وسيكون دائمًا الدليل نفسه على وجود الرب، الصنم المتخيّل، ظل الخوف، وهم القداسة، الجهل بكل شيء فالإيمان بأي شيء، الذاكرة الغريبة للإنسان، والشخص الزائد دائمًا.

ذهبت لأوّل مرّة إلى مجلس لعنة الشيطان، بطلب من القائد جاكوشا، قبيل أن أقدم الخطاب، فقد كان في ايلاف جاكوشا دائمًا أن يقدّم رسائلاً مبطّنة لي حتّى لا يهدّدني باسلوب مباشر، اظنه كان يريدني أن أستشعر بنفسي صورتي مستقبلاً في حالة أن أردت أن أنقلب عليه أو أن أخلق ثورةً ما ضدّه، لقد كان يعلم خطورة الفكرة الدينية، فهي ليست أداة استعباد وسيطرة فقط، بل يمكنها أيضًا أن تكون أداة انفجار، أداة تدمير، أداة نسف، أداة قتل وأداة انقلاب، هناك عدّة أدوار يمكن للفكرة الدينية أن

تلعبها بداخل القطيع البشري، منها الإيجابي أيضا وفيها السلبي، وجاكوشا كان يعلم بكل هذا ولذلك كان يوفّر لي نفس العناية التي يوفرها لكل المقدّسات الأخرى ولكن معاملته كان تختلف شيئًا ما في نفس الوقت، فالعناية كانت تغلّفها الحراسة أيضًا فعلى عكس باقي المقدّسات فأنا مقدّس يتكلّم، مقدّس بلسانه، بوعيه وإدراكه، وبعقل بشريّ تام، كنت مقدّسًا مهدّدا لموضوع التقديس وهدفه وبالتالي احتضنني جاكوشا بخوف، خوف من أن يكبر المقدّس داخلي فأبتلعه ومعبده...

وكالعادة لم أرفض أي طلب من جاكوشا، دخلت مجلس اللعنة مع الرهبان وتأملته جيّدًا، تأمّلت تقاسيم وجه الشيطان، الإنسان في الحقيقة والكثير من المأساة، لم يكن غريبًا لتلك الدرجة، يداه كانتا مهشمتان مرمياتان كقماش رطب على قطعة خشب أو لا أدري ماهية ذلك الشيء وكأن يداه مسمّراتان عليها، ورجليه كانتا ملقيتان إلى اليسار، كان مندمجًا بشكل كلّي مع نفسه في حالة مزرية من الاستيقاظ، مقفل عيناه بشكل طوعي وإكراهي في نفس الوقت، إذ لا يرى شيئا ولو فتحهما بعد أن تمّ فقعهما وعروق بارزة على جبهته وكأنها جذور شجرة أحرقها الموت، يتصبب من محيّاه عرق الرب وشعبه في حالة من عقاب إذلالي عميق، وجسم نحيل تمّ دفنه في قطعة زجاج بعد أن يحمل دور الشيطان

رغمًا عنه إلى الأبد، لقد كان يبدو في قمّة ألمه وعذابه، إذ لم يتحرّك من تلك القوقعة التي وضع فيها منذ سنوات عدّة، لقد كان جسده العاري الذي بدأت بعض جهاته تتصبّغ بلون التحلّل والكدمات تجسّد معاناة الحقيقة..

آه، ولما لم يرمي الشيطان إلى التماسيح لأكله؟ ولكن حسب دين التماسيح فإنّ أكل التمساح للإنسان تشريف وليس عقاب، وبالتّالي فإن ألقى الشيطان للآلهة لأكله فهذا يعني أنّ الرب قد قبل به وبأفكاره، وهذا هو الاستنتاج الذي لم يكن يريده المعبد، ولذلك سُجن هذا الراهب المرتد في هذه البلورة الأبدية، وحُكم عليه بالسكون والموت وهو على قيد الحياة وجسده يقوم بكلّ وظائفه، من أكل وشرب وتبوّل وتغوّط في هذا السجن البلوري و بعدها يتم تنقية البلورة في بعض الأحيان والإستماع لصراخه للتمتع به كما يطلب الدين دائمًا من أتباعه، جلست مع الرهبان بعدما خصّصوا لي المكانة الأعلى وفتحت منافذ البلورة لإذن الشيطان وراح الرهبان يردّدون و يكرّرون نشيد اللعنة عليه ليتم تعذيبه نفسيًا ولكي يتمّ بذلك إحدى طقوس التقديس والعبادة الجديدة في عالم الفساد:

﴿لعنة الرب عليك يا شيطان، لعنة الرب عليك يا مزدري الحقيقة الدينية ويا منتقدها، لعنة الرب عليك يا كاذب و يا منافق

ويا مزدري ويا كافر، لعنة الرب أولوهو عليك، لعنة التماسيح عليك، يا غاوي ويا مغرور، يا شيطان الغرور، لعنة الرب عليك يا من تنكّرت للحقيقة ورحت تجوب الكذب في أبناء النهر، يا من لعنك رب السماء واحتقرك، لعنة الرب عليك في عذابك والملك، وقد اصطادك جنود الرب وعذّبوك بما يليق بلعنتك، اللعنة عليك في السماء والأرض، وفي بطن التمساح وفي أنيابه، يلعنك من في الأرض جميعًا وإلى الأبد، فلتتعذّب جسديًا ونفسيًا وروحيًا لتتمنى الموت فلا تموت وتشتاق الحياة ولا تعيش، تعذّب يا شيطان، وهذا انتقام المؤمنين، لعنة الرب عليك يا قذر، لعنة الرب عليك يا وسخ، لعنة الرب عليك يا رسول الموت والرذيلة، يا ناشر الكذب ويا محارب الفضيلة الدينية، تعذّب واسمع شعب التمساح يلعنك، خسئت ومُسخت، لا اله إلاّ الصنم يلعنك ويخزيك، لا إله إلاّ الصنم المتخيّل يعذّبك ويدميك، لعنة الرب عليك، تعذّب، تألّم، تمزّق، أشعر بالألم في قلبك وفي كل مكان يا شيطان يا رجيم﴾

كنت أستمع للمناتهم المتكرّرة تلك التي كانت تتساقط على مسامع ذلك الشيطان المسكين بكل روتينية كل يوم، وكان من سوء حظّي أن أستمع لها و أردّدها معهم بكل احتقار له، ومشكلتي الأكبر أنّي كنت أعلم أنّه كان إنسانًا لا شيطانًا على الإطلاق، بل كان راهبًا ومن أشدّ الناس إيمانا بالمعبد ودينه إلى أن عاد

من رحلته من عالم الرب ليتفوه بما رآه فاستنتج الجميع أنّه كان الشيطان بلا منازع.

سألت نفسي عن شعوره وهو يُلعن بتلك الطريقة المتكرّرة والصاخبة بعد حجم رهيب من العذاب المتواصل من طرف أناس حاول إنقاذهم من شيء ما على أقل تقدير، حاول أن يعبّر عمّا يرى فيه الحقيقة لتغيير ما يراه كذبًا وبهتانًا، كيف يمكن للإنسان أو حتى الشيطان أن يتحمّل طعنة الظهر ممن كان يريد أن ينقذهم من طماناتهم اليومية لأنفسهم، وفي الحقيقة لم أكن أعرف القصّة كاملة عن العالم الذي يسمّى عالم الرب ولا عن أرض الرب الموجودة خلف الحدود المحرّمة دينيًا، ولكنّي كنت أعلم أنّ هذا الشيطان قد قال شيئًا ما قد أثار حفيظة جاكوشا وخوفه وهذه اللعنة الجنونية كانت الثمن الذي دفعه...

لقد دفع الشيطان ثمن غباء المؤمنين وتمسّكهم بتقاليدهم ذات المنشأ الديني، وجمود أفكارهم الغير قابلة لأي دراسة أو نقد أو تمحيص، لم يكلّف أحد من عناء الإستماع له، أصيب باللعنة بعدها، وهاهو ذا في ذلك العذاب المرير طيلة سنوات، عذاب جسدي ولفظي ونفسي، لأجل انتقاد ما للمعبد قد حرّم عليه حتّى أن يقدّم حججه وبراهينه فحُكم عليه أن يكون شيطانًا إلى الأبد بدلاً عن ذلك في قمّة التلاعب بعقول العوام، في قمّة الإزدراء

للإنسان والشيطان معًا، مع أنّ الأمر كان واضحًا وضوح الشمس، انّ الإله لم يكن إلاّ إنسانًا والشيطان لم يكن إلاّ إنسانًا أيضًا، الإنسان هو كل شيئ ومنه القداسة واللعنة، وإن كانت القداسة هي الخوف فاللعنة هي تكريسه وبل هما وجهان لنفس الرب، الرب اللاعن والمُقَدّس، المحب والكاره، الحنون والحاقد، الرب المتضاد في ذاته ولأجل ذاته.. المقدّس المخيف واللاعن المخيف، أو ليست القداسة لعنة أخرى كذلك؟ أو ليست اللعنة مقدّسة هي الأخرى؟ ماذا لو انتقد أحد ما لعنة الشيطان؟ ألن يقع به ما كان ليقع به لو أنّه انتقد قداسة الرب؟

إنّ منع الأفكار الجديدة من دخول معترك الفكر بأريحيّة في عالمنا الديني الفاسد كان ممنهجًا وموجّهًا ولم يكن لجاكوشا أبدًا أن يقبل بخلق أي حركة فكريّة أو شك طفيف في وعي هذا الشعب، كان من المهم إيقاف أي إرادة نحو الإنعتاق من ملامح الدين والسلطة ولو كان حالة فرديّة ، فالشيطان لم يكن يبدو أنّه بالفعل بذلك السوء الذي يستحق بسببه تلك اللعنة الأبديّة، على العكس تمامًا أشفقت عليه بدرجة كبيرة وهو بأن داخل تلك القوقعة البلورية دون حركة أو حديث دون أن يرى شيئا أو أن يتحسس أو يتذوّق شيئا طيلة سنوات، الحاسة الوحيدة التي بإمكانه القيام بها هي الاستماع للعنات المترددة على مسامعه

من الأثلك الذين حاول يومًا إنقاذهم من شيء ما وحده من يعلم حقيقته، وحده من يعرفه وبدأ الأمر يغريني أنا كذلك لمعرفته...

بعد جلسة لعنة الشيطان، راح الرهبان يتسالمون فرحًا باليوم المبارك ثمّ توجّهو إلى البلورة وبصقوا على الشيطان، في حين امتنعت أنا عن ذلك، لم يكن بمقدوري أن أبصق على الإنسان...

بعد أن فرغت من لعنة الشيطان البشري، اتّجهت نحو موعدي مع الشعب لإلقاء الخطاب المنتظر، وقد حملت في جوفي مشاعرًا مختلطة من الكراهية والخوف ومن التذمّر وحب الإنتقام، سكنني اشتياق كبير لرؤية ذلك المعبد يسقط حجرًا حجرًا ويهوى على رؤوس رجال الدين الأشرار، لقد اشتقت بالفعل لذلك اليوم الذي ستحرق فيه أوراق الكتاب المقدّس ودينه ليعود كل شيء للشعب من جديد وللضعفاء ولتنجلي غيمة الغباء المبجّلة،المغلّفة بقداسة السلطة الحاكمة،هذه الأخيرة التي هي مصدر كلّ الشرور...

نفخ في البوق وفتحت البوّابة وهبّت ريح نُسَيميّة على وشاحي فارتفع في السماء وراحت الجماهير تصرخ مبجّلة ومقدّسة لي وهي تحيّني باستعمال أوراق القصب كالعادة، ركبت منبري بعد أن تركت صاحب الرأس الكبير لدى بيترام، حيّيتهم كما حيّوني ورحت أخاطبهم بحماس وقوّة وقيادة وكأنّي غدوت زعيمة هذا المعبد بدلاً عن جاكوشا الشرّير، استجمعت أنفاسي وأنا أبتسم

متأمّلةً الحمير الهائمة، متأمّلةً القردة الضاحكة، أشاهد ضحايا الدين هؤلاء، ضحايا خيالهم العبودي، وكان يجمعهم شيء واحد، المسارعة للغباء، وجوه ممحيّة وزاد ضياء الشمس محوها، وسائل مخاطي كان ينزل من أنوفهم ليربط السماء بعقولهم، كانوا ممحيّن لدرجة التكرار، إعادة المحو المرسوم في كل شخص في الشخص الذي أمامه، يشبهون بعضهم في الإيمان والسماء، لا شيء فيهم كان مختلفًا عن الآخر، سذّج لا روح فيهم ولا عقل، مجرّد جثث على قارعة المعبد تنتظره لينفث فيها بعض الطاقة الدينية للحياة، وكذلك للموت، أجساد خاوية وفارغة من كل شيء إلاّ من الإيمان التوارثي الأحمق...

وبعد تحيّة تبجيليّة دينيّة مرضيّة مزرية، صرخت فيهم لكي يلتزموا الصمت كالحجر الذي يعبدونه في خيالهم وكالوتر الذي يُعزف على خشوعهم: ﴿يا عبيدي المذلولون، تبارك ذلّكم وخشوعكم، تبارك عذابكم لأجلي ولأجل صاحب الرأس الكبير، قدّسكم الرب، الصنم الأكبر، الخوف الأكبر، الخيال الأكبر، التمساح الأكبر، المقدّس الأكبر، تباركتم يا شعب النهر العظيم، يا شعب الذل والهوان﴾ راحت الجماهير تهتف بقوّة فرحةً بذلّها وهوانها ثمّ سكتت فجأة وهي تنتظر ما قد خبأته عنها هذه الحارسة الإلاهية الموقّرة المجسّدة في ذاتي، رفعت يدي اليمنى

وخاطبتهم: ﴿ربّما تتساءلون عن سبب وجودكم هنا اليوم، إنّها بشرى يا عبيدي، إنّها بشرى لكلّ مؤمن خاشع، يا شعبي ، يا شعب النهر والتمساح، إنّه عصر جديدٌ قادم من أسفل خط الشمس إلى علياء النجوم، إنّه فجر الدين الجديد، دين التمساح المبارك، لقد بشّركم الرب اليوم بعصر جديد من التديّن، نموذج جديد للرب، الرب لم يعد كما كان، لقد تغيّر، أصبح يراكم بطريقة مختلفة، طريقة أفضل، لم تعودوا عبيدًا كما كنتم، الرب يريدكم أحـرارًا﴾

لم يهتفوا هذه المرّة امتلكتهم الدهشة والخوف، أيعقل أن يتغيّر الرب؟ أن يتغيّر هذا المارد القاتل؟ أن يتغيّر ولكن إلى ماذا؟ إلى لعبة صغيرة في يد الشعب وهو اللعبة الكبيرة في يد جاكوشا؟ كيف له أن يتغيّر بمحض إرادته ماذا حدث معه؟ هل يعقل هذا؟... أسئلة كثيرة كانت تخرج من حيرة وجوههم حول ذاتية الرب ومدى قدرته، هل بإمكانهم أن يشكّو للحظة واحدة بكون الرب كامل الإرادة، وإن أراد سحب دينه أو الوهيته، أو حتّى أن يطوي نفسه كالكتاب ثمّ يختفي إلى الأبد، ولكنّه لطالما كان يبدو متشدّدًا في آرائه، متشبّثًا فيها بأنيابه الكبيرة، كيف له أن يتساهل الآن مع أوامره السابقة، لما عليه هذا؟ شكل وجوههم كان يوحي بانقلاب كل شيء، جدل لم يفتح أبدًا، سؤال لم يفتح أبدًا، هل بإمكان الرب أن يغيّر رأيه ولو شيئًا صغيرًا؟

قرأت على وجوههم غضبًا ممزوجًا بالحيرة، خوفًا ممزوجًا بالتفريط في ماضي متواصل من الإيمان والتقديس، كنت أرى فيهم فضولاً كبير لمعرفة هذا النموذج الجديد للرب، كيف سيكون يا ترى؟ ألم يعد وحشًا مخيفًا كما كان؟

تملّك الرهبان فزع كبير تجلّى على محياهم الأصفر وطغيان ربّهم الأكبر، هدوء كان يجول القلعة كعاصفة مرتدّة، عاصفة كافرة، كان عليّ أن أهزم الصمت قبل ان ينفجر إلى غضب، لم أتركهم في عذابهم ذاك واصلت خطابي: ﴿يا شعب الدين،إن الرب يوحي لي من خلال أوجاشو،يقول لي كلمته من خلال تخاطر الأحلام مع روحه في هذا الجسد الرضيع المقدّس، لينشد فيكم وجهًا آخر للدين وللإيمان وبعد هذه الأجيال المتواصلة من الصلاة والتذلّل لوجهه الجليل، اختار هذا الرضيع ليكون جسرًا بينه وبينكم، ليأتي إليكم على أقدام حافية، وليطرق على قلوبكم بيديه،لتفتحوا عقولكم للتطوّر الفكري في الدين، لقد أتى ويأتي كفتى يبحث عن حبيبته الأولى، الكلمة مفتاحكم، الفكرة انتصاركم، إنّه يوحي بصورته وصوته في مخيّلتي وأحلامي ومن هذا الرأس الكبير المقدّس الذي تقدّسونه فيقول لي في أحلامي ما يود قوله لكم، على لساني، لسان الحارسة، الراهبة المعجزة، يحيّكم من السماء عاليًا وهو يشكركم على تضحيّاتكم البشريّة

المتواصلة التي تقدّمونها له كلّ يوم تلك اللحوم البشريّة التي أضفت على جمال النعيم رونقها، إنكم أنتم المضحّون أنتم عماد السماء، يهمس لكم فيقول أنّكم قد وصلتم في درجة إخلاصكم له إلى الذروة ولذلك هو يريد أن يجازيكم على حسن إيمانكم بالإنقاص عليكم بعض الفرائض الدينيّة، لعلّكم تشكرون، فيلين قلبكم فتعيشون﴾ في تلك اللحظة وقف إحدى الرهبان الكبار وتاملّني بغضب وكأنّه يحاول نهي عن المواصلة وكأنّه قد نسى أنّي حارسة الإله الآن ومقمّصة لدرجة أن أقول ما شئت وأن اعبّر عن أرائي وما أريده كما أشاء دون أي إملاء فاشرت له بيدي آمرةً بأن يجلس فشدّ وشاحه وجلس بعد أن بدى عليه الإضطراب ثمّ واصلت خطابي: ﴿ ولأجل هذا جمعتكم اليوم، لأنّ رضا الرب عليكم قد بلغ سقفه وإن واصلتم هذا فيكون واجبًا عليه أن يوقف الحياة وأن يعلن القيامة ولكون اليوم لم يحن بعد، فقد قرّر الرب على لسان أوجاشو وفي أحلامي أن ينقص عليكم من شدّة الدين رحمةً بكم، ومنه كان أوّل فرض قد قرّر إلغائه هو عيد طحن الأطفال بقرية باراجوكا، كما ينهاكم بشكل نهائي ومطلق عن رمي الأطفال للتماسيح، فلم يعد هذا القربان مقبول في ملكوته ولم يعد واجباً عليكم رمي أبنائكم أو التضحية بهم فيقول الرب هذه الكلمة المباشرة التي أوصاني أن أبلغها لكم: يا شعب التمساح، قد حرّمت عليكم رمي بنيكم للنهر، كما حرّمت

عليكم طحنهم أو التنكيل بهم، من اليوم قد وصلت قرابينكم ذروة الإيمان، فلا تزيدها فتلحق بكم الحاقة، إن الرب أعلم بكم وأدرى وأنّه هو الصنم الأكبر﴾ طغى صوتهم المتعجّب في تلك اللحظة على خشوعهم، كان عليّ أن أقاطع تعجبهم: ﴿يا أيّها الشعب الذليل، لقد تعوّد الرب على قبولكم أوامره بكل تعبّد وخشوع وتذلّل، وعليكم اليوم الامتثال لصوته الحكيم، فالتمساح الأكبر أذكى الأذكياء وأعلم العلماء ولا أحد فينا أدرى بما هو خير لنا منه، الرب كامل الإرادة وله سلطة الأمر إن أراد أن يفرض وإن أراد أن يلغي، فهو مطلق الفعل، لا يحرمه عمّا يشاء شيئًا ولا يمنعه عن رأيه شيئا وهو مطلق الأمر ومطلق القبول،فما شاء يقدّسه وما شاء يلعنه وماشاء يفرضه وما شاء يلغيه، وما عليكم الأ خفض رؤوسكم والتذلّل له دائما، فلا عجب إن سحب الرب أحد أوامره، فكما يسحب الروح،ويسحب الحياة ويسحب الموت، ليس بالصعب عليه أن يسحب أوامره أو نواهيه فقدّسوا ربكم الذي خلقكم من ضلع التمساح ولا تجادلوه فيما قد يخفى عنكم وانثروا انفسكم أمام أوامره الجديدة واسجدوا﴾ ساد صمت رهيب في تلك الجماهير المغيبة التي تراوحت بين مشاعرها بين التصديق الأعمى والدهشة، لم يفهم فيهم أحدٌ شيئًا على الإطلاق، الرب ؟ الرب الكبير؟ غيّر رأيه؟ يريدنا أحرارًا؟ أيعقل هذا؟

انتشرت الحيرة في علياء إيمانهم، وانتبذ فيهم الشك مقعداً له لأوّل مرّة بعد أجيال من ظلام الإقتناع ووهم الحقيقة: كيف تمكّن هذا الرب الذي لطالما أكلنا من أن ينقص من جوعه للحومنا؟ وكيف له أن يترك لحوم أطفالنا الطريّة بهذه السهولة؟ ألم تكن تلك الأضحيات الصغيرة والضعيفة والبريئة المفضّلة لديه على الإطلاق؟...

صرخت فيهم مجدّداً : ﴿يا أيُّها المحيون بالإيمان الأعمى قدّسوا ربكم التمساح﴾ فاستفاقت الجماهير حينها من غفوتها وراحت تصرخ في هتاف عال :﴿تقدّست يا تمساح لا إله الآ الصنم، لا اله الآ الصنم المتخيّل، الذي نرسمه في خيالنا كما نشاء، ويرسم حياتنا كما يشاء﴾ وعندما سمعت تهليلاتهم وتبجيلهم للصنم فهمت أنّ الخطّة بدأت تجني ثمارها، وحينها فهمت أيضًا أنّني قد استطعت إقناعهم بالتخلّص من تلك المادة الهمجية وأنّ خطّتي قد نجحت، لقد نجحت أوّل خطوة لي إلغاء الدين، في إلغاء هذه السيطرة المغلّفة بالإيمان الأعمى، باستعمال نفس الإيمان الأعمى، يا له من إنجاز عظيم، لقد استخدمت إيمانهم ضدّ إيمانهم مجدّداً وأقنعتهم في التخلّص من هذا الطقس الإجرامي المقدّس، كم هو رائعٌ ذلك الشعور عندما تشعر بأنّك قد انقذت أجيالاً عديدة في المستقبل من عضّة التمساح، لن يقتل

طفلٌ مجدّدًا، لن يرمي بريء إلى أنياب الدين مجدّدًا، سيعيش الأطفال أحرارًا ولن يكبّلهم أحدٌ بأساور المقدّسات مجدّدًا...

واصلت خطابي بعدها عن الإيمان والدين والسماء والتمساح والرب أولوهو، لم يكن ما قلته بعدها سوى وسيلة لسدّ فجوات اللغة وكنت حينها قد قطعت شوطًا هامًا في برنامجي لتغيير وجهة الدين، من الدين القاتل المتحكم إلى الدين الرحيم والمحب ومن ثمّ إلغائه كليًا بإبراز حريّة الفرد، ليصبح عقل الإنسان هو الإله الوحيد، فما الإله سوى الأمر، وعندما يصبح العقل الآمر الوحيد، يختفي ذلك الإله.

بعد أن انتهى الخطاب، خرجت الجماهير محتارةً، فهمت كل شيء ولم تفهم أي شيء، الرب يغيّر رأيه؟ القيامة دنت لنا لأننا وصلنا ذروة الإيمان؟ / هل يعقل أنّنا وصلنا إلى تحقيق رضا الرب المطلق؟ هل رضي الرب عنّا بعد كل هذا العناء؟

لم يفهم أحد إن كان الشعب حتمًا قد وصل لقمّة العطاء للدين فكل ما كان يدفع الشعب نحو عطائهم الديني ذاك هو ذلك الشعور بنقصان العطاء، نقص الإيمان، نقص التضحيّة، نقص العبادات، لقد كان جوع الرب هو الدافع الرئيسي لكل أنواع القربان، لقد كان هذا الشعور الجماعي بعدم وصول إيمان الشعب إلى الذروة ما يجعل الشعب يبحث عن الإيمان، وصول الرب لحالة

من الشبع ووصول الإيمان الديني إلى ذروته فهذا يعني عدم وجود أي دافع للتعصب والتطرّف للدين أو التشدّد، فلما المزيد من العبادات والأضحيات؟ فالرب يبدو أنّه قد سئم منها، لقد سئم من الإيمان المفرط وقرّر بنفسه أن يلغي بعضًا من أوامره، كنت أشاهدهم وخليط من شعور الحيرة والإمتعاض والسعادة أيضا يرتسم على وجوههم التي قتلها الإيمان، بعض النسوة رحن يرطمن وجوههن بشكل مرضي لعدم تمكنهن مستقبلاً من إلقاء أبنائهم للتماسيح خاصة مع زيادة الفقر، بينما البعض الآخر كان يضحك فرحًا برضى الرب...

خرجت سعيدةً بإنجازي الذي حقّقته، في حين كان التذمّر يوقد ناره على وجوه معظم الرهبان، فتحرير الطفل هو قتل مباشر للدين وسلطته، وكنت أتوقّع ردّة فعل قوية من طرف جاكوشا، فما قمت به سيخلق جيلاً لا يخشى التمساح، جيل لن يخاف هذا الوحش الديني الكبير وسيتجاوزه حتمًا، كما أنّه لن يحفر فيه منذ صباه ممّا سيجعله قادرًا على محيه ومحو ألمه مستقبلاً، ونقد سراب المتعة الوهمية تلك التي تغلّفه، ووجود جيل كهذا سيخلق شجاعة في تغيير نمط الحكم وسينقص حتمًا من العصبية الدينية للمعبد وسينقص بالتأكيد من هيبة جاكوشا فيه بعد ذلك، فالخوف هو البذرة التي زرعتها السلطة في هذا الشعب

للسيطرة عليه، وخلق جيل بلا خوف سيشكل حتمًا تهديدًا لبقاء المنظومة الحاكمة، كنت متأكّدة أنّ جاكوشا سيفكّر في طريقة ما للالتواء على قرار الرب مستقبلاً، لمنع تكوّن أي جيل مستقل عن التمساح وعضّته...

عدت إلى مضجعي بعد أن زلزلت المعبد، وأحدثت ثغراً في أسفل سفينة الرب تلك لأتركها تغرق في هدوء، كان المعبد ثائرًا في صمت دون أن تصدر منه أي إدانة لي، بينما أنا فقد لازمت سريري وغرقت في نوم جميل وهادئ كطفلة صغيرة، لقد شعرت حينها أنّي زرعت أوّل سكاكيني في جسد هذا الوحش الكبير، لقد انتقمت لأوّل مرّة لحقل القمح بداخلي، انتقمت لألجا، لقلادة أمّي، لقد انتقمت وكان ذلك الشعور وحده كفيلاً بأن يمحي كل فصول العذاب والألم الديني الذي عشته قبل ذلك...

إذ لا أنكر أنّي لطالما كنت حاقدةً على الدين، وقد زاد حقدي عليه يوم حاول حرقي، سأحرقه سأفعل هذا وأنا في قمّة النشوة والسعادة...

أيّامًا بعد الخطاب قرّر المعبد إطلاق أسراب من طيور الببغاء على جميع قرى ومدن النهر للتصنّت على الشعب، كان عليه دراسة ردّة فعل الشعب لإيجاد حلول بديلة لزراعة بذرة الدين في الأطفال وفي نفس الوقت كان على الشعب أن يشعر

بأنّه مراقب بعد هذا التغيير المفاجئ في نمطه الإيماني، خاصةً وأنّي زرعت صورةً جديدة لرب أكثر انفتاحًا عن الرب الأوّل، فكان على السلطة أن تسد فراغ الخوف ذلك بخوف آخر، فزادت من قسوتها ورقابتها على الشعب حتّى لا يستسيغ حريّته الدينيّة فينعتق من قيوده، فيعتنق الحريّة دينًا جديدًا له، فيثور بذلك على السلطة الحاكمة وعلى جاكوشا...

بإطلاق البيغاءات في ربوع وطن الخوف والدين، كان جاكوشا قد وضّح للشعب بكون الرب الذي تغيّر هو الرب المتخيّل أمّا الرب السياسي فليزال بقوّته الردعية ولن يسمح لأحد بأن يثور على جبروته، وفهم الشعب الرسالة جيّدًا، والمشكلة أنّ الشعب لم يغيّر أصلاً في تصرفاته لا مع الرب ولا مع جاكوشا، ولم يكن الأمر ظرفيًا في حاجة فعلاً لتلك البيغاءات ، ولكن جاكوشا أطلقها تحسّبًا لأي انفلات، والغريب في كل هذا أنّه لم يعلّق نهائيًا على تصرّفي، بل تركني أواصل فيما بدأته بكل حريّة، أظن أنّه كان في حاجة ماسة لي، في حاجة لإثبات شرعيته في البقاء في وجه المعارضين، وألوهيتي الآن جزء من سلطته، لقد وقع في فخّي، وعليه الآن أن يتعايش مع تصرّفاتي التي قد تخيّل له على أنّها تصرّفات صبيانية لامرأة تريد فقط أن تشعر بألوهيتها، فأنا ومن خلال تجاوبي مع من حولي لم أكن أبدًا أبدو في ذلك

الذكاء السياسي الذي يجعلني أصمّم خطّة محكمة كهذه لارباك جاكوشا...

في معبدي احتفلنا أنا وبيترام بتنفيذ أوّل خطوة تثبيت براثين خطّتي لأجل تدمير سلطة جاكوشا الدينيّة. احتفلنا بإنقاذ الأطفال الأبرياء من تماسيح الدين الملتهمة. شربنا الخمر إلى أن ثملنا وضحكنا إلى أن تعبنا، وصوتنا كان يخرج من بوق معبدي إلى الخارج ممّا يجعل ضحكاتنا تبدو كصراخ تنين كبير. وهذا الذي دفع بالمارين إلى السجود والركوع لما كانوا يظنّونه معجزة الإلهية. تأملناهم أنا وبيترام من عين التمساح التي في الباب ورأيناهم يسجدون ويبتهلون، فرحنا نضحك ونصرخ لنزيدهم دهشة، وكان الصوت الخارج من البوق يدفع مخيالهم الديني إلى تفسيره بالمعجزة كالعادة...

يا لهم من شعب ساذج، غبي، يربط كل شيء بمسلّماته الدينيّة. إذ لا تستطيع عقولهم أن تفكّر باستقلالية عن الدين. كل شيء مرتبط بذلك المخيال الديني والعاطفي، أمّا العقل ففي مكان ما أسفل كل هذا الغباء، فالتمساح الذي في السماء أكل عقولهم منذ مدّة طويلة ومضغها حدّ التلف، لا يمكن أبدًا إصلاح هذه العقول الممضوغة، الأمل في الجيل الجديد، الأمل في الأطفال، عليّ أن أساهم في صناعة جيل جديد لديه كامل

الحريّة في استخدام عقله، جيل لا يمكن لأي تمساح في العالم أن يأكل عقله، جيل يتخطّى حاجز الخوف ويمحي البعبع المتواصل في الأجيال، جيل حرٌّ من كل شيء حتى من السلطة الحاكمة، لألوي يد هذا المعبد المتسلّط للأبد، وليعود الإنسان لإنسانيته وعقله من جديد...

ولكن صمت جاكوشا كان يخيفني، وبالرغم من أنّي لازلت أحمل أوجاشو بين يدي إلاّ أنّي بت أخشى أن افقده في أي لحظة أخشى عليه من أي مكروه قد يصيبه انتقامًا من تصرّفاتي ضدّ سطوة المعبد وجبروت جاكوشا.

ولكن كان عليّ أن أواصل كذلك، لم يكن بيدي أن أفعل هذا، القدر اختارني لأشتت وجهة الدين، لأجزّئه لأجزاء صغيرة يوم اختارني لأنقذ روح صاحب الرأس الكبير هذا، يوم أنقذني من الصلب والحرق ويوم اختفت الشمس خلف القمر، بشكل أو بآخر فقد كان الأمر معجزة حقًا، ليس لذلك التأويل الديني المتعجرف والغبي، بل لتلك الظاهرة الطبيعيّة التي أتت صدفة لتقلب هذا العالم الفاسد رأسًا على عقب ولتدخلني في جوف الدين لأغيّره من الداخل ومن أعلى ربّه إلى أخمص المؤمنين.

وأنا استحم، استأذنني أحد الحرّاس ثم أخبرني أنّ راهبًا ما أراد أن يتحدث معي، طلبت منه إدخاله، ارتديت رداءً خفيفًا

وخرجت من الحوض حافية، مشطت شعري قليلاً ثمّ خرجت للقائه، لم أكن أنتظره هو بالتحديد، لم أستطع حتّى أن أتخيّل قدومه، أنّه بيشان، ذلك الخائن الذي حاول حرقي، تأمّلته بغضب وقلت له: ﴿ماذا تريد منّي؟ ألم يكفك كل ما فعلته؟﴾

ردّ هو بتوتر وارتباك: ﴿أنا هنا ألجا لأجلك لقد اشتقت لك، سامحيني أرجوك حبيبتي﴾

أجبته وأنا في قمّة الإنفعال: ﴿حبيبتك؟ بل الهتك يا أيّها الوغد﴾

خرّ ساجدًا لي ثمّ رفع رأسه باكيًا وهو يطلب الغفران: ﴿أرجوك سامحيني، لم أرمي قلادة أمّك في البئر بإرادتي وأنا صغير، بل الراهب هو من فعل ذلك﴾

أجبته: ﴿ أصمت، ومن أراد حرقي؟ ألم تشي بي للمعبد؟ فصلبت بعدها وعذّبت عذابًا نكرًا وكنت تتأمّلني بابتسامة خبيثة﴾

ردّ مترجيًا: ﴿لم أكن أريد حرقك، بل أردت أن أحرق حبّك، كنت أتخيّل أنّي سأستطيع العيش بحريّة من تأنيب الضمير بعدك، نعم أردت أن أحرق كل ما قد يذكّرني بك حتّى جسدك، إنّي أحبّك ألجا، ألجا سامحيني أرجوك، افعلي ما تشائين بي، أحرقيني إن شئت، اقتليني ولكنّي لا أستطيع العيش بعد كلّ هذا العذاب...

تأمّلته جيّدًا في لحظات ترجّيه تلك، ثمّ سألت نفسي ما أريد أن أفعل به الآن؟ هل سأقتله؟ هل سأحرقه؟ لاحظت الصدق في عينيه، ولاحظت شهوةً تريد أن تخرج منّي لتغتصبه جسديًا، لقد كنت في حاجة ماسة لمغامرة جنسيّة، جسدي الربوبي هذا أراد أن يتجاوز غضبه وانكساراته وكلّ الضجيج الذي احتواه القدر فيه، لم يكن بمقدوري أن أقاوم شهوتي، لقد انتابتني على حين غرّة منّي، وقذفت وجهي المحطّم إلى أبعد نقطة في النسيان وانغمرت في رغبة قاتلة لتجريب جسده...

أكره بيشان بحجم ما أنا أشتهاه الآن،أحقد عليه بحجم ما أريد جسده، لقد عزمت أن أقتله ولكن شهوتي حالت دون ذلك، اختار جسدي أن يعانقه، وأن يختفي فيه، كما تختفي الأحقاد، الجنس يغسل الشر، الشهوة تتجاوز الإنتقام، الجسد لا يهبأ للذكريات، جسدي يريد إلتهام هذا الراهب المتدين ليغسله من ذنوب الإيمان.

خلعت ردائي الخفيف وسقط على الأرض كما تسقط الذنوب، كما يسقط الرب، ناديته بصوت أقرب للوحي منه للصوت: ﴿بيشان، أحْرقني الآن، صبّ فيّا نيرانك، أريدك﴾

رفع رأسه رويدًا رويدًا، متحسّسًا أقدامي ففخذي بأطراف أصابعه، وضع يداه خلفي، ثمّ عانق بطني بقوّة وهو يشتمّني،

ساعدته على الوقوف، ثمّ خلعت ردائه ووشاحه وأخذني هو في حضنه بقوّة ونحن عاريان تمامًا، قلت له في تلك اللحظة الشهويّة:
﴿بيشان، أعبد الهتك﴾

قال هو بصوت شهوي تتملّكه شهقات الأطفال بعد البكاء:
﴿لا إله إلاّ انت﴾

ارتعد جسدي بالكامل، زلازل شهوية دخلت كل زوايا بركاني الداخلي، استوطنت رائحته فصوص جسدي، لأوّل مرّة أمارس الجنس في حياتي، وضع بصماته في كل أجزائي واندمجنا في رحلة من السكون والصراخ...

سقطت قلادتي في البئر، كانت تغرق رويداً رويدًا، كما تخرج الروح من الجسد، أخذت معها ذكريات أمّي ورائحة خبزها، واصفّر حقل القمح لأول مرّة في حياتي، تجاوزت حبّات القمح شمسها، وثارت بداخلي وأنا أبكي في شهوته، أمّي لا تفلتي أصابعي، لا تتركي وحش الدين يبتلعني فيه، غمرني بحقده، ببكائه، بحزنه، بسعادته وشهوته، وبقلادتي، قلادتي التي غرقت في ذلك البئر المظلم، الظالم، خطفها مني وجرى نحو تلك الحفرة السوداء، ألقى بداخلها تهيداته وضحكاته الصبيانية والذكورية وفرّ بعيداً في شهوته، دخلت قلادتي طور التلاشي شيئا فشيئًا، كان الماء يحرّكها فيه، يأخذها إلى الأعلى ثمّ يعيدها إلى الأسفل،

عندما وصلت لقاع البئر، دوّت بصوتها الحاد، تسمّرت في مكانها واختفت للأبد، تأمّلتها من فوهة البئر وامتزجت دموعي مع مائه عندما كانت تسقط فيه، ووصلت إلى ذروة الشهوة في صدره، تهدّت وكأنّي أصارع الثيران، وقد أدخلت بيا إحداها قرنها بقوّة، خسرت عذريتي مع من أراد حرقي يومًا ما، جعلته يحرق ذاكرتي فيه، جعلته يحرق ذاكرته، وفي حين لم يكن بمقدوري أن أسامحه، سامحه جسدي، سامحته شهوتي، لقد كانت عمياءً لدرجة أنّها لم ترى وجه بيشان فيه، لقد رأت فيه الرجل، رأت صدره، ورجليه، ويداه الجميلاتان، رأت فيه عريه التام، لقد استعملته جنسيًا، لأني كأي أنثى، كأي إنسان، كنت في حاجة لقليل من هذا الضعف ومن هذه القوّة...

لن آبه لقلادة أمّي بعد الآن، انتقمت لها عندما جعلت هذا الشعب يؤمن بمعجزتي وحين نفّذت أوّل خططي في إلقاء الدين، كما أنّ أمّي لم تأبه بي فعلاً، لم تبحث عنّي، لم تحاول يومًا إنقاذي من فكي التمساح الكبير، لقد آمنت به، وتركتني أتحوّل لراهبة في المعبد الكبير، أمّي كانت أوّل من حرقني، ولأوّل مرّة أرى أمّي بأنياب تمساح هي الأخرى، بنفس جلده الخشن وعضّته المميتة ، مؤمنةبالصنم المخيّل هي أيضًا مثل الجميع، مجرّد ممحيّة هي الأخرى، مجرّد تمساح، عندما بكت وجرت ورائي، كانت تحاول

أن ترسم في ذهني عصفورًا صغيرًا، صورة لأم لا تريد أن تترك بنتها تخطف منها، ولكنّها تركتني، استسلمت للراهب ثم جرت وراء القارب، منحتني قلادتها، ولكنّها لم تمنحني حرّيتي، قدّمتني في اليوم المنتظر وقد خطّطت هي الأخرى له، كانت تعلم من البداية أنّي سأقذف في فم التمساح الكبير ولم تحاول مقاومته هي أيضًا، اللعنة عليها، اللعنة على أمّي...

لقد حرقت الصورة الجميلة لها في ذلك الوقت، واستطعت أن أقتل النسخة السوداء لبيشان في خيالي وذاكرتي، حرقت ذاكرة بيشان، وخلقت بيشان جديد، خلقت فيه رجلا كنت أحتاجه، خلقت فيه جسدًا وروحًا كنت أحتاجهما، لقد انتقمت من الماضي، لقد سامحته، أحتاج القدر من الرغبة الجنسيّة لأعوّض حرماني العاطفي في هذه المعركة الفكريّة المحتدمة...

ابتسم بيشان وقبّلني، ثمّ راح يرتّل بعضًا من آيات الكتاب المقدّس فرحًا بما ارتكبناه من إثم، ثمّ استغفر لي وله، وراح يردّد: ﴿لا اله الاّ الصنم، لا اله الاّ الصنم المتخيّل﴾ ، ثم قبّلني ثانيةً وارتدى ردائه وخرج من مضجعي وهو في قمّة سعادته...

تعوّدت بعدها على حضور بيشان في جسدي، تعوّدت على رائحته، تعوّدت على أنيابه وشفاهه، تعوّدت ذلك الإستسلام الطوعي للشهوة، لقد كان الأمر مريحًا فعلاً، فقد كنت في حاجة

ماسة لشخص يعبدني بطريقة مختلفة، لشخص يرى الصنم الذي في قداستي بطريقة مختلفة. كنت في حاجة لأن أكون معبدًا بذاتي أكثر من حاجتي لأن أكون معبودة، كنت أرى فيه راهبي الخاص، واستطعت في حالة ضعف أن أسامحه، وأن أجعل منه حبيبًا لي..

كنت النقيه دائما، ننام سويًا، أحضنه طويلاً، لم أستطع أن أفهم نفسي، وكيف تحوّلت كراهيتي المطلقة له إلى حاجة عاطفية وجنسيّة بهذا الشكل، ربّما حاجتي للشعور بإنسانيتي بعد حجم رهيب ومقرف من التقديس؟ لا أدري، ولكنّي تحوّلت إلى عاشقة، إلى فراشة، إلى شيء يهزّ، إلى وسادة، إلى كل شيء ولا لاشيء...

فعلى قدر ما كانوا يقدّسونني، على قدر ما كانت حاجتي الجنسيّة تزداد، على قدر ما كانت حاجتي لصدر أعانقه تزداد، ولا أعلم لما اخترت بيشان، هل صدّقته؟ هل جننت؟ لا أعلم، ولكنّي سأستعمله لأبرّد هذه الحاجة الجنسية التي يتطوّر ألمها أحيانًا لحد لا يُطاق...

وفي إحدى تلك الليالي الماجنة التي يدعوني فيها الرب إلى المهر،حين كنت أطارح بيشان الفراش، أخبرني بأنّ درجته الدينيّة قد ارتفعت وأنّه سيدخل بذلك بشكل رسمي لمعبد القوادة، وهو معبد لا يدخله إلا بعض الرهبان ممن ترسّخوا في الدين، إذ لم يصل إلى هذه الدرجة إلاّ قلّة قليلة منهم فقط...

لاشكّ أنّ مرتبة القوّاد هي أعلى مرتبة يمكن أن يصلها رجل الدين، في معبد القوادة معبد نخبوي، لنخبة الرهبان فقط، ولا يمكن الجميع رجال الدين دخوله، إلاّ من يسمون بالقوّادين الأحرار، ولا أدري كيف يكون المرء قوّادًا وحرًا في نفس الوقت، ولكنّهم يسمون كذلك، وهم أنذل الرهبان تقريبًا أو أشدّهم تدينًا أو على الأقل أكثرهم شفقةً على التمساح وأكثرهم تضحيةً بالبشر، ولا يمكن الوصول لهذه الدرجة إلاّ كجائزة من السلطة على حسن قوادتهم لها، وهم الرهبان المخوّل لهم قراءة بعض كتب التي يقال أنّها قد سقطت من النجوم، عن السحر والحياة، القوّادون كان همّهم الوحيد الإبقاء على النظام الديني متواصلاً وهم يعملون بشكل نواة ذكاء سريّة للمعبد، فهم يجعلون الشعب عاهرة دائمة في حضن جاكوشا، وفي حضن التمساح بإيجادهم حلولاً مؤقتة ودائمة لأي حركة تمرّدية ولذلك هم مقرّبون جداً من نظام الحكم...

في الحقيقة بالنسبة لي، فقد حسمت الأمر منذ زمن طويل، لقد كان جميع رجال الدين قوّادين، لا فرق عندي بينهم، جميعهم من طينة واحدة ولو كان بيدي الأمر لفتحت لهم معبد القوادة على مصراعيه ، ولن أحرم راهبًا من هذه الدرجة العالية التي يحلم بها الجميعولكن هذا هو النظام هنا، فلكي يشعر الرهبان

.اثمًا بالحاجة إلى الزيادة في قوادتهم للسلطة السياسيّة، على لسلطة دائمًا أن تخلق نظامًا تنافسيًا في القوادة ذاتها يحول دون شعورهم بالملل، وبخلق درجات في النظام الديني تجعل كل راهب يشعر بكونه حاكمًا فعليًا لأرض النهر، وما كانوا في الحقيقة سوى عبيدًا، مسوخًا، اخطاءًا، وانياب...

ذهبت مع بيشان إلى معبد القوادة، وهو مبنى صغير بسقف عالي يتوسّط القلعة الكبيرة، سداسي الأضلع من الخارج و بشكل دائري من الداخل، به اثناعشر بابا لقبو سفلي ومكتبة علوية تزيّن سقفه الذي يأخذ شكل القبّة، وبه تماثيل تماسيح بأجساد بشريّة كثيفة العضلات، وشعر طويل وهي تحمل سيوفا طويلةً وحادة بطرق واشكال مختلفة، فالواحد يحملها إلى الأعلى بينما الثاني إلى الأسفل بينما الثالث إلى اليمين والرابع إلى اليسار وهكذا...

وعندما بدأت مراسيم تتويج بيشان برتبة قوّاد رسمي، جلست امامي كوستا، إحدى راهبات مضجع الفتيات، وقد أصبحت قوّادة هي أيضًا، ابتسمت، وخفضت هي رأسها لي تعبيرًا عن التبجيل والتقديس، ورفعت الموسيقى ودخل بيشان إلى وسط المعبد، وضع السيف فوق رأسه وراحت الراهبة الأعلى درجة في معبد القوادة تقرأ عليه جمل من الكتاب المقدّس ثم قالت له: هل تقبل أن تكون قوّادًا ؟ فأجاب: نعم اقبل، هل تقسم بالتمساح

بأنّك ستقوّد للمعبد بشتى الطرق حمايةً له؟ أجاب: نعم أقبل، هل ستقبل بأن تكون قوّادًا بشكل كلّي وطوعي لجاكوشا وأن لا تكون لك كرامة؟ أجاب: نعم أقبل، هل تقسم بأنّك ستحافظ على سرّ معبد القوادة وأنّك ستمحي مشاعرك وفكرك لأجله وستتخلّص من قدرتك على التفكير إلاّ لأجله وأن تمنح جسدك وإخلاصك كاملاً له دون أن تفكّر أو أن تجادل؟ أجاب: نعم أقبل...

فرفعت الراهبة السيف عاليًا، ودخل الحرّاس ومعهم نمر كبير الحجم، يربطونه بسلاسل الحديد، ثمّ فُتح صدره وهو يقاوم وأُخذ منه قلبه فأكله بيشان أمامنا، لقد كان مشهدًا دمويًا، وتعيسًا، لم يسلم حيوان كهذا منهم فمابالنا بالكائنات البشريّة الضعيفة، كان النمر يزأر ويتخبّط محاولاً الدفاع عن نفسه بلا جدوى، ومن ثمّ سلخ جلده عن جسده ووضع فوق بيشان العاري ومنذ ذلك الوقت كان جلد النمر لباسًا له يميّزه بكونه قوّادًا مثل جميع القوّادين...

قالت لي كوستا عند انتهاء المراسيم: ﴿جلالتك، هل تتذكّرين يوم اخترت أن يوضع رمادك أمام قبر ميريسا؟ لقد فهمت في ذلك الوقت أنّك أنت الموعودة، فهكذا قالت النبوءة﴾، سألتها: ﴿أ حقًا هذا؟ ﴾ أجابتني: ﴿نعم تقول النبوءة أنّ امرأة من طينة أولوهو سيكون رمادها بجانب رماد ميريسا المقدّسة، وستكون هي كذلك مقدّسة، وستغيّر حياة سكّان أرض التمساح للأبد﴾

تأمّلتها بابتسامة عفويّة، ولم أرد عليها، انسحبت تدريجيًا ـن رفقتها إذ لم أكن أؤمن فعلاً بالنبوءات وإن صدقت، فلبدّ من جود سبب ما، لما لا يمكن لهذه الأخيرة أبدًا أن تتنبأ بكذبي بخططي ضدّ الدين، لقد سئمت من كل ما هو ديني، من كل ـا هو ماورائي، كانت بداخلي حاجة ماسة للاندماج مع العالم لحقيقي، عالم المادة فإن نجحت فعلاً في خطّتي لن أدفن أبدًا في قلعتهم الدينيّة هذه، بل سأدمّرها وميريسا وجميع المقدّسات لتي بداخلها، ولن أسمح بمواصلة شموخها على رقاب الأجيال الأخرى، لقد خسر الدين رهانه في هذا أيضًا، كذب كما يكذب دائمًا، لقد كان كتابهم المقدّس قصير النظر من تلك المسافة الزمنية في الماضي بتصديقي بكل سذاجة، بتصديق معجزتي هو الآخر بنظر مضبّب لسراب كاد أن يكون حقيقة بكوني مقدّسة من مقدّساته، إنّ هذه الثقة الكبيرة بالنفس التي يمتلكها الدين ستكون حتمًا سبب فنائه وسأكون بكل فخر تلك الوسيلة الحادة البسيطة التي ستخترق صدره...

وماذا بعد؟ لقد أصبح بيشان قوّادًا وسيحترمه الناس الآن أكثر، فهم يعشقون القوّادين، وخاصة قوّادي الدين منهم، قوّادي السلطة الحاكمة والنظام الإجتماعي المتخلّف، وبيشان نفسه يبدو فرحًا بهذا المنصب الكبير، بعد عناء طويل استحقّ هذا اللقب بجدارة، إستحقّ أن يكون قوّادًا كبيرًا...

تأمّلني بعدها وقال لي: ﴿أمّي كانت دائمًا تصلي للتمساح الأكبر أن أصبح قوّادًا يومًا ما مثل أبي، لقد استمع الرب لها، أنا سعيد يا الجا، جد سعيد، لقد أصبحت قوّادًا أخيرًا، لا تعلمين كم تعبت لأجل هذه الدرجة الرفيعة﴾

أجبته : ﴿مبروك عزيزي،ولا تنسى أنّي أنا أيضًا مقدّسة، وعليك أن تقوّد لي على قدر المستطاع وتتفانى في قوادتك لي دائمًا مثل جميع المقدّسات الأخرى وبنفس حجم قوادتك للسلطة لا تنسى أبدًا﴾

أجاب: ﴿بالطبع مولاتي، ساكون أفضل قوّاد للمعبد ومقدّساته دائما، فقد ارتديت جلد النمر وساكون دائمًا قوّادًا مخلصًا باسم الدين لجاكوشا وللسلطة الحاكمة﴾

لامست رأسه بكفّ يدي ثمّ قلت له: ﴿مبارك أنت أيّها القوّاد الأشم﴾

ومن خلال تعاملي المباشر مع بيشان في معبد القوادة، وحديثي معه، وأيضًا بوصفي له بالقوّاد الأشم، أثرت غيرة باقي القوّادين فراح جميعهم يطلب منّي أن أعطيه اسمًا فسميتهم (قوّاد عظيم/ قوّاد القوادة/ أقود القوّادين/ القوّاد الحقيقي/ القوّاد القوّاد.... وهكذا

لقد كان الجميع سعيداً بلقبه الجديد، والقوادة كما قالت
كوستا فيما بعد، علم وحكمة، وفن وذكاء، يجب أن تجتمع في
وّاد صفة العلم بالكتاب المقدّس والحكمة في تزوير الحقائق،
ـن في تجميل القبيح، وذكاء في إيجاد المبرّرات والحجج لأي
رف تقوم به السلطة مهما كان، وإنّها أوصاف لا تجتمع إلاّ في
ن الرهبان، فأغلب الرهبان حسبها محدودي الذكاء وينقصهم
سر المحاججة والمجادلة، وعنصر الإقناع...

مـرّت الأيّام بعد الخطاب بخوف وانتظار، لقد انتظرت أي
ـام كان من نظام جاكوشا اللامرئي،فما أقدمت عليه كان عظيماً
أ، فلطالما كان الرب مرسوماً بوجه تمساح شرس، ففدى اليوم
ـاح أكثر ليونة، تمساح منزوع الأنياب جزئيّاً، انتظرت الإنتقام
يأتيني من من جاكوشا ولكن جاء من الفريق الآخر، جاء من
ـعب، من الضحايا أنفسهم، من المقموعين،لقد ثار سكّان قرية
جوكا وخاصة التجّار منهم، على قراري بمنع قتل الأطفال،
ذا حسبهم سيسبّب لهم خسائراً إقتصاديةً كبيرة، وهذا ما لم
ن بوسعهم تحمّله،لقد أقاموا مسيرةً إحتجاجيّة مطالبين بإعادة
وس قتل لـم الأطفال ورميهم للتماسيح وإعادة مهرجان الطحن
ـرية رافضين إرادة الرب بتغيير رأيه...

لقد اتّضح الأمر اكثر، المستفدين ماليًا من الدين لن يسمحوا بإلغاء أي جزء منه يعود عليهم بالفائدة، فالرابطة التي كانت تجمع هؤلاء بتمساح السماء، تبيّن أنّها لم تكن أبدًا رابطة إيمان بل كانت رابطة مصلحة، فإن كانوا فعلا يؤمنون بقداسة ربّهم وأوامره لقبلوا بأوامره الجديدة ولكنّهم لم يفعلوا هذا على العكس، لقد تمرّدوا عليه وبينما اتّضح أنّ الأمر لم يكن سوى تمثيلاً منافقًا من أجل تحصيل المال من وراء طحن الأطفال...

لم يقم جاكوشا بأية خطوة لإيقاف تمرّدهم على ما يجب أن يكون مقدّسًا في أوامر الرب، ولا شيء لإسكاتهم البتّة على الإطلاق، فعلى العكس فقد قام حرّاس المعبد بتوفير الحماية لهم، فزاد عدد المشاركين في الوقفات الإحتجاجية، فنظام جاكوشا قد خلق تداخلاً بين مصالحه الدينية والسياسية مع المصالح المالية للتجّار في علاقة تكاملية، من أجل ضمان إيجاد حارس دائم على المقدّسات المخيفة لنظام الحكم، ولتعزيز سيطرته على الشعب بإقحام مزيد من الأفراد في لعبة الفساد التي اخترعها، وهكذا ضمن جاكوشا حريّة التعبير للتجّار ضدّي ليضمن لنفسه مكانة الشخصية الوحيدة التي لا يجوز نقد قرارتها كمقعد إحتكاري...

إلتزمت الصمت في البداية لعلّهم يعودون أدراجهم من تلقاء أنفسهم، إلاّ أنّ حركتهم أخذت في الإتساع إلى بعض القرى الأخرى

فقمت بمراسلتهم وطلبت منهم بلطف عدم التمرّد على أوامر الرب، الاّ أنّهم أبوا الإستماع لي، فكان عليّ أن اتّخذ قرارًا حازمًا فأصدرت هذا البيان:

«من ألجا ابنة كيشارتي، الراهبة التي اختارها الصنم الأكبر لتكون حارسةً على روحه، حارسة صاحب الرأس الكبير، نزل عليّ وحي جديد، نظرًا لطلبات التجّار والباحثين عن المال بإعادة طقوس قتل الأطفال، يهنّئكم الرب على شغفكم بتقديم الضحايا له، ويتفهّم هذا السخاء الكبير وعدم تحمّل الإنقاص من قربانكم له، ولذلك قرّر الرب أن يمنحكم بديلاً، لن يرمي الأطفال ثانيةً ولن يضحّي بهم وهذا قرار لا عودة فيه، ولكن التجّار المتظاهرون سيرمون إلى التماسيح بدلاً عنهم، تنفيذًا لطلباتهم، ولإيمانهم، وسيشرع المعبد في تنفيذ العقوبة غدًا، ويقول لكم الرب: لقائي معكم في السماء أيّها التجار السعداء، فلتمضغوا جيّدًا بين أنياب التمساح»

صُدم التجّار، وامتلكهم الخوف، وكان ذلك أوّل قرار صارم اتخذته، لم يكن لأسمح لمجموعة من الطمّاعين بقتل المزيد من الأطفال والتضحية بهم، إن كان على التمساح أن يأكل شخصًا ما عليه أن يأكل هؤلاء الأشرار البخلاء...

نفّذت أوّل عمليّة قتل أرتكبها في حياتي، كان عليّ أن أقوم بهذه الجريمة لأحافظ على هيبتي وسلطتي، ولكي أواصل في خطّتي في تدمير دين التمساح، إعتقلهم الحرّاس من بيوتهم، وسط صراخ أهاليهم وصراخهم، حملوا واحدًا تلو الآخر، جُمِعوا أمام الوفود المتشهية لألم الدين، والفخورة به، وقفت أمام التجّار وهم يبكون وخاطبتهم: «لا خوفًا عليكم، لن تشعروا بالألم والتماسيح تقوم بدورها المقدّس بتمزيقكم، على العكس ستشعرون فقط بنفس المتعة التي كان يشعر بها الأطفال والأبرياء الذين قمتم برميهم للتمساح يومًا ما، وهذه فرصة رائعة لاختبار إيمانكم، لقد كنت سخيّة بمنحكم هذه الفرصة في إثبات ولائكم للتمساح وعضّته، بعد قليل ستسافرون إلى التمساح الأكبر في السماء ومن ثمّ ستنعمون بعضّات تمساح أبدية هناك وستشعرون بالمتعة الدينيّة إلى الأبد، شكرًا لكم على حسن إيمانكم باركّكم الرب فلتمزّق التماسيح المقدّسة لحومكم وعظامكم في سلام وطمأنينة، مبروك عليكم عليكم هذه الميتة المباركة...

سيق تجّار الدين بعد ذلك صفًا صفًا إلى التماسيح بينما وضع بعضهم في المطحنة، في مشاهد دمويّة، لقد قتلتهم بلا أدنى شفقة، كان عليّا أن أصنع خوفي مجدّدًا وعليّ أن أصنع العبرى كذلك، لا أحد يجب أن يقف في وجه أوامري وخطّتي وسأرتكب أي

جريمة لأجل هذا قُتلوا ومُزّقوا تمزيقًا، هُشّمت عظامهم، حُطّم جشعهم، اللعنة عليهم وأموالهم، الحياة للإنسان، موتوا للأبد ولتتكرّر ميتتكم يا تجّار الدين في كل جيل، لينعم العقل بالحياة، لم، ولن أشفق عليكم، أنتم مموّلي القتل، أنتم صانعي الجهل، فلتلحقوا بالتمساح الأكبر الذي لطالما كان حصّالةً لكم لجمع الأموال على حساب الفقراء والأغبياء، لكم ما أردتموه دائما وطالبتم به، لكم ما أرادكم، اللعنة عليكم إلى الأبد...

بعد إجرائي الصارم، أصبح الجميع ينظر لي ولأوامري نظرة إحترام ووقار، فالناس لا يحترمونك لمجرّد أنّهم يقدّسونك، أو يروك أحسن منهم، بل سيحترمونك يوم سيجدون أنّهم مهدّدون في حياتهم وأموالهم وكل شيء إن لم يفعلوا هذا، الإحترام يؤخذ بالقوّة من شعب الذل ولا يمنح من طرفهم بسهولة وخاصة من الائك الذين يجدون في ردائة المحيط مصلحةخاصة فهم لا يتهاونوا عن تقزيم أي شخص كان أو آلهة يحاول بطريقة أو بأخرى تحسين المحيط بمحاربة الردائة، الإحترام يُفرض بالقوّة، الردائة تُقتل بالقوّة...

أحدث قراري هذا ارتباكًا كبيرًا في المعبد، لم يكن جاكوشا ليتخيّل أنّي سأتجرأ على تنفيذ قرار قاسي لهذه الدرجة، لم أكن أبدو بهذه القوّة أبدًا، لقد أخذت صورتي في التبلور أكثر في وعي

الشعب لقد بدوت أكثر نضجًا وأكثر الوهية ممّا كنت، وأصبحت سلطتي الآن واضحة جدًا، وقد أصبحت في مكانة موازية لمكانة جاكوشا، ومن خلال احتجاج تجّار قرية براجوكا اتضّح الصراع الخفي بيني وبين السلطة، في معركة خرجت فيها منتصرةً عليها، لأوّل مرّة تواجه السلطة إحدى مقدّساتها بتوفير الحماية لأشخاص يزدرونها، وليس الهدف من هذا الأ بهزم أوامري وبإلزامي بأن أكون مقدّسا متحجّراً لا قرار له، ومجرّد أداة في يد جاكوشا ولا أكثر من ذلك، مقدّس يستعملني لتنفيذ خططه هو، وليس مقدّسًا واعيًا بذاته ينافسه في الحكم والتسلّط...

كثرت الحراسة في المعبد على كل المقرّبين منّي ولم أحاول أن أظهر في ثوب الخائفة أو حتّى الرافضة لأوامر جاكوشا، كان له أن يفعل ما يشاء، ولي أن أفعل ما أشاء أيضًا، كلّ متمسّك بقدرته على اتخّاذ القرار ولو كان في غير صالح الآخر، لكن لا أحد فينا بإمكانه أن يمحي الآخر الآن، فكلانا في حاجة إلى الآخر لأجل تعزيز بقائنا وتقويته...

وفي خضّم تلك اللعبة، والحرب الباردة التي كنّا نعيشها أنا وجاكوشا، خطرت في عقلي فكرة مسليّة، فكرة ستكون بمثابة ضربة قويّة لخصيتي المعبد الديني وكبريائه، ماذا لو حرّرت الشيطان من قوقعته؟ كيف سيكون وجه جاكوشا آنذاك، كيف

سيصبح المعبد آنذاك؟ فبخروج الشيطان من قوقعته الزجاجيّة سينكشف السر الأعظم الذي لطالما أراد جاكوشا إخفائه. سنعلم من صوت ذلك الشيطان أفكاره. ولن نكتفي بسماعها بصوت الرب ووجهة نظره الأحادية الطرف. لن نكتفي بلعنات المؤمنين لنستنتج خبثه، بل سنسمع منه لنعرف الوجه الكامل للحقيقة. وجهة نظره هو أيضًا لنحكم بالعدل...

لم تشجّعني بيترام على ذلك، كانت ترى في الأمر خطرًا على حياتي وحياة أوجاشو، ولكنّي لم أستمع لها، كان لي من القوّة والسلطة ما يكفيني لأجرّب حظّي كالعادة، فلكل خطوة أقوم بها في وجه سلطة المعبد والنظام الإجتماعي والديني والسياسي الحاكم هناك مخاطر حتمًا، ولكنّي أشعر بمسؤولية كبيرة لأجل القيام بها، ففي مكانتي هذه أنا الوحيدة التي بإمكانها أن تواجه جاكوشا وأوامره فأنا الوحيدة التي يقدّسها الشعب، ويرى فيها الحرّاس آمرة وناهية. أنا هي الناطقة اليوم باسم الرب والدين وليس المعبد، فالرب حسب كذبتي الدينية الجديدة يحدّثني ويوحي لي في الأحلام عن طريق رأس أوجاشو الكبير...

لم أطلب من جاكوشا تحرير الشيطان، لم أطلب ذلك من الحرّاس، بل كتبت رسالة لكلّ معابد النهر، وطلبت منهم قراءتها على مسامع الشعب فكان هذا نصّها:

يـا أيّهـا المؤمنـون، انّ الـرب الحكيـم، التمسـاح العظيـم، قاتـل الأرواح ومحييّهـا، وغافـر الذنـوب ومقصيهـا، مغيّـر رأيـه وكامـل الإرادة، المسـتقلّ في قـراره عـن أي سـلطة سياسـيّة، الـرب الأكبـر الأدرى بكـم وبحالكـم، والأفضـل في حمايتكـم، والمقنـع رغمًـا عنكـم وعـن وعيكـم، وبوعيكـم وإرادتكـم، يقـول لـي في حلمـي ويوحـي لـي بذلك مـن خـلال الـرأس الكبيـر لأوجاشـو المقدّس، بـأنّ غفرانـه قـد وصـل ذروتـه أيضًـا، وأنّـه سـيغفر ذنـوب الجميـع، إن غفـروا هـم ذنـوب الجميـع، فاغفـروا ذنوبكـم وتراحمـوا بينكـم وتسـامحوا، وليصـل غفرانكم الـرب كامـلاً عليكم أن تغفـروا ذنـوب أحـد مخلوقاتـه أيضًـا عليكـم الغفـران للشـيطان، فالـرب غفـر ذنوبـه، ولـم يعـد هنـاك أي حجّـة لـه لتواصلـوا كراهيتكم لـه، إذ لـم يعـد ملعونًـا، بل اسـتحقّ مـن الـرب الشـفقة والتسـامح، وليسـتحق أبنائكم الغفـران بعدكم اخرجـوا إلـى شـوارعكم واطلبـوا مـن المعبـد تحريـره مـن القوقعـة وعلاجـه وتسـليمه لـي، ولا تتركـوا الشـوارع حتّـى ينفّـذ جاكوشـا المقدّس كلام الـرب، لا إلـه الاّ الصنـم خالقكـم ومالككـم وغافـر ذنوبكـم)

هـل سـيغفر الـرب للشـيطان إذن؟ مـا بـال ذلك الـرب هـل جـنّ؟ هـل فقـد صوابـه؟ لا يهـم المهـم أن يغفـر لـي ولأبنائـي وأن ادخـل الجنّـة: هكـذا قـال أحـد المصلّين معبّـراً عـن هـذا التغيّـر المفاجئ في شـخصيّة الـرب، الصنـم المتخيّـل...

وصلت الرسالة كل أرجاء قرى ومدن النهر، فساد الضجيج أرجائه، انقلب الهدوء الديني الرسمي إلى فوضى، لم يعد أحدٌ يفهم الرب أو أمانيه، لقد انقلب على نفسه، انقلب إلى مئة وثمانين درجة، إنّه يغيّر كل آرائه، إنّه يمحي نفسه، ويلغي قراراته بيديه، ماذا سيستفيد؟ هل أنّبه ضميره؟ أسئلة كثيرة فتحت بعد كل تلك القرارات التي قمت بها وخاصةً هذا القرار الأخير، والسؤال الأكبر دائمًا: هل يحق للرب أن يغيّر رأيه؟ هل هو كامل الإرادة في أن يفعل ذلك؟ فان لم يكن كامل الارادة هل هو عاجزٌ أم ناقص؟ هل يستحقّ أن يكون إلهً من لا حقّ له في تغيير رأيه؟

خرج الشعب، أفواجًا تتلوا الأفواج، وغدوا في شوارع عالم الدين الفاسد، يطالبون بكل إيمان بالرب العادل بتحرير الشيطان من سجنه، طافوا الشوارع والمعابد، وأنشدوا صراخهم لأوّل مرّة لأجل الشيطان، لقد اتّحدت الأقطاب، وبدى الرب والشيطان واحد موّحد، قادرٌ على كل شيء حتّى على غفران شيطانه، والغفران لشيطانه، لم يعد شيء أكثر حريّة في إرادته من الرب، لأوّل مرّة يتحرّر من الإيطار الجامد الذي وضعته فيه السلطة السياسيّة ويصنع لنفسه رأيه الخاص، إنّه ربٌ واعي، رب بادراكه، ربٌ كامل، رب بمقدرة كبيرة على اتخاذ القرار وتغيير أرائه، ربٌ لا يشبه الرب التقليدي، المستعمل، المؤطر، الغير هادف، الغير واعي، الجامد والصنم، لأوّل مرّة يكسر الرب صنمه، يخرج منه كما

تتنفس بذور النباتات، يصعد للأعلى ليلاقي النور، ليكشف عن نفسه، في الحقيقة كسرت بذرته ليزهر، ليصبح جميلاً، ولأنتقم من بشاعته...

لقد كانت حجرة عثرة حقيقيّة في درب جاكوشا، هذا الشبح المتخفّي الذي لا نراه أبداً، هذا الحاكم الذي يستتر وراء حجب الخيال كربّه، لقد أرسل لي عديد الرهبان يطالبونني بتغيّر رأيي وحث الشعب على العودة إلى منازلهم وفض احتجاجهم ولكنّي أبيت، لعبت دور المجنونة، أو المقدّسة كما يحلو لهم تسميتي، وأبيت أن أغيّر شيئًا في الخطّة، لم أستسلم لأوامر جاكوشا وبل أصريّت على ندائي للشعب، وعلى غفران الرب للشيطان، فواصل الشعب مطالبه باسم الإله والدين وباسم التمساح بتحرير الراهب المسكين، صاحب الأسرار، المسمّى بأمر من السلطة السياسيّة بالشيطان...

إنها حالة من الجنون التام تملّكت المؤمنين، الرب يريد تحرير الشيطان، الشعب يريد تحرير الشيطان، كان الأمر غريبًا جداً، لقد شاهدت في ذلك الوقت المعبد يبكي وهو يتعامل مع هذا الحراك الغريب والغير منتظر، حاول جاكوشا مقاومته في البداية ولكنّه سرعان ما استسلم، لقد قرّر المعبد في النهاية تحرير الشيطان تنفيذاً لإرادة الرب...

لقد صنعت أوّل هزائم المعبد، ووّحدت لأوّل مرّة في التاريخ الشعب مع الرب والشيطان، الثلاثة في واحد، إنّه الجنون ولكنّه أيضًا الحكمة، ببساطة إنّه الإنسان..

إنّه الإنسان، الذي يقدّس ويلعن، يحقد ويغفر، يكره ويحب، ينتقم وينتقم من الإنتقام، يعبد ويُعبد، يُستعبد ويتسيّد، إنّ غفران الإنسان للشيطان هو غفران لنفسه، وغفران الشيطان للإنسان هو غفران إنسان لإنسان، وغفران الرب لهما، هو غفرانهما له...

كنت أتخيّل جاكوشا راكعًا أمامي، آه كم هو لذيذ هذا التذليل، أن تضع السلطة في كف يدك وأن تعصرها، وتخنقها حتّى تخرج حريّة الإنسان منها، أن تفرض عليها العودة في قراراتها باستعمال نفس سلاحها في السيطرة على الشعب، باستعمال الدين، باستعمال نفس النبع الروحاني هذا وثمّ بتغيير آرائه، لقد فتحت الجدل الذي يجب أن يفتح، هل للرب حقوق؟ هل لديه حريّة التعبير؟ هل هو كامل الإرادة أمام السلطة الحاكمة ونظرتها للأشياء ومصالحها؟ هل يمكن للرب أن يكون حرًّا؟ ثمّ هل كان حرًّا فعلا؟

حريّة الرب جدليّة حقيقية، سؤالٌ جيّد للبدأ في ثورة فكريّة، فلطالما كان يبدو الرب مكبّلاً، هناك من يفسّر ما قيل أنّه كلامه، وهناك من يوظّفه كما يشاء، وهناك من يوظّفه لمصالحه، وهناك

من يقدّم آرائه الخاصة باسمه، الرب يقع تحت طائلة البطلان، لا شيء فيه قابل للتعبير عن نفسه، هناك دائمًا كائنات بشريّة تحدّد للرب مصيره، الرب لم يكن حرًا يومًا، اليوم فقط بدأ يسترد حريّته، لقد حرّرته ولن أتركه ينعم بهذه الحريّة إلى الأبد، سآخذها منه مجددًا وسأعطيه حقّه الشرعي في الموت.

حرّر الشيطان، خُلِعَ من لعنته، وكسرت فوقعته البلّورية، سُحب من عذابه وهمس الرهبان في أذنه: «لقد غفر الرب لك»، لم يكن ليصدّق ذلك، فهو لا يصدّق بوجود الرب أصلاً، كانت حالته مزرية فعلا، أمرتهم بعلاجه، وتضميد جراحه بأمر من الرب وبركته، لقد كانت لعنة الشعب عليه أكبر عقاب قد يعيشه أي إنسان، لم يتحرّك من سنوات، لم يرى شيئًا من سنوات، لم يتذوّق شيئًا بلسانه من سنوات، لم يتحدّث من سنوات، لم يعش أي أحداث من سنوات، كل ما هناك هو روتين من الكراهية والتعذيب، لا أدري كيف سيندمج ثانية في الحياة البشرية، سيكون شيطانًا إلى الأبد إلاّ أنّ الشيطان في هذه الحالة سيغيّر صورته إلى ملاك جميل، شيطان بلا ذنوب....

قال لي أحد الرهبان الحديثي التصيب بعد تحرير الشيطان: مولاتي هل سيغفر الرب لي أنا أيضًا؟ لقد شككت فيه كثيرًا، هل سيسامحني؟

أجبته: وهل ستغفر للرب؟ هل ستسامحه لأنّه اختارك أن تكون سجين عبوديته، لأنّه أمر بخطفك من أهلك وطفولتك وأن يسجنك إلى الأبد في ثوب الراهب، هل ستغفر له؟

تأمّلني الراهب الصغير بدهشة ثمّ قال لي: لا لن أغفر له

أجبته: إذا هو من يترجّاك في الغفران اليوم، لقد تغيّر الرب يا صغيري، لقد تغيّر، لقد تحرّر من كل عقده السابقة، لم يعد ذلك الشخص الذي يغضب، بل هو يعترف الآن بأخطائه ويسألكم الغفران، لقد أنّبه ضميره

سألني: الضمير هو المجتمع، لا مجتمع للرب، فكيف له من ضمير؟

أجبته: الرب تمساح، ومجتمعه هو التماسيح، والتماسيح هي الآلهة، هي المقدّسات، وضميرها هو المؤمنون

سألني مجدّدًا: هل سيغفر لي إذن؟

أجبته: اغفر له أنت أوّلاً، واسمح له بأن يكون الإله الطيب الذي يريد أن يكونه.

تركته يفكّر وحيدًا، وذهبت للاطمئنان على الشيطان، كان يعالج في حضرة الراهبات من جروحه، ومن الدماء المتحجّرة في

بعض أجزاء جسده، كان يبدو في حالة مزرية، ولكنّه في نفس الوقت كان يبدو سعيدًا وفي قمّة المه، لم يبتسم ولم يضحك، ولكنّه كان يعبق فرحًا على رغم من ألم العلاج الفظيع، لقد هزم إيمانهم...

المجد للشيطان، لذلك الكائن البشري الملعون، المشكّك، المتسائل، المتمرّد، من قال لا في وجه من قالوا نعم، المجد لقوّته وتفسّخه، المجد للعنته رغم الألم، المجد لهذا الخيال، لهذه المزحة، لهذه الخرافة، للوجه الآخر للرب، للشر المتخيّل، ولعدو التمساح..

وبينما كان هو يمتثل للعلاج بسرعة، كنت أنا في حربي دائمًا في وجه جاكوشا، هذه المرّة الرب والشيطان معًا في صفّ واحد في وجه نظام سياسي بدأ يفقد مهارته في السيطرة على البشر باستخدامهما، بعد أن نفخ في قداستي، بعد أن جعلني في وضع أعلى منه درجة دون أن يشعر، لقد كانت هزيمة جاكوشا واضحة جدًا، لم يعد ذلك الوحش الخيالي المخيف، لقد اهتزّت صورته بشكلٍ كبير فقد اختار أن يواجهني بطرق غير مباشرة وواضحة بالرغم من أنّ كل شيء كان يبدوا مارًا برضاه وموافقته الاّ أن عداوته لي كانت واضحة للشعب، وكان واضحًا أكثر أنّي كنت الأقوى والأذكى في المعركة...

أيّام فقط، وتخرج جبهة إنقاذ التماسيح عن صمتها، لقد أعربت عن رفضها لصورة الرب الجديدة، لقد وجدوه طريًا جدًا كالـه، فحاولوا أن يفرضوا عليه قسوتهم، لقد هددت بالعودة للثورة إن لم يعد المعبد في قراراته، لقد طالبت الجبهة بعودة الوجه القديم للرب، وإعادة زرع أنيابه لقد حاولوا مقاومة النموذج الديني الجديد الذي قدّمته، رفضوا إرادة الرب، لقد عارضوه في رأيه، لقد آمنوا بخطابي له ولكنّهم رفضوا صورته الجديدة، فرب متسامح لن يخدمهم أبدًا، لن يخدم توجّهم، سيقتلونه ويعلنون ربًا جديدًا إن لزم الأمر، على الرب دائمًا أن يشبههم، أن يشبه تعصّبهم وتطرّفهم، ولن يقبلوا برب أقل من هذا...

خرج الشعب عن السيطرة،انقسموا لأحزاب وعشائر، أغلبهم اختارني، اختار أن يقف في صفّي وفي صفّ صاحب الرأس الكبير، أمّا بعضه فانصبّ تحت أسرة جبهة إنقاذ التمساح دائمًا كالعادة، كأوفياء لهذا الغول الديني،فإن كان بعض المؤمنين يعبدون التمساح البعض الآخر يعبدون الجزء الشرير منه و البعض الآخر يعبدون الناطق الرسمي باسم ذلك الوجه وبما أنّها وحدها جبهة إنقاذ التماسيح من كانت تدافع على ذلك الجزء الشرّير منه فهي وحدها من كانت مخوّلة بكسب تعاطف هؤلاء الأشرار الذين يجدون في الرب المطيّة الوحيدة للتعبير عن شرّهم، وسيدافعون عن شرّ

الـرب ولـو في وجـه خيـر نفـس الـرب، و أمّا والبعـض الآخـر فقـد خـرج نهائيـا عـن المضمـار. لقـد انتهكـوا العقـد الإجتماعـي الدينـي، وقـرّروا عبـادة القـردة بـدلاً عـن التمسـاح، القردة؟ ولما القـردة بالـذات؟ الحاجـة لخلـق بديـل محتـرم، بديـل كان ينظـر لـه وراثيـاً علـى أنّـه النمـوذج الصالـح والقـدوة التـي علـى المؤمنـين الإقتـداء بها.لقـد كان هـذا الإنشـقاق الدينـي الطوعـي صدمـة الجميـع. لـم يفهـم أحـد كيـف اسـتطاع كائـن بشـري أن يديـر ظهـره للتمسـاح ويسـتبدله بكائـن آخـر، التمسـاح المقـدّس الإلاهـي، لقـد كانـت واقعـة مرعبـة بالنسـبة لهـم، لهـذا الشـعب المتوتـر بالديـن، لقـد اسـتبدلت فئـة مـن النـاس التمسـاح بالقـرد، حيـوان بحيـوان، وخرافـة بخرافـة، ولـم ينتظـروا قبـول أحـد أو رفضـه. لـم يخافـوا بطـش المعبـد وسـلطته، ولـم يعطـوا أي أهميّـة لغضـب جاكوشـا المتوقـع، مـا حـدث أنّهـم كانـوا يكبتـون إرادتهـم في التخلّـص مـن ديـن التمسـاح الـذي كان ثقيـلاً علـى عاتقهـم وانتظـروا الفرصـة المناسـبة لذلـك إلـى أن حانـت فوقـع الإختيـار علـى ديـن القـرد، فقـد سـاهم انعتـاق الـرب مـن جلـده الخشـن وأنيابـه في صناعـة جـو مـن الحريّـة خوّلـت للخيـال البشـري اختـراع بـوادر ديانـات جديـدة، فتكـوّن هـذا الديـن مـن صلـب الحريّـة، وفي الحقيقـة فقـد كان ينتظـر السـاعة الحاسـمة للظهـور، حفـظ في عقـول المؤمنـين بـه كثـورة علـى الديـن القاتـل، ولـمّ غيـر الـرب رأيـه في كل شـيء وقـرّر خلـع أنيابـه بيديـه توسّـعت رقعـة ديـن القـردة، توسّـع الخطـاب

والتعبير عنه، فأصبح الأمر خطراً على المعبد أكثر فأمر المعبد بقتل جميع هذه الحيوانات.

جُمعت السعادين والغوليرا والشامبانزي وأنواع أخرى من القردة في أقفاص كبيرة وجرّت على عربات في تشعبات وطن الخوف والجنون،لم يأخذ المعبد وقتًا طويلاً لالتقاطها فقد كانت تأتي طواعيةً لأجل الطعام، ووضعت الأصفاد والأساور على رقابها وأطرافها، وسيقت إلى مقتلها، في قرية القتل الدائم (براجوكا) وسط بكاء المؤمنين بهم، وشماتة أتباع دين التمساح الذين يمثّلون الأغلبية، قرّر جاكوشا أن يعيد لنفسه بعض الكرامة والهيبة بتنفيذه حكم قاس كهذا، وفي الحقيقة فقد كانت القردة تحوز قدراً من الإحترام أيضًا في دين التمساح، بكونها حيوان الرب المفضّل، فهي المثال والقدوة التي أوجدها الصنم الأكبر حسب ديننا التي منحها للإنسان، فعلى الإنسان أن يشبه القرد في غبائه وغياب وعيه البشري، وذكاء القرد هو أعلى ذكاء مسموح لدى المؤمنين في دين التمساح، على المؤمن أن يكون قردًا دائمًا، هذا ما كان يقوله الكتاب المقدّس، ولكن عندما أصبحت هذه الحيوانات منافسًا على عقول إيمان البشر والسيطرة على عقولهم كان عليهم قتلها ومحوها لإبقاء المجال الديني بالكامل للإله الواحد، للتمساح...

قتلت جميع القردة، بأبشع الطرق، وأمام المؤمنين بها، قتلت ليثبت للشعب، أن لا وجود لدين أقوى ولا إله أقدر على المحو والسيطرة أكثر من التمساح، لكي تحافظ التماسيح على هيبتها الدائمة كان على القردة الموت، ولكن أتباع دين القردة لم ينتهو عن عبادتها، عندما قتلت تلك الحيوانات المسكينة، صنعوا إيمانا جديداً لها، رواية دينيّة جديدة، لقد ضحّت القردة بنفسها لأجلنا، اشتدّ إيمان القرديون أمام بطش التمساحيون، إذ تتشكّل الديانات الجديدة من نواة الديانات القديمة ثمّ تتطوّر تفاسيرها وفهمها من خلال الأحداث التي تتلو النشأة، ولذلك كان من المنطقي لدى أتباع دين القردة، أنّ القردة لم تمت بل ضحّت بنفسها لأجلهم، لن يقبل أحد بضعفه، التحدّي ولّد تطوّر الخرافة ضدّ الخرافة في حرب محتدمة بين تمساح وقرد.

لقد كان ما فعلته، أو بالأحرى ما أقدمت عليه من قرارات دينيّة وسياسيّة، الولاّد الأوّل لهذه الظواهر، إله منفتح، دين منفتح، جو منفتح، يعني تفشّي الحريّة، والحريّة هي العدو الأوّل للجبروت السياسي، لن تستطيع النخبة الحاكمة أن تواصل إزدرائها للعقل البشري إذا ما فهم البشر قدرتهم على خلق نفس الظاهرة السلطوية بشكل فردي، وخلق دين جديد سيكون بمثابة درس نظري عن نشوء الأديان للشعب ممّا يجعل المؤمن بدين التمساح مثلاً مشكّكًا مرّة أخرى في حقيقة دينه .

قدرة الدين على فرض أفكاره ومقدّساته بالقوّة وبالتخويف النفسي، هي ما تجعله يواصل بين الأجيال، الدراسة العقلية والتجريبية للدين وتاريخه ستجعله بالتأكيد يخسر هذه القدرة مع الوقت، ويخسر الرهان، ولكنّها ستجعله أكثر حضارية وتسامحًا وتماشيًا مع الحقوق البشريّة وعلى رأسها حريّة التفكير، كما أنّها ستمنحه شرعيّة أكبر في البقاء بدون أي استعمال سياسي يجعل منه شرًا لبدّ من محاربته من قبل الطيّبين.

وكردّة فعل أرادها جاكوشا أن تكون ردّ اعتبارٍ لسلطته، قرّر إعدام كل القرديين في الساحات العامة، كانت فرصته الوحيدة في الثأر لنفسه، ولتنصيب نفسه مجددًا كخوف مرسّخ إلى الأبد، جاكوشا كان متأكدًا من كون أحسن حلٍ لقمع عقل الآخر هي تخويفه بقتل الآخر، لبدّ من صناعة العبرى ليضمن الخوف، وليضمن البقاء في السلطة، ولكنّي كنت هناك لأنسف مخطّطه، أردت أن أجعله يفهم أن قراري أقوى من قراره، وأن أوضّح له أن انقلابي على سلطته قد وصل إلى أوجّه، فانتظرت يوم تنفيذ قراره لأصدر بيانا : (الرب يغفر للقرديين لا عقاب لهم.)، كانت جملة بسيطة ولكنّها كانت أقوى ضربة يأخذها جاكوشا بين فخذيه، لم يثني الرب على قراره، وبل استغنى عنه في لحظة التنفيذ، وهنا دليل آخر عن كون جاكوشا لا ينطق باسم الرب،

توقّف تنفيذ العقاب، وذهب قرار جاكوشا أدراج الرياح، أُطلق سراح القرديين، واعتبروا الأمر انتصارًا لهم، وشاعت بعدها الحريّة الدينيّة، وأصبح الرب أطيب من أي لحظة كانت، لقد كان الأمر باديًا للعيان، الرب مثل القماش يفصّل كما يريد البشر، ومن في يده القدرة على الحديث باسمه في يده القدرة كذلك على استعماله كما يشاء

وصل جاكوشا إلى قمّة غضبه، لدرجة أنّه اختار أن يقابلني بنفسه، وأن يحاورني بلسانه، بذاته التي لم يرها أحدٌ قبل ذلك، أرسل لي ذاك مع أحد حرّاسه ورهبانه، وقد تملّكتني الدهشة للوهلة الأولى ثمّ الخوف، لقد اختار أن ينزع الحجب التي تخفيه، وأن يحدّثني وجهًا لوجه، لقد غدوت التهديد المباشر له، وكان عليه أن يتعامل مع هذا المشكل العويص بنفسه، وحين كان يبدو واضحًا جدًا أنّه كان عاجزًا عن هزيمتي في الميدان، وأنّي كنت اذكى منه على الأقل في الإقناع كان عليه أن يجد حلاً دبلوماسيًا معي، حلاً يجعله يحافظ على قدرته في اتخاذ القرارات دون منافستي له في هذا، كان عليّ أن يقدّم بعض التنازلات لكي يواصل حكمه، واكبر تنازل كان بإمكانه تقديمه أن يظهر نفسه لي..

وافقت على حواره، وافقت على لقائه، لم يكن بمقدوري أن أخفي فضولي في رؤية هذا القائد الذي استطاع أن يخلد في

الحكم طيلة هذه السنوات وهذه الأجيال المتواصلة دون أن يسقط أو يموت، لقد كان معجزة سياسية في حد ذاته، معجزة حقيقيّة وكان عليّ أن أقطع الشكّ باليقين،كان عليّ أن أتأكّد أنّه إنسان فعلاً وليس كائنا من عالم آخر، ولذلك كان ردّي بالإيجاب، لم أفوّت هذه الفرصة العظيمة في ملاقاة هذا الشبح الذي لطالما كان يبدو وحشًا أكبر من وحش السماء نفسه، لقد استطاع ترويض هذا الشعب، دون أن يشعره بمكانته الوضيعة، لقد استطاع أن أن يستعبده دون أن يجعله يشعر بكونه مستعبدًا، هذا القائد الأبدي الذي استطاع أن يهزم الموت، إنّه أسطورة حيّة، وحتمًا هناك سرّ ما يختفي خلف هذا الخلود، لم أكن لأتخيّل يوماً بأنّه سيتواضع ليلاقيني، فلطالما كان هو التكبّر نفسه، الكبرياء نفسه، الظلم نفسه، والمعبد نفسه، والسلطة نفسها.

لقد وصلت لدرجة جاكوشا، لقد أصبحت موازية له، في نفس الخط، وطلبه لحواري معه دليل على هذا التكافؤ في الدرجات، أصبحت جاكوشا أنا الأخرى، جاكوشا بدرجة أعلى قليلاً،لقدكان هذا الطلب بمثابة اعتراف بتساوي القيمة السياسيّة وبيني وبين هذا الغول الكبير، لقد تغيّرت القوى، لقد روّضته، روّضت قراره وتكبّره السياسي، ورضخ في النهاية لي طالبًا مفاوضتي..

ولكن من القراءة الأخرى لهذا الطلب المفاجئ، فقد كان يريد أن يزرع في ذاتي خوفًا جديدًا منه، من جهة بجعلي متورّطة معه بشكل مطلق في الفساد، ومن جهة بجعلي أتحمّل المسؤولية كاملة في حالة ما حدث أي انفلات في الشعب، كان يريد إيهامي بكوني أصبحت جزءً من عمليّة الفساد وعليّ الآن إمّا الرضوخ له،أو المحو مجددًا، فبمنحي جزء من الحقيقة يجعلني أكثر شعورًا بالمسؤولية وبالخوف...

قبل أن ألاقيه التقيت مع بيتريام لمرّة أخرى، أردتها أن تصفه لي، أن تصف هذا الوجه المختفي وما رأته فيه. جلست أمامها ووضعت هي رأسها على حجري ورحت أربت على شعرها، في حين راحت هي تتكلّم وتجيب:

﴿ليس كائنًا بشريًا يا ألجا، إنّه يتحوّل، يتخذ كل يوم شكلاً جديدًا، يرتدي قناعًا وحشيًا من ذهب ليس يبدو منه سوى فمه وعينيه، وأمّا جسده فيتغيّر كل يوم، عندما يجامعني، أتخلّص أنا من كل صوره القديمة، وأبدأ أنا بنسج صور جديدة له، صور أكثر قبح من الصور التي قبلها، لقد أقسمنا في دار الراهبات العاهرات في طفولتنا قبل أن يجعلنا نخسر عذريتنا على أن لا نصفه لأحد، وفي الحقيقة لم يكن لإحدانا أن تصفه أصلاً. لم نرى منه سوى تلك الشهوة التي تتراوح بين الأجساد لتفنى كالإله، لقد كان

يتقلّص ويتمدّد، يغيّر من جسده ولونه، فتارة طويل القامة، وتارة قصير تارة بجسم منحوت وجميل وتارة بجسد شيخ طاعن في السن، أحيانا هو طفل صغير لا يعرف من الجنس شيئا، وتارة هو كهل خطير، لا يتهاون عن هزّي بقوّة ألف رجل، كل ما فيه يغيّر شكله وحتّى عضوه الجنسي، فأحيانًا يطول وأحيانا يصغر، لا يمكنني وصفه، إنه وحش، إنه حرباء تغيّر لونها، أحيانًا أبيض وأحيانًا أسمر، كل ما كان يجمع جاكوشا هو القناع، القناع الذهبي الذي يبدو وكأنه تمساح قد خسر فاهه، أو نمر بفصامة تمساح أيضًا، لا أعرف كيف أصف القناع، ولكنّه شيء ما يغطي شيئًا أقبح، أوّل مرّة لاقيته على السرير كنت صغيرة جدًا، وكان هو كهل قوي، مزّق غشاء بكارتي، تناولني بعنف، حتّى أنّي بكيت وصرخت، وكنت دائمًا المفضّلة لديه، التماسيح كلّها لم تكن تكفي جسدي لالتهامه، كنت أشعر أنّي كنت بحاجة لألف تمساح لأكلي لأتمكّن من مسح رائحة لعابه من جلدي إنّه قذر يا الجا، قذر، كسلطته التحكميّة، كدوسه على كرامة البشر، كتلك الأنياب التي قطّعت وعينا إرْبًا إرْبًا، إنّي أكرهه يا الجا، لقد اختزلت كعاهرة باسم الدين والقانون وأنا في عمر لم أعرف فيه معنى الجنس أصلا، ومنذ ذلك الوقت وأنا كائنة طوعيّة أستجيب للأوامر الجنسيّة بشكل تلقائي،لم يكن لديّ أي اختيار في الحياة سوى أن أختار ما ارتدي من ألبسة أستر ما فيه عار لحد لا يطاق، لحد

الذل والإهانة، لقد اختار لي المعبد هذه الغاية القذرة، لأكون وسيلة في يد ذلك الكائن الغريب والمتحكّم، لأشبع نزواته وشهواته، مجرّد أداة متعة مجّانة وكوظيفة دينيّة برضا الرب كذلك، ما الخصه لك في جاكوشا يا ألجا إنّه وحش، وحش يغيّر جلده كلّ يوم، إنّه الموت﴾

لقد رسمت بيترام صورة غريبة في ذهني عن جاكوشا، وأكثر بشاعةً عن تلك الصورة البشعة التي لطالما رسمتها عنه، في هذه المرّة كان خياله مرنًا جدًا، كان كائنا بشريًا ذي قدرة عالية في نحت الجسد وتغيير شكله ولونه، لقد كان كائنًا زاحفًا، من ذوات الدم البارد، وهذا ما يفسّر إمكانية تغييره لجلده، وبقائه طيلة هذا الأمد على قيد الحياة، وهذا ما يخفي أيضًا الدفاع المستميت لبعض سكّان النهر عن جاكوشا فربّما لم يكونوا في حقيقة الأمر سوى جاكوشات أخرى، سوى هو ذاته في أجساد أخرى، هكذا تخيّلته، تخيّلته حرباءً كبيرة، حرباءً سامة، ومن كلام بيترام وزاد فضولي وخوفي أيضًا للقائه في يوم اللقاء، امتلأ معبدي بالحرّاس، وجاء الرهبان ليرافقونني في هذه المشية المقدّسة، مشينا مع بعض إلى أعلى قلعة الدين، صعدنا كلّ سلاليمها، إلى أن ارتقينا إلى حضوره، أو هكذا تسمى إقامته «الحضور»، كانت القاعة ذهبيّة الجدران، وكانت جميع التماثيل بها ذهبية كذلك، وكانت عاهرات

الذين يمشين بداخلها، بعضهن عاريات والأخريات يرتدين ملابسًا حريريّة شفّافة، تأمّلتني بيترام بينهن وابتسمت لي، مشيت في تلك القاعة الكبيرة، المثيرة، المزخرفة والمرصّعة بالجواهر والأحجار الكريمة، قوت الفقراء وأموالهم. لقد كانت القاعة في قمّة البذخ والتبذير، تبرز عطش جاكوشا للإستيلاء على ثروات الشعب، وبالرغم من كل تلك الصور المتكبّرة لقاعة السلطة هذه، مشيت بتكبّر أنا الأخرى مشيت كمقدّسة بشريّة كان قلبي يخفق أكثر مع كل خطوة داخل هذه القاعة،لم أكن أعلم ما ينتظرني، شعرت وكأنّ أسرار الحياة كلّها ستتكشف بعيد هنيهات عند لقائي مع القائد، وساعلم الحق، سأرى بأم عيني ما أخفي لأجيال عن باقي الشعب، وما سيموت الجميع دون معرفته.

تملّكني الخوف ووصل فضولي إلى أوجّه عندما وصلت إلى ستار الحكم، وهو ستار لطيف يفصل قاعة الحضور، عن قاعة جاكوشا، لمّ وصلنا، سجد الجميع، خاشعًا، لا يحق لأحد رفع رأسه هنا، أبيت أن أفعل مثلهم بكلّ تكبّر أيضًا، ذلك الشيء المخفي هناك خلف الستار ليس بأهم منّي، أو أفضل منّي، سوى في تلك القدرة العجيبة على العيش كل تلك الفترة دون أن يموت ودون أن يظهر وجهه لأحد ودون أن يسمع صوته أحد. بكل تكبّر على الشعب..

غـادر الرهبـان القاعـة زحفًـا علـى البطـن حتّـى لا يرفعـوا رؤوسـهم، وبقيـت وحيـدة هنـاك، أتأمّـل السـتارة، ارتشـفت حينهـا بعض لعابي، وانتظـرت، لـم ترمـش عيناي،بقيت جاثمـة انتظـر إذن الدخـول، حينهـا سـمعت صوتًـا ينادينـي : ﴿ادخلـي يـا الجـا﴾...

دخلـت سِتار الحكـم، ووطئـت قدمـي رياضـه، مشـيت في قاعـة بيضـاء لا أثاث فيهـا ولا أحـد، وكأنّ الزمـن والمكان ينقطـع هنـا، كانت تنبعث مـن المكان رائحـة كريهـة، خليـط مـن رائحـة الكحـول والبصـل، رائحـة شـخص مدمـن علـى شـرب الخمـر، رائحـة سـكّير، مشـيت خطـوةً خطـوة وأنـا أنتظـر طيـف جاكوشـا ليظهـر في أي لحظـة، هـل هـو حقًـا غيـر مرئـي إذن؟ شـفّاف كمـا يدّعـي؟ أم أنّـه تمسـاح وسيخرج مـن أسـفل الأرض؟، للوهلـة الأولـى ظننـت أنّـي قـد اختفيت في كل ذلـك البيـاض، لـم أشـأ أن أواصـل، توقّفـت في وسـط القاعـة، انتظرتـه أن يخـرج مـن أي مـكان، مـن تحـت قدمـاي ومـن صرخـة الفـراغ، ولكـن لـم يحـدث شـيء، لا شـيء البتـة، مجـرّد وهـم يتمـادى في تكوّنـه، لا صـوت علـى الإطـلاق، شـعرت وكأنّـي بـدأت الدخـول في طـور المـوت، لـم يحـدث شـيء، هـل هـي خدعـة، أم أنّـه سـيخرج مـن مهبلـي فالـده؟؟

خطـوات صغيـرة كانـت تقتـرب منّـي شيئًـا فشيئًـا، تنسـل هدوئـي وتزيـد في هيجـان فضولـي، هـل هـو جاكوشـا؟ اختفـت نبضـات قلبـي

في ضجيج الأفكار، ناداني صوته الرقيق:﴿ألجا كم أنت جميلة﴾ .. دبيب من القشعريرة تملّكني حينها وأكمل هو ﴿جميلة كمقدّس ولطيفة بعض الشيء، وذكيّة جدًا﴾

التفت خلفي فوجدت هناك طفلاً صغيرًا، في التاسعة من العمر أو أقل، حالق رأسه يرتدي بعض اللباس الأرجواني، والكثير من الجواهر والفضّة، وحلق بأنفه، كانت عيناه زرقوانان فاقعتا اللون، ولون بشرته أسمر قمحي، ذهلت حينها وسألته: ﴿هل أنت جاكوشا؟﴾

اجابني: ﴿نعم انا جاكوشا هل أنا مختلف عمّا كنتِ تتوقعينه ؟﴾

أصابني الذهول وربط لساني، كيف يمكن لطفل كهذا أن يعيش طيلة تلك السنوات وأن يخلد في كل تلك الأجيال، دون أن يكبر أو يشيب؟دون أن يموت؟

قال مجدّدًا: ﴿ها أنا ذا أمامك، أنت أوّل من يشاهد جاكوشا، هل تعلمين لماذا؟﴾

أجبته: لا

ردّ : ﴿ هذا لأنك ذكيّة وتستحقين أن اكشف لك عن وجهي، لأنك ستفهمين كل شيء، لأنك مختلفة عن الآخرين﴾

ناداني صوت آخر خلفي: ﴿عقلك الكبير الذي استطاع أن يغيّر صورة الرب في وعي المجتمع سيستطيع أن يفهم كل شيء بعدها﴾

التفت خلفي وإذا بصوتٍ آخر يناديني: ﴿ها أنا ذا جاكوشا، القائد المبجّل﴾

وصوت آخر: ﴿والمسيطر الذكي﴾

وصوت آخر: ﴿من جعل منك مقدّسة ومعجزة﴾

لقد كانوا أربعًا، طفل وشاب وكهل وشيخ أمّا الصوت الخامس فلم أره إلى تلك اللحظة، سألتهم مرّة أخرى: من فيكم جاكوشا؟، ردّ الجميع بصوت واحد: ﴿أنا جاكوشا﴾ سألتهم مجدّدًا والدهشة تغمرني: ﴿كلكم جاكوشا؟﴾، أجاب الشيخ: ﴿نعم كلّنا جاكوشا، كلّنا قائد، نمتدّ في الأجيال بهذه الطريقة لا يموت فينا أحد حتّى نأتي بطفلٍ آخر ليعوّض مكانه وهكذا يمتدّ اسم جاكوشا في الأجيال، ويمتدّ الحكم والسلطة ونحافظ على العدالة في النهر﴾

قال الشاب: ﴿وإنّ حماسك هذا الذي تدفعين به شعب النهر إلى التفكّك سيهدّد المصلحة العامة مع الوقت، فأنتِ يا ألجا متسامحة جدًا والحكم يتطلّب قسوة أكثر في التعامل، إنّ الليونة والحريّة ستجعل الشعب يخسر عصبيته لأرضه ولنفسه وهويته،

هكذا تحلّ الفوضى بدل النظام ويعم الخراب، بخسران العصبيّة تفكّك المجتمع يا الجا﴾

كنت لأردّ عليه ولكنّ الكهل قال لي: ﴿أنت هنا اليوم لتسمعي لا لتجيبي يا عزيزتي، أنت اليوم في مقام جاكوشا، ذي العقول الخمس، نحن نعلم ما لا تعلمين، ونعلم أيضًا أنّ محاولتك في تقزيم الإله في خيال الشعب سيحول دون انتباههم، ستمرّ الأيّام سيبني الشعب وحش الرب بيديه مجدّدا، لا يكفي أبدًا ربّ لطيف في تحقيق العدل، لبدّ من ربّ عنيف، ربّ مخيف يملأ كل فجوات الفزع، ليس هناك ربّ فقط، هناك وعاء يحمل هذا الرب في المخيال العام يا ألجا، والإله الذي تصنعينه اليوم إله أصغر من وعائه في مخيال الشعب، وسيعود ليتسّع ليملأه مجدّدًا﴾.

قال لي الطفل:﴿ ألجا، تخيّلي عزيزتي، لو أنّ النظام اكتفى فقط بالقانون، من سيراقب اللصوص والقتلة في ظلمة الليل، وفي وحدة الفراغ؟، لا يمكن أبداً حراسة الشعب كاملاً فردًا فردًا، الا يجعلهم يتخيّلون حارسا في رأسهم دائمًا يجعلهم يبتعدون عن ارتكاب الجرائم، عالم بلا إله هو عالم فوضوي يا ألجا، الإله هو النظام، الإله هي الفوضى﴾.

قال الكهل ثانيةً: ﴿عزيزتي، إن العوام لا يملكون من الذكاء ما يكفيهم لحكم أنفسهم بأنفسهم، لبدّ لهم من سوط يجلدهم

وتمساح يأكلهم ليضمن توازن النسل من جهة ولضمان انتشار السلم من جهة أخرى، تخيّلي أن يتكاثر هؤلاء بصفة تلقائية دون نظام تناسلي محدّد، دون تضحيّة بشريّة، هل سيكون وطننا هذا بنفس حجم الإستقرار الظرفي الذي نعيشه، تأكّدي إن حدث هذا الآن بعد بضعة سنوات سيأكل الشعب بعضه بعضًا﴾.

قال الشيخ: ﴿إنّنا نريد مصلحة هذا الشعب، لا شيء إلاّ مصلحته، ولكنّنا من مكاننا العالي هنا كقائد جاكوشا الذي لا يموت، نحاول أن نضمن استقرار الشعب وتعاملاته وتنظيم منافسته الطبيعيّة وحرب المصالح فيه بتغليب العقل على العاطفة، ولو بارتكاب أقسى الأفعال والأوامر﴾.

قال الطفل: ﴿القانون لا يجب أن يكون له قلب، الدين لا عاطفة له، الرب مسخّر لإبقاء النظام لكي لا تحلّ الفوضى، ويحق للسلطة ارتكاب بعض الجرائم لكي تحافظ على السلم العام، فالضريبة ابتزاز مالي قانوني، القسائم تحيالٌ، والسجن خطف، والإعدام قتل، ولكنّها كلّها تسري كأحكام قانونية لغايتها في ضمان الإستقرار والأمن والسلام: هل فهمتي يا الجا؟﴾.

قال الكهل: ﴿فكّري يا الجا، أنت الآن جزء من سلطتنا وعليك أن تتصرّفي كجزء منها وليس كجزء من قطيع العوام، لا يجب أن تتعاطفي معهم، سيقمعونك حماية لمن يقهرهم ويقمعهم،

ت تقودين معركةً فاشلة يا ألجا، سيحطّمون كل ما تبنين لأجلهم جل ما بناه أجدادهم لهم، إنّها طبيعتهم الذليلة يا ألجا وستحول نك وبين تحقيق مشروع الكرامة الشعبية والحريّة الفرديّة الذي سعين إليه، لن يستلذوا لطفك هم يبحثون عن سيّد يضربهم يهينهم لكيّ ويضربها به أحيانًا﴾ ينظّمهم، إنهم خرفان ضائعة، جرّد خرفان تبحث عن راعٍ يعزف لها على الناي.

قال الشاب: ﴿ها قد بتّى تعلمين الحقيقة يا ألجا، الحقيقة لكاملة، وعليك اليوم أن تتصرّفي حسبها، نعلم أنّك ذكيّة بالحجم لكافي لتدخلي مجدّدًا في خطّتنا، أن تفدي جزءً من المنظومة، ن تدمجي مجدّدا في هذا البرنامج لتواصل الحياة السلميّة، إنّ بخلقك للتمرّد تخلقين الموت، القتل، الجريمة، سيخرج بذلك بعض أفراد المجتمع عن النظام العام سيخلقون ثغراً فيه، سيكونون هم أوّل الضحايا، لبدّ أن تحمي المصلحة العامة بخلق النظام العام ولو بالقوّة﴾.

قال الطفل: ﴿إنّ التماسيح كمقدّس رسمي ليست إلاّ أدوات للحفاظ على حجم كافٍ من الخوف المقدّس، لبناء قوقعة عازلة تمنع خروج العوام عن الطاعة، والطاعة هي العمل، هي الإنتاج، هي الثروة، إنّ خروج الأفراد عن المنظومة كاملةً يا ألجا سيولد فراغًا في مناصبهم الإجتماعية، ممّا سيجعل وتيرة العمل للصالح

العام تقل لصالح البحث عن المصلحة الفردية، وهذا ما لا يجب أبدًا أن يرجح الميزان إليه، إذا ما فكّر الفرد في ذاتيته أكثر من تفكيره في ذاتية مجتمعه سيخسر المجتمع وجوده لصالح وجود هذا الأخير، من سيدافع حينها عن الجماعة، عن مصالحها، عن قوّتها وحدودها وثرواتها، لا أحد يا الجا﴾.

قال الشيخ: ﴿طيلة وجودي هنا في هذا المنصب الحسّاس يا عزيزتي المقدّسة وكلّ همّي هو أن يستفيق الشعب ثانية على يوم آخر، يوم طبيعي، يوم مستقر، ما نأخذه من ضريبة من الشعب ليس سوى أداة لجعله يشعر بكونه منخرط في النظام بأمواله وكأنه قد استثمر ذلك في النظام وفي المنظومة، إنّ وعي هؤلاء الأفراد لبدّ أن يكون دائما تحت السيطرة لكبح الشر الطبيعي للبشر، لبدّ أن نفكّر بدلاً عنهم، وأن ننظم حياتهم وشهوتهم ومصالحهم وذلك بخلق عقل جمعي موحّد ثمّ السيطرة من خلاله عليهم، والعقل الجمعي هو ذاكرة المجتمع وخياله وصراع الأفكار فيه، لبدّ أن نرجّح الكفّة دائمًا للفكرة التي تخدم تواصل سيطرتنا على العقل وإلاّ سنمحي وجود هذا المجتمع إلى الأبدوتغدو السلطة مجرّد فلكلور﴾.

قال الكهل: ﴿إنّ الإنسان هو حيوان ذكي، وحش ذكي، وأكثر خطرًا من ذلك التمساح، تخيّلي لو كانت التماسيح أو النسور،

أو النمـور أو الأسـود ذكيّـةً كالبشـر، كيـف سيحول الأمـر، ستزيد بشـاعتها ووحشيتها، إنّ الإنسـان هـو ذلـك الوحش الذكـي، وإن لـم نسيطر على ذكائـه ستتحرّر وحشيته ويصبح غير قابل للسيطرة، سيستعمل ذكائـه في تبرير وحشيته وفي تنفيذهـا، لـن يكبـح أحـد إرادتـه في الامتـلاك والاحتيـال و توسيع رقعة نفوذه، سيحاول كل فـرد حينهـا استعباد الضعفـاء وسـرقة ثرواتهـم، وسيأكل القـوي الضعيـف، الذكـي الغبي، الغنـي الفقيـر، إن خلـق النظـام التسلّطي هـذا هدفـه في الأسـاس هـو كبـح الهمجيّـة الإنسـانيّة، وتهذيب المعطى البشري، وجعلـه أكثر قابليةًللتعايش وللاستمراريّة ولتحقيق العدل ولـو نسـبيًا﴾.

قـال الشـاب: ﴿أنـت منّـا يـا ألجـا ونحـن منـك، أنـت جـزء مـن المنظومـة جـزء مـن السلطة، جـزء سفلي جديد مـن جاكوشـا الـذي لا يمـوت، لا يُهـزم، جاكوشـا الراعـي الـذي يعزف على نايه ويضرب بـه، جاكوشـا ماسـك العصـى والسـوط، جاكوشـا الديـن والقانـون، جاكوشـا الأخـلاق، أنـت الآن الجـزء الظاهـر منـه، الأقـرب للشعب، أنـت الآن في المنظومـة وعليك أن تسـاهمي في حمايتهـا، لسـت أداة فقـط للسيطرة، أنـت أيضًـا مسيطرة، وبمـا أنّـك قـد جرّبـت الأمـر ستواصلين فيـه، إلاّ أنّ إرادتك في تحقيق التغيير عليهـا أن تتوقف، التغيير يعني بكل بساطة تهاوى كل شيء وكثرة الهرج والقتل والدم،

لذا يجب أن تفهمي أنّك بخطّتك السابقة ستدمّرين حياة كل الاتك الأغبياء من العوام الذين لا قدرة لهم على تحقيق التوازن بين الإرادة المستقلة لذواتهم وإرادة الآخرين- إرادة الجماعة الحاضنة-، الحياة البشريّة هي حياة الصراع وإنّ المصلحة الشخصيّة هي الرب الحقيقي لكل فرد، وعلى هذه المصلحة أن تذوب في رب آخر أقوى منها تحميه السلطة بأدواتها، لبدّ للمصلحة أن تسيّر، أن تغدو مصلحةً فردية في حدود احترام الأفراد الآخرين في الجماعة وذلك لا يتحقّق إلاّ بردع سلطوي بكل الوسائل الدينيّة والسياسيّة والأمنيّة والإقتصاديّة، وهذا ما يجعلك اليوم تتفهّمين ما كنّا نقوم به طيلة تلك السنوات، الأمر ليس شرًا كما يبدو، بل هو خير مفروض بنفس أدوات الشر، ولذا عليك أن تحاولي الأن ومن خلال أوامرك صناعة الإستقرار والثبات لتحقيق السلم الأهلي، لا صناعة التغيير الخطير، إنّ وطننا بحاجة لمسيطر وليس بحاجة لمحرّر، الحرية تعني الدمار، عليك أن تتأكّدي من هذا، أن تتأكدي إنّ الشعب لن يغدو حرًا أبدًا بخلق إرادته في التحرّر، فإن تحرّر الفرد المكبّل من منظومتنا سيصنع منظومة الغاب لنفسه، منظومة أكثر دمويّة ممّا تتخيّلينه﴾

قال الطفل: ﴿عزيزتي ألجا ها أنا ماذا أتعلّم هنا طرق السيطرة على الشعب؟، طرق تطويع العقل البشري لتوجيه ذكائه

لخدمة المنظومة؟، وهذه الطرق ليست بالصعبة إنّها قواعد خمس، قواعد إذا ما استعملها أي قائد سيسطر على الجماعة بشكل كلّي وسيضمن بقائها:

-أوّلاً: الخيال البشري هو الرقبة التي يجب على القائد وضع الحبل عليها، يجب تكبيل الخيال على قدر المستطاع فهناك تولد الأسئلة ويلد معها الفكر والمقاومة، الخيال هو النقطة الأولى التي يجب على القائد ان يضع عليها يده، فنقطة ضعف الخيال البشري أنّه ليس سوى ملكةً للتركيب، لا يمكن للإنسان أن يتخيّل لونًا لم يره في حياته مثلاً، وعندما يرسم الإنسان الحصان المجنّح فهو يأخذ الحصان وأجنحة الطير كلاهما من الطبيعة ثمّ يقوم بلصقهما وتركيبهما في جسد كائن جديد في خياله، إن لم يشاهد الإنسان طيرًا في حياته سيبقى الحصان إلى الأبد في وعيه الخيالي حصانًا بلا أجنحة، ولن يكون للطيور أي وجود، وكذلك إن تمّ حصر الأدوات بين يديه، فمن كَبِر في مناخٍ تُعرّف فيه الحرّية على أنّها حريّة التمساح في أكله، لن يستطيع وعيه أبدا تخيّل الحريّة خارج هذا المجال، فسيبقى مفهوم الحريّة محصورًا في حريّة التمساح في أكل الإنسانوبالتالي لبدّ من خلق الأدوات البديلة للخيال البشري لكبح قدرته على تخيّل ما قد يهدّد المنظومة ككل من خيال.

- أمّا ثانيًا: فعلى القائد التحكّم في الذاكرة، على التاريخ أن يزوّر أحيانا، التاريخ ليس الحقيقة، بل استعمالها، على الشعب أن يتذكّر بالطريقة التي يريدها القائد، فالذاكرة: هي اللوح الذي يراجع عليه الشعب دروسه، والدرس لا يجب أبدًا أن يكون درسًا في التخلّص من السيطرة السياسيّة والتبعيّة الشعبيّة للإرادة السلطوية، على الذاكرة أن تكون حيّة دائمًا بالمواقف التي تعزّز إيجابية السلطة وتجمّل الشمولية الإجتماعية بشكل مطلق، الذاكرة هي الخدعة المسيطرة، وعليها دائما أن تتشكّل في وعي الأفراد بما يعزّز المنظومة الإجتماعية القهرية فيها وممّا يثبّت سلطة القائد أكثر فأكثر.

-أمّا ثالثًا: فعلى القائد أن يصنع نسخة بديلة للأخلاق، فالأخلاق ليست اختيارًا للخير على حساب الشر، بل صناعة الخير ولو كان شرًّا، فالأخلاق: هي ما تحكم السلوك الفردي وعلينا دائمًا أن نشجّع من خلالها على اندماج الفرد في الجماعة، يجب على القائد دائمًا أن يحول دون تبلور وعي أخلاقي يسمح للفرد بتكوين إرادة مستقلّة أو وعي مستقل عن المجتمع، وعلى المجتمع أن يكون قوّة قاهرة في حماية النموذج الأخلاقي القهري في وجه الفرد، إنّ الأخلاق: هي إحدى أدوات السيطرة أيضًا ولا يجب أن تكون مستقلّة بذاتها فاستقلال الأخلاق وتبلورها بترك

المفكّرين المنفتحين على الحريّة، يعبثون بأفكارهم فيها بما يسمح للفرد بالتحرّر سيشكّل تهديدًا حقيقيًا لنظام الحكم والقيادة وهو بمثابة انقلاب صامت وهادئ على منظومة الحكم بصناعة ضمير جمعي أكثر تقبّلاً للحريّة وأكثر رفضًا للقائد الفرد.

- أمّا رابعًا فعلى القائد أن يسمح للجماعة بإلغاء الفرد، فمن خلال وصل أعصاب الأفراد ببعضهم بعض ستتحد عقولهم بصفة آلية مع القائد وسيسيطر عليها بطريقة آلية دون الحاجة إلى تقويض الأفراد بل بترك هذا الأمر للجماعة، فالجماعة في هذه الحالة تتحوّل لفرد واحد قابل للاستعباد أكثر ممّا يسهّل على القائد السيطرة عليه أكثر من تركه يعيش كمجموعة أفراد مستقلّة أعدادهم بالملايين، تمامًا كقطيع الذئاب، كخليّة النحل، كأي قطيع حيواني، المجتمع هو القطيع البشري، إنّ العدوّ الأوّل للمنظومة هو الذكاء البشري، وإنّه لا سلاحًا أقوى في تخدير الشعب وتدمير النواة الذكيّة فيه من جعله يمحي بنفسه الأفراد الأذكياء بداخله ودمجهم في الأفراد الأغبياء، وهذا ما سيجعل الذكاء النوعي يضمحّل في الغباء العام الغالب في المجتمع، ويجعل الغباء يبدو ذكاءً ويجعل الذكاء يبدو غباءً ستشتت انتباه المجتمع وسنلغي الذكاء نهائيًا، وبالتالي تُمحى أي فرصة لميلاد فرد ينافس الفرد القائد في القيادة، وهذا ما سيكسب القائد صورة ذكائه

وعبقريته في الجماعة أيضًا، ومن ثمّ تبلور قناعة ذاتية لدى الأفراد الممحين بداخلها بكونه الأجدر بالقيادة دائمًا.

-أمّا خامسًا: فعلى المقدّسات أن تكون في درجة عليا في المجتمع، وعلى النظام السياسي حمايتها والدفاع عنها لأنّها الأدوات المثلى لتحديد الفكر وتثبيطه، على جميع المفاهيم أن تكون مرتبطة بتلك المقدّسات حتى ترسم حدود لاواعية في وجه الإنسان في كل شيء، ولكي يوظّف الرب دائما لمصلحة بقاء القائد على سدّة الحكم، إنّ هذه القواعد الخمس هي أدوات قاعديّة لأي سيطرة كانت على الشعوب، إنّ الجماعة كائن حي بذاته وهي سلاح القائد في محو الأفراد لأنّه في الحقيقة كل فردٍ مستقل هو مشروع قائد،كل مشروع قائد هو مشروع بديل للقائد الحالي، وهذا ما لا يجب أن تسمح بها السلطة الحاكمة...

على المجتمع أن يكون دائمًا عشًا دافئًا وحاضنًا لكل أنواع الإستعباد والسيطرة السياسيّة، على الجماعة أن تكون لديها قابلية دائمة للطواعية المطلقة وللإستعباد، الجماعة التي تسمح للفرد بالظهور جماعة فاشلة في الإبقاء على سلطتها السياسيّة وهذا ما لا يخدم القائد﴾

قال:﴿وبما أنّك يا ألجا جزء من منظومتنا الآن عليك أن تتعلّمي القواعد الخمس لتساعدينا في السيطرة على الشعب

ووعيه وعلى الإلغاء الدائم والأبدي لاستقلالية الأفراد فيه ومحوهم وذلك من خلال استعمالها لنفس الغاية دائمًا، وهذا ما سيجعلك قائدة معنا، قائدة أبديّة من أجل حماية المصلحة العامة وحماية المجتمع من الانهيار وحماية الوطن من التفكّك﴾.

وبعد تلك الدروس الهامة في القيادة، ظهر كلب في الجماعة، وراح صوت قريب منه يتردّد إنّه الصوت الخامس ﴿ هل فهمتي الدرس جيّدًا يا ألجا، الآن عليك أن تظهري ذكائك في تنفيذه﴾ لقد خيّل لي حينها أنّ الكلام يصدر عن الكلب، وحينها خرج الرجل الخامس من مخبئه يحمل قارورة خمر في يده، ثملٌ لدرجة التمايل، وهو يمسك الكلب : ﴿ على الشعب أن يكون ثملاً دائما، أن يكون مخدّرًا بطريقة تجعله يظن أنّه في كامل وعيه وقدرته، علينا دائمًا أن نبرمجه على نبذ الجيد وحب الرديئ لحماية منظومة الرداءة الغير قادرة على خلق الذكاء، الذكاء احتكار لجاكوشا، احتكار للسلطة، وكذلك هي قوّة الأمر، وتنفيذ القانون، والحديث باسم الرب، وخلق الرب وإعادة تشكيله حسب الحاجة، ولنا احتكار صناعة الخيال وكتابة التاريخ والذاكرة، واحتكار الوعي، والوعي الفردي، واحتكار الفردانية، واحتكار الحريّة، إنّ كل ذاك وأكثر هو ملكية خاصة للقائد ولا يحق لباقي الأفراد حيازتها أو حتّى التفكير في إمكانية حيازتها﴾

ثمّ تأمّل كلبه وقال لي هو ثمل تماماً بحجم كبير من احتقار الشعب ومن اللامبالاة: ﴿ الشعب مثل هذا الكلب، يملك بين أنيابه قوّته على قطع الحبل وعضّ صاحبه وحتّى إمكانية التخلّص منه إن استطاع، ولكنّه يفضّل أن يبقى كلبًا هذه هي طبيعته ولو في وعي الكلب، في وعي هذا الكائن المكبّل وما يُخيّل له، أنّه هو من يمتلك صاحبه ويمتلك الحبل وليس العكس ولذلك فهو يحميه ويترك قائده متحكّمًا فيه وفي حبله، فهو يظن أنّه بحمايته لصاحبه سيضمن لنفسه البقاء، إن علاقة الكلب بالحبل هي علاقة وجوديّة بالأساس الحبل الذي يظن أنّه رابطته بالحياة وبالوجود، الحبل الذي تعوّد عليه لدرجة الإدمان، هذا الكلب يظن أنّه يمتلكني، وهو يقدّس هذه الفكرة ويحميها، وكذلك يظن الشعب أنّه يمتلك جاكوشا ويمتلك وطنه ومقدّساته، وسيضحّي لأجلها إن لزم الأمر، على الكلب أن لا يخسر حبله، عليه أن يحافظ على هذا الوعي المقلوب بالأشياء من حوله، عليه دائما أن يكون كلبًا ليستطيع القائد أن يكون قائدًا، هل تتخيّلين كيف قد تكون ثورة الكلاب؟ إنّها رجوع إلى همجيّة الذئاب، إنّ الكائن الحضاري والمتمدّن هو الكائن الطائع والقابل للسيطرة. إنّه الكلب، اتركي يا ألجا الكلاب كلابًا، لا تحاولي تحريرهم من حبالهم، فأنت أوّل من ستعضّه تلك الكلاب، الأمر في يدك الآن فامّا أن تتركي الكلاب طائعة ومهذّبة أو أن تجعليها تثور على طاعتها فتنقلب

إلى كلاب مسعورة﴾ ثمّ احتمس قليلاً من الخمر وقال: ﴿في كل الأحوال لا أحد سيمنعنا من مواصلة حكمنا للكلاب، الكلاب وُجدت وستبقى كلابنا، وسنحرس احتقارنا لها ولن تسمع بأي ثورة تحريرية لوعيها فقد كبّلت أفكارها بالحجم الكافي لجعلها تتوهّم حريّتها في حبلها، الحبل ليس قيدًا بالنسبة لها بل متعة، إنّ الكلاب تتمتّع بحبلها وستعض أي يد تحاول تخليصها منه... الآن بعد أن استمعتِ لكلام جاكوشا، وشاهدت الحقيقة بعينيك وما أخفي عن الشعب باسم الرب، عليك، أن تتقيّدي الآن بخطتنا وأن تتمسّكي بسلطتنا وأنت الآن بالحجم الكافي من الوعي لتتخلّصي من نرجسيتك، لتحافظي على مصلحة الجميع لكي لا تستشري الفوضى في الوطن، ولكي يبقى الجميع مستقرًا ولنحافظ على الإستقرار..﴾.

قال الشيخ: ﴿ يُمكنُكِ الإنصراف الآن ألجا، وحافظي على الأسرار التي قيلت لك في حضورنا، لا تجعلي أحدًا يدرك ماهية السلطة وأدواتها في السيطرة على الشعب، عليكِ أن تحافظي على سرّ مهنتك، وتأكّدي أنّنا هنا كمجلس جاكوشا، سنبقى دائما في صفّك وسنحميك وسنحافظ على قداستك، وهذا سيكون بنفس حجم إرادتك في الإندماج في السلطة الحاكمة، عليك أن تحافظي معنا على صورة جاكوشا القوي والغير قابل للهزيمة والحكيم

والـذي ليس كمثلـه إنسـان وهـو المخيـف في وعـي الشـعب، وعلـى الـرب دائمًا أن يبقى مخيفًا كأداة للمجتمع لتطويع الأفـراد لصالـح المنظومـة الحاضنـة للسـلطة، أنتِ الآن يـا ألجـا قائـدة رسـمية باسـم جاكوشـا وقد عرفتـي كل شـيء ، عرفتـي كلّ أسـرار السـلطة ومـا يجعل الإنسـان قائدًا، ولا يوجـد أي تبريـر لـك بعـد الآن لكـي تواصلي في مشـروعك، نحـن نتكّل عليـك الآن وعليـك أن تكونـي علـى حسـن تطلّعنـا﴾.

قـال لـي الشـاب وهـو يمسـك يـد الطفـل وقـد بـدأ الكلـب لتـوّه النبـاح: ﴿تفضّلـي الآن يـا ألجـا يمكنـك الخـروج مـن سـتار الحكـم والعـودة لمعبـدك المقـدّس، هنـاك سـتجدين المزيـد مـن عبوديـة الشـعب وقابليتـه للإنصيـاع، اذهبـي وواصلـي عملـك كحبـل آخـر علـى رقـاب خيالهـم، لـن يمنعـك أحـدٌ مـن مواصلـة تسـيُّدك، أنـت جـزء مـن دسـتورنا وقانونـا اليـوم وعليـك حمايـة الطفـل الـذي هـو سـيكون كالوهـو تمسـاحًا كبيـرًا في يدنـا يومًـا مـا، وسنسـتثمر فيـه لتبقـى دائمًـا صـورة جاكوشـا هـي الأكبـر والأقـوى في الوطـن، أنـت معجـزة ألجـا ليـس لأنّـك معجـزة حقًّـا بـل لأنّ الشـعب صـدّق هـذا، انصـرفي إليهـم، واصلـي عملـك المقـدّس، اجعليهـم يصدّقـون أنّـك معجـزة حقيقيـة بأنّـك مقدّسـة حقيقيـة بقهرهـم لا بتحريرهـم، انصـرفي﴾ ...

وفي النظرات الحادة للشاب،عدت أدراجي لأنصرف، لأغادر قاعة الإجرام المقنّن، ذكاء المعبد المخادع، فودّعني الطفل وابتسم الشيخ، في حين واصل السكير شربه والكلب نبحه وكان الكهل قد انصرف، خرجت وأنا أفكّر، خطوة خطوة، فكرة فكرة، لم يكن لديّ الحق في الرد، لقد ذهبت لأغسل عقلي بأفكارهم، لقد تأكّدت في تلك اللحظة من كل وساوسي وإرهاصاتي، لم نكن سوى مخدوعين باسم الدين والتمساح، لم نكن سوى منوّمين من أجل الحفاظ على الإستقرار، إنّ السلطة ليست أداة محو فقط بل أداة مهادنة، أداة استرقاق، لقد اتّضح الأمر جليًا، جليًا كالشمس، كان النظام السياسي ينظر للشعب بكلّ احتقار، يعامله كالكلب يرخي له الحبل أحيانًا ويخنقه أحيانًا أخرى ولكنه لن يسمح له أبدًا بالتخلّص منه لأجل بقاء الكلب كلبًا للأبد، الشعب مجرّد ساحة للسلطة بينما الأجدر أن تكون السلطة ساحة له، كان لي الكثير لأقوله، لأردّ على ذلك الإحتقار ولكنّي حافظت على الصمت مثلما طُلب منّي، لكي لا أظهر في ثوب المتمرّدة.

إنّ تحرّر الأفراد في الحقيقة ليس سببًا مباشرًا في خسرانهم الوعي الإجتماعي، إنّ الفرد الذي تحمي الجماعة حريّته سينظر دائمًا للحريّة على أنّها مكسب الجماعة، وسيحمي جماعته ليحافظ على حريّته، العصبيّة ليست أداة مثلى للحفاظ على

النسيج الإجتماعي، أحياناً المصلحة الفردية في بقائه تكون أقوى في الحفاظ عليه من العصبية، وكثيراً ما كانت العصبيّة أداة نسف لا أداة تشابك، أداة محو لا أداة إنتاج، إنّ المجتمع القوي هو المجتمع الذي يشعر فيه الفرد بكرامته حيث يمارس الجميع وعيه ويساهم بشكل تلقائي في بناء الوعي العام، والعقل الجمعي المتعدّد الخلايا أذكى من العقل الجمعي الأحادي الخليّة الذي تسيطر عليه بؤرة ذكاء واحدة هي السلطة، فالسلطة تمتلك القوّة وعلى الشعب أن يمتلك الأفراد وعلى الأفراد أن يمتلكوا الذكاء ثمّ الذكاء سيسيّر القوّة.

في الحقيقة نظرة السلطة المحتقرة للإنسان هي سبب تكرّس نظرة الغضب والكراهية في أعين الأفراد، هم يشعرون بالإحتقار ولا يعرفون مصدره بالرغم من تلذّذهم لا واعياً بذلهم والمهم، فينتقمون من بعضهم البعض للإنتقام من الألم، فينتقمون في عملهم في إنتاجهم وفي محاربة إبداع أفراد مجتمعهم، ينتقمون في تدميرهم لوسائل الإنتاج، لا قهر بلا مقاومة القهر، ولو اتخذت المقاومة شكلاً ناعماً أو منافقاً، لقد خسر جاكوشا اللعبة معي في الميدان، فوضعني أمام الأمر الواقع، لقد أهداني الحقيقة لأشعر بالمسؤولية اتجاهها، ولكي أنخرط بشكل طوعي بداخلها..

إذن جاكوشا لم يكن سوى صورة، سوى فزّاعة تحمي حقل الفزّاعات الأخرى، لم يكن سوى طفل وشاب وكهل وشيخ وسكير وسادسهم كلبهم، لم يكن سوى مجلساً من الخبث يسيّر حماقة شعب بأكمله، باستعمال الدين، باستعمال الرب، باستعمال الحرّاس، باستعمال البغّاءات، باستعمال التماسيح والأصنام الأخرى، باستعمال الرهبان ومن وصل منهم لدرجة القوّادين، باستعمال الذكاء الجمعي ضدّ الذكاء الجمعي، وللأسف لقد كنت أنا أيضاً جزءاً من المنظومة ومستعملاً من مستعملاتها، كتلك المعابد والحفلات والمدارس وأدوات إرسال المعلومة والخطابات والمحرّمات والقانون وغيرها...

تذكّرت في تلك اللحظات أمّي، اللعنة عليها، وأنا صغيرة ألاعبها في حقل القمح، حين اكتشفت اسم جاكوشا أوّل مرّة، سألتها بكلّ سذاجة: ﴿أمّي من هو جاكوشا؟﴾ أجابت بخوف: ﴿لا تذكري اسمه أبداً حتّى لا تأكلنا التماسيح﴾، سألتها ثانية: ﴿ ولكن يا أمّي لقد سمعت ابنة الجارة تتحدّث عنه قالت إنّه الناطق باسم الصنم الأكبر المتخيّل هل هذا صحيح﴾ أجابت بعفويّة: ﴿نعم هو الناطق باسمه، لقد أعطاه الرب هذه الدرجة العالية، فهو أعلى حتّى من درجة القوّاد، وهذه المكانة ليست مجّانية.

فهو ذكي لدرجة لا تتصوّر، وقويّ لدرجة لا تتصوّر، إن التماسيح قد شرّفتنا بقائد مثله وعلينا أن ننصاع له﴾..

كنت أشعر بالخوف في حديثها، لسانها كان مربوطًا من حيث لا أدري، كانت أمّي لا تثق في سنابل القمح، إذ قيل إنّها يومًا ما قد افشت صديقتها أثناء الحصاد عندما أقدمت هذه الأخيرة بسبّ المعبد، فقطّع جاكوشا لحمها وهي حيّة وتم طهيه أمامها إلى أن ماتت، لقد كانت تخشى كل شيء فآذان جاكوشا في كلّ مكان، وسيستمع لأي شيء يدور حوله أو حول المنظومة، قد تفشيها السنبلة قد تفشيها حبّة القمح، قد تفشيها حبّات التراب، كل شيء كان حولها لم يكن سوى أداة تجسّس في يد السلطة، لقد كانت مهووسة حدّ المرض بجاكوشا، فسألتها ثانيةً : ﴿كيف شكله؟﴾ فأجابتني بسذاجة أكبر من أسئلتي قالت لي ما ورّث لها : ﴿جاكوشا لا يظهر، ولا يموت، لقد اصطفاه الرب وجعله شفّافًا لكي لا يتمكّن أحد من مشاهدته، إنّ جاكوشا خالد، لقد عايشته كل الأجيال، وهذا دليل على اصطفاء الرب له، فهو لا يموت، إنّ الخلود قدرةٌ إلاهية فقط، جاكوشا يا ابنتي في كل مكان، هو الهواء الذي نتنفّسه والماء الذي نشربه، هو حقل القمح وبركته وكل تلك التماسيح، قدّسه الرب وحفظه، المجد لجاكوشا، لا اله إلاّ الصنم الأكبر﴾ ثمّ رفعت يدها إلى السماء وراحت تشكر

الـرب: ﴿يـا رب بـارك في أصنامنـا وفيـك، مجّـد جاكوشـا القائـد واحفـظ نهرنـا وتماسـيحنا﴾...

نعم، مثلما قيل لـي في مجلس جاكوشا، كانت أمّي مثل الكلب بالتحديد، لقـد كانت تشعر بامتلاكها لـكلّ تلك الأصنام والمقدّسات، لقد كانت تشعر بامتلاكها للحبل الـذي في رقبتها، وكانت تقدّسه وتحافظ عليه، مثل باقي الشعب تمامًا، إنّها الحاجة الكلبية في الشعب التي تمنعه التمـرّد على قيوده، إنّها تلك الحاجة لديه لسيّديحكمه ولسوط يجلده،القضيّة قضيّة وعي في الأساس، عندما يفهم الشعب كونه كان مخدوعًا طيلة الوقت بوهم المصلحة الجماعية المركّزة صوريًا في الأنموذج المتخيّل القائد جاكوشا والصنم التمساحي الديني الأكبر المتخيّل، سيحاول الإنتقام من الكذب الـذي لفّه ولو قاوم التغيير في البداية، إنّها معركة إقناع، الأصعب فيها ليس إقناع الإنسان بضرورة تحريره، بل بإقناعه بكونه كان مقيّدًا طيلة الوقت، بإقناعه بكونه لم يكن سوى سجينًا رُسِمَت السماء في سقف سجنه و الأشجار والعصافير على حيطانه فظنّ نفسه حرًا وصدّق ذلك الحريّة ليست ما يرسم لنا، ليست ما يُقال لنا، ليست ما نرثه، الحريّة هي إدراك أبعاد الحياة والموت والوجود وما بينهم وما فيهم بوعي غير فاسد، وعي لم يلطّخه أحد بالأفكار الموجّهة، الحريّة تابى التوجيه، الحريّة هي الثلاث: الممارسة، المسؤوليّة، الوعي.

الحريّة: لا تتجسّد سوى بعد زمن طويل من ممارستها ليتعلّم الإنسان كيف يظبطها تلقائها دون الحاجة إلى رادع، ومن ثمّ إدراك مسؤولياته عن الأفعال التي قد يرتكبها بحريّته، ثمّ وعيه بالحريّة ذاتها ومفهومها وطرق تجسيدها، الحريّة مدرسة وليست مرعى للأغنام لقد تعلّمت الكثير من لقائي مع جاكوشا، لقد تعلّمت إنّ الحقيقة ليست في يد الأغلبية المطمئنّة، تلك الأغلبية المقدّسة للمجتمع والتي تظن نفسها عارفةً بكل شيء، تلك الأغلبيّة التي تتوهّم العظمة والذكاء، تتوهّم أنّ الدين قد أعطاها الإجابات الدقيقة لمجموعة الأسئلة الأهم التي قد تطرأ على وعي الإنسان، تلك الأغلبيّة المخدّرة الّتي تعيش حياةً سعيدة، حياةً هادئة، عقول نائمة، ووعي مربوط، وخيال محدّد، وأسئلة محتشمة، وذاكرة غير قابلة للمراجعة، ومسلّمات غير قابلة للنقد أو الدراسة، بسبب غبائها، بسبب ثقتها بالأفكار التي ورثت لها، وبسبب قناعتها بكونها صاحبة الحقيقة المطلقة والرائعة والمبجّلة، غير مدركة لحجم الكذبة الكبيرة التي تقيّدها وتعمي بصيرتها وطموحها في البحث عن الحقيقة الحقيقيّة، وبوجه آخرذلك لأنّ بعض الحقيقة في يد الأقليّة، الأقليّة الواعية والحاكمة والّتي تسيطر على مدخّرات الأغلبية وعلى وعيهم، تلك الأقلية التي تنسج الحقيقة المزيّفة وتجعل الأغلبية تصدّقها للحفاظ على مصالحها، في الحقيقة لا شيء حقيقي، سوى أنّ هناك دائمًا حاجة حضارية

بشريّة لحاكم ومحكوم، وتلك الحاجة تروّض وتتطوّر حسب البيئة الإجتماعية ونظام الحكم، على الحاكم أن يحتكر بعض الحقيقة المتداولة وأن يصدّر منها للأغلبية بما يشجّع حكمه، أو بتزوير المعطيات وتصدير وهم الحريّة لها وتزييفها، الحقيقة لعبة، تنسج، تصنع، تركّب، تمرّر، تصدّق، ولكنّها لا تقول الحقيقة دائمً، غالبًا ما تكذب الحقيقة لصالح منظومة الحكم، ستبقى الحقيقة حقيقةً ولو كانت كذبة بحجم ما سيصدّقها الشعب.

الصمت في معبدي، في مضجعي، في وحدتي، في تفكيري، وذاتيتي، التزمت الصمت لأنّ الصمت سلاح الضعفاء، ولكنّه أيضًا صوت الحكمة، كان عليّ أن أتعامل مع مجموعة المعلومات التي قدّمت لي بطريقة حكيمة، لقد اكتسبت مسؤولية جسيمة في الحفاظ عليها، كسرٌ يحفظ في غيب السلطة، ويكسر في ثورات الموت، وكمعلومات ممنوعة التداول بين العوام، معلومات يجب لها أن تكون محتكرة للطبقة الحاكمة، عليّ أن أحرق الآن شجاعتي وجرأتي لأتعايش مع السلطة وأندمج فيها، فالآن بمعرفتي بذلك الجزء من حقيقة النظام، وضعت الحديد على لساني، لقد وضعت سيف الحقيقة على رقبتي لقدجعلوني أكثر نضجًا في التعامل مع الشعب ممّا كنت عليه، أصبحت أكثر تعاليًا

مع الطبقة المحكومة، اكتسبت ولو نسبيًا تلك العين الحاكمة المحتقرة للشعب، تعلّمت أن أتعامل بلطف يشبه حنان الرب ولكن كذلك بالقوّة والقسوة نفسها التي لديه والتي تشبه أنيابه، يجب أن أظهر لهم رضوخي، وأن يبدو جليًا لهم كالشمس أنّ جلسة غسيل العقل تلك قد أضفت لمرادها ولا يجب أن أبدو وكأنّي قد رفضت الدرس الذي قُدّم لي لن أتحرّك بحريّة بعد الآن، كل حركة سأقوم بها ستكون لها عواقب ما، يجب أن أدرس خطواتي بدقّة هذه المرّة ويستحسن أن أبتعد عن التصرّف بارتجال...

انتظرت وانتظرت، لا شيء يبدو خارج المألوف الذي عهدته، سلطة حاكمة، لسان لم يعد يقوى على الحديث، عقل لم يعد بمقدوره أن يخطّط. كان علي أن أترك الرب يتّسع مجدّدًا ليملأ فجوات وعائه مجدّدًا، وحدث ما لم يكن في الحسبان وبعد أيّام، تمّت معالجة الشيطان وغدى في صحّة تكفيه لحواري، طلبت منهم إحضاره لمرقدي، وهناك سيكون مبيته وطعامه وحديثه، حاولت الحديث إليه في اليوم الأوّل، ولكن لا جدوى، ما كان له أن يثق في أحد، بعد سنوات من العذاب واللعنة، امتزجت صور الشعب اللاعن وظلم جاكوشا وتألّمه وعدم إعتراف الشعب بتضحيته لأجلهم لتفقده الثقة في الجميع لترسم في ذهنه لوحة سوداء عن الجميع، لقد خانه من كان يدافع عنهم، طعنوه في الظهر من كان يبحث عن إنقاذهم.

في اليوم الثاني، أو بالأحرى في ليلة اليوم الثالث، ولا فرق بين ليل ونهار في أعين إنسان أعمى، شيطان أعمى، خاطبته قائلةً: ﴿يا أيّها الشيطان، هل لك أن تحادثني، لست مثلهم، أنا من انقذك﴾ لم يرد حينها، سألته ثانيةً: ﴿حسنًا أيّها الشيطان هل يمكنك أن تخبرني عمّا قمت به لتستحق اللعنة من جاكوشا﴾ بعد مدّ قصيرة، ثار على خوفه،

على صمته وبصوت مبحوح أجابني حينها: ﴿لست شيطانًا، أنا إنسان، لقد كنت راهبًا، راهبًا مؤمنًا لدرجةٍ لا يمكن تخيّلها، لقد وصلت درجة القوّاد، وكنت لأتجاوزها بعض الشيء، كنت مهووسًا بالدين، كنت مهووسًا بالتماسيح، لدرجة أنّي كنت أريد لقاء الرب بنفسي، لقد آمنت به واشتقت له، وعندما علمت أنّ للوطن حدودًا لا تريد السلطة لأحدٍ تجاوزها، وتسمّى الأرض ما بعد الحدود كما تعلمين بأرض الرب، امتلكني الفضول، أردت أن أدرك الخفايا الرب بنفسي، لقد أردت أن أكسر القانون وأن أذهب للقائه هناك، لقد دفعني الإيمان الديني لتكسير القانون، لم يكن القانون لينافس المقدّسات الدينية بعقلي، خاصة كشخص مؤمن حد الهوس والتطرّف مثلي، تسيطر عليه العاطفة الدينيّة بشكلٍ كامل، عقدت العزم للرحيل لأرض الرب للقائه، تجاوزت الحدود، وصلت سورًا كبيرًا يفصل بين المنطقة المحرّمة المبور

وأرض الرب، وجدت هناك بوّابة كبيرة على شكل فم تمساح يمرّ النهر من خلالها..

إلى الأسفل اتبعتها، كان هناك ممرُ صغير بجانبها، وكان النهر يتدفّق

عبرها كشلاّل في سدّ مائي كبير هناك وكان يحرّك عجلات كبيرة تستعمل لانتاج طاقة غير معروفة هنا، وكان هناك منحدر كبير وأسفل المنحدر كان سهلٌ منبسط جميل تملأه الزهور وقصور كبيرة وجميلة في كلّ الأرجاء، لم تكن الأرض أرض الرب بل كانت أرض شعبٍ آخر، شعبٍ أكثر ذكاءً وأكثر دهاءً وقوّة، دخلت أرضهم، حاولت أن أندمج فيهم طيلة سنتين وعرفت الحقيقة»

سألته حينها: وما هي الحقيقة؟

أجاب بانفعال : لقد كان هذا الشعب وراء خلق ديانة التماسيح هنا وقانونها، من أجل استنفاذ ثروات أرضنا الفنية ومن أجل استنزاف مياه النهر، وفي الحقيقة لسنا الشعب الغبي الوحيد، هناك شعوب كثيرة يتحكّم فيها هذا الشعب الذكي، بخلق أنظمة مناسبة لكلّ شعب، هناك من الشعوب ما تحتاج الدين، هناك البعض الآخر يحتاج القانون، البعض الآخر يحتاج المدارس، والبعض الآخر يحاصر بأدوات المعلومة، فيما البعض الآخر لبدّ له

من كل هذا للتطويع و من يابى تستعمل معه القوّة العسكريّة،وأمّا جاكوشا فعدّة أفراد وليس واحد، إنهم خمسة أشخاص يفكّرون كشخص واحد، يضربون ضربة رجل واحد، ويعيشون الى الأبد وكأنّهم واحد..

كان ردّي: نعم أعلم هذا، واصل...

أجابني: «في الحقيقة كلّ قيادات جاكوشا من ذلك الشعب، هم من يعيّن قياداتنا، وينصّب حكّامنا، ويضع قوانينا، وهم من يختار طريقة عيشنا، وهم من يتحكّم بنا كما يتحكّمون بالحيوانات في الحضائر من أجل ضمان حياة غنيّة ورغدة لهم ولأبنائهم، لبدّ من ضمان حياة ضنكة لنا، وإنّهم يعلّمون أطفالهم طرق صناعة الأفكار لاحتلال الشعوب الأخرى وإخضاعها لهم دون أن تدرك تلك الشعوب بوجودهم، تورّث هذه الطريقة في الأجيال لتواصل للأبد في صناعة الثروة والوعي على حساب الشعوب الأخرى المغيّبة،والجميع يعلم هذا في هذه الأرض، أرض الرب، أرض الشعب المتحكّم، أرض اللصوص والمخادعين، أرض المحتلّين، ولكن لا أحد فيهم ينتفض عليها أنّهم يعبدون هذه الخطّة الشريرة في استغلال الشعوب كما تُعبد هنا التماسيح، أدركت حينها الحقيقة، أدركت غبائي الديني، جميع تلك المسلّمات لم تكن سوى صناعة للسيطرة علينا وعلى مقدّراتنا، لقد أصبت بنوبة فكريّة، صدمة

عقلية واعية ولاواعية، لم اكن حراً أبداً، تمّ اختيار كل شيء لي منذ البداية،

لم نكن أحرارًا أبدًا، لقد اختاروا لنا أن نعبد التماسيح وهم من أحضرها إلى هنا، وليس بالغريب أن لحوم التماسيح هي اللحم المفضّل لديهم للأكل، تربّى هنا تأكلنا لكي تتقص من أعدادنا لكي لا نستهلك الكثير من ثرواتنا ولتحفظ أغلبيتها لهم، ثمّ تحمل التماسيح إليهم لأكلها وهكذا، عندما عدت بعد ذلك إلى أرضنا، تسلّلت إليها كما تسلّلت لأرض الرب، كان المعبد قد أعلن وفاتي منذ مدّة طويلة، إرتديت رداءًا أسودًا، ورحت أجول القرى متخفيًا أحاول أن أفشي الحقيقة وأن أنقذ الشعب وأحرّره من الأوهام، أنّ أحرّره من الصنم الكبير الذي زرع فيه بالتكرار والخنوع والتخويف، لكن إيمان الشعب وغبائه كان أقوى من الحقيقة الضعيفة التي كنت أحملها لهم في يدي، أفشى المؤمنون بالتمساح وجودي، واتهموني بالإزدراء، وكوني كنت في عداد المتوفين أصلاً لدى المعبد، لم يتوانى المعبد عن تسميتي بالشيطان، وهكذا أوجد تفسيرًا لما ارتكبته من صدق في المجتمع، لم يصدّقني احد لأنّي حملت لهم فكرةً صادمةً لما اقتنعوا ولما ورثوه من أجدادهم، لم يتحمّل أحدٌ فيهم ازدراء التمساح، كانت الحقيقة قاسية جدًا عليهم، لم يتحمّلها أحد وكان عقابهم لي،

لمن أراد تحريرهم وإنقاذهم كبيرًا جدًا، مؤلمًا جدًا، تمّ قتل جميع من صدّقني ومن حاول الهروب لأرض الرب، والخروج من هذه الحضيرة الإستعمارية التي تسمّى وطنًا، أحيانًا دولة، أمّا أنا فوضعت في بلورة زجاجية للأبد وعذّبت منذ تلك اللحظة من طرف الأغبياء باسم اللعنة الدينيّة﴾

صُدِمت، لم أجد ما أقوله، لم أتأكّد من صحّة ما كان يقوله، فربّما العذاب النفسي جعله ينطق بهذا الجنون، أمّا وإن كان الأمر صحيحًا، فإنّها كارثة فعلاً، نحن نعيش استعمارًا مقدّسًا، غير ظاهر، خالد ولا يموت، استعمار يشبه جاكوشا في كل شيء، يشبه التمساح في كل شيء، في استعمار كهذا لا يمكن حتّى إقناع الشعب بكونه مستعمرًا، إنّه استعمارٌ خفي باستعمال المقدّسات التي يؤمن بها الشعب ضدّه، ضدّ ذكائه، لمنع أيّ تقدم كان في المجتمع، كيف يمكن لنا أن نصدّق أن التماسيح التي نحبّها تأكل أجسادنا ووعينا لتبادلنا نفس الحب؟ كيف استطعنا أن نكون أغبياء لهذه الدرجة المنحطّة؟؟.. إنّه التوريث، إنّه تلك القناعة العمياء بكلّ ما قد يورّث لنا من آبائنا وأجدادنا من أفكار، وتصديق الرواية الرسمية للسلطة عن التاريخ، إنّه تكبيلنا للأفراد داخل المجتمع لنسقط من حالة إجتماعية بشريّة إلى حالة قطيعية حيوانيّة، ومن ثمّ كيف يمكنهم فعل هذا؟ كيف يمكن لشعب أن يكون شرسًا

لهذه الدرجة؟، اظنّها منافسةً طبيعيّة بين الشعوب، من يمتلك الثروة سيحاول حتمًا الحفاظ عليها ولو على حساب فقر الشعوب الأخرى وتدميرهم، لن يسمح بانتقال الذكاء والثروة إلى شعوب تعتبر استهلاكيّة بالنسبة له وسيتمكّن الشعب المتمكّن، الشعب المتفوّق من السيطرة على باقي الشعوب، ليس عن طريق القوّة بل عن طريق الذكاء، باختيار أنظمتها الحاكمة الفاشلة ومن ثمّ حمايتها، وباستغلال رجال دينها، باستغلال مقدّساتها وقانونها من أجل ضمان عدم تطوّر الشعب إلى الأفضل، إلى درجة شعب متفوّق، فيصبح التفوّق حالة عاديّة، حالة لا فائدة ترجى منها لصالح الشعب المتفوّق، فعندما تتفوّق جميع الشعوب ستدخل في صراع ذاتي سينكسر بعضها وسيتفوّق أكثر البعض الآخر لتواصل الطبقيّة الأميّة، لقد حدّد جاكوشا العالم في خيالنا، لقد جعلنا نصدّق أنّنا الشعب الوحيد في هذا العالم وأنّ الكون ينتهي في الحدود التي تفصلنا مع أرض الرب، أقنعنا أنّ السماء سقف مرفوع فوق رؤوسنا، يحمي نهرًا علوي لكي لا ينهار علينا كالطوفان، لقد جعلنا نؤمن أنّ عضّة التماسيح هي عضّة المتعة، وأنّ أطفالنا هم القرابين المفضّلة لديها، لقد استطاع خداعنا، لقد زوّر التاريخ أمامنا، وجعلنا نصدّق أن الرب قد أنزل كتابًا مقدّسًا ليحمينا، بينما ألّف كتابًا ليمحينا

خفايا الـرب، بـين خطـوط الخيـال ودقائـق الذاكـرة، ينكشـف الوجـه الحقيقـي لـه، يختفـي ثمّ يظهـر، ويعـاود الكرّة بقنـاع جديد، وعندمـا يُـدرك القنـاع، بمعرفـة الماهيـة الحقيقيّـة للوجـه، تظهـر تلك الخفايـا بشـكلٍ جلـي، بعـض النـاس سـيقويهم شـعاعها لمعرفـة حقيقتـه بينمـا البعـض الآخـر سيسـقط مغشـيًا وقـد خسـر قدرتـه على الإبصـار..

إذن، وأعـوذ بالحقيقـة مـن كلمـة إذن، مـن هـذا اللفـظ الـذي يفيد الإستنتاج، في مثل هـذه الظـروف الحلكة، فإنّ السلطة السياسيّة لا تعدو عـن كونهـا إدارة سـجن، عـن كونهـا أداة استنزاف لثـروات هـذا الشـعب، أحيانًا باستعمال القانـون، أحيانًا باستعمال القوّة، أحيانًا باستعمال التاريـخ، وغالبًا باستعمال الديـن

قـال لـي الشـيطان: ﴿لـم يسـتطع الشـعب هضـم غبائـه، فضّـل أن يوهـم نفسـه للأبـد بكونـه الأذكـى، لـم يسـتطع الشـعب أن يبصـر حماقتـه،أو ربّمـا كان يـدرك ذلـك ولكنّـه كان يحـاول أن يديـر ظهـره للصدمـة، ربّمـا أراد الاسـتقرار، ولـو كان اسـتقرارًا مزيّفًـا، اسـتقرارًا في التخلّف، اسـتقرارًا في الإسـتعمار الـذي لا يريـد أن يقـول اسـمه، ربّمـا هـذا الشـعب يريـد أن يخـدع نفسـه، ربّمـا قـد أدمـن الإسـتعمار والإسـتغلال والإسـتعباد، لا يريـد لأحـد أن يوقظـه مـن نومـه، مـن أحلامـه، مـن إيمانـه، مـن تلـك الغفـوة السـعيدة في الغبـاء، انّـي لا

اراك، ولا أعرف اسمك، ولكنّي أعلم أنّك قد قدّست، وأعلم أنّك قد انقذتني ولذلك أنا مدين لك، بفضلك غفر الرب والشعب لي ذكائي وأنقذت من عذابي الأبدي، إنّي أراك ثورة، أنتِ هي محرّكة الوعي وفاتحة الجدل، أنت هي المقدّس الجديد الذي سيلتهم المقدّسات الأخرى﴾

اجبته: ﴿اسمي الجا، وكان العالم يبدو لي قبلك مجرّد سلطة وشعب، حاكم ومحكومين، ولكن فهمت الآن أنّ هناك أطراف ثلاث، شعب متفوّق وسلطة متحاذقة وشعب غبي، لقد فتحت عيني لما لم يكن بمقدور خيالي إبصاره، لقد فتحت عيني لتراكيب الخيال التي صُنعت لنا في هذه المنظومة، عن تلك الحدود الوهمية التي تفصل حظيرتنا البشرية عن باقي العالم، شكراً لكَ يا عزيزي، شكرا لك﴾

لقد تعلّمت منه ما كان ينقصني، الوجه الآخر للحقيقة التي لم يكن النظام يريدنا أن نعرفها، نحن مستعمرون، مستعمرون باسم مقدّساتنا التاريخية والدينيّة، وباسم حريّتنا المزيّفة والغير حقيقيّة، باسم تلك التماسيح التي تأكلنا كلّ يوم، باسم ذلك البؤس والجهل الذي قدّسناه، باسم تقاليد أجدادنا التي حافظنا عليها وباسم حقوق الأموات التي كرّسناها ضدّ الأحياء، وباسم الأمن الإستقرار..

لقد دفعتني الحقيقة إلى البحث عن الإنتقام، خرجت عن صمتي، بحثت عن أداة حادة في أفكاري، فوجدت قدرتي مجدّدًا على تغيير أسس الدين،أسس القانون الذي ينظّم هذه الحالة الاجتماعية المتأخرة لدرجة عالية في العفونة الإيمانية، لم يكن بوسعي أن أصمت أكثر، كان عليّ أن أقوم بشيء ما، أصدرت بيانًا جديدًا،فيه مجموعة قرارات جديدة، لأوضّح لجاكوشا أنّي لم أعد جزءً من منظومته، لم أعد جزءً من هذا الخداع:

« يا أيّها الشعب العظيم، يا معصوبي العيون والبصائر، يا شعب الحضيرة الأغبى بين الحضائر، هاهو الرب يحيّكم بعليائه ويشدّ على قلوبكم المريضة، وأحلامكم الوضيعة، ويرفعكم من درجة مؤمنين إلى درجة مواطنين في المنظومة لكم كلّ حقوق الرهبان وواجباتهم، ولكم جميع حقوق التماسيح وتقديسهم، قرّر الرب تقديس البشر، تقديس الكرامة الانسانية، تقديس الحب، تقديس الحياة، تقديس الحريّة وتقديس المعرفة، لا أحدًا في هذا الوطن سيعذّب ابتداءً من اليوم، لا أحد سيهان، لا إنسان في بلاد النهر سيغدو أقلّ قداسة من ذلك التمساح في النهر، ويتخذ الرب فيكم هذه القرارات الجديدة:

-من اليوم يعود النهر لكم، يحقّ للشعب الشرب منه، السقي منه، يحقّ لكم استعمال مياهه كما تشاؤون واصطياد أسماكه، النهر يعود لكم..

-كما قرّر الرب عدم حرمان الأطفال المحرّمين من زيارة أهاليهم لهم في المعبد أو في القرى.

- كما قرّر الرب إلغاء كل أنواع القرابين المادية والمالية، وهذا قرار لا عودة فيه.

عش أيّها الشعب سعيدًا، عش حرًّا وكريمًا، من اليوم أنت هو المقدّس، ولكم جميع حقوق المقدّسات من حريّات فردية وحريّة التعبير، يا أيّها الشعب، لقد تهاوى الرب إليكم ليغدو حقوقًا للإنسان، ليغدو

حريّة... انتم أحرار»

خرج الشعب عن طوعه، إلتزم قيوده في البداية ثمّ انفكت الأساور وتحطّمت القيود شيئًا فشيئًا وسادت الفوضى، لقد تحرّر كل شيء، لقد حضّرتهم لهذا مطوّلاً وتدريجيًا، كسرت أصنامهم صنمًا صنمًا إلى أن اقتنعوا بإمكانية تغيّير الرب لرأيه، ارتفع العبيد المؤمنين لدرجة بشر ومواطنين، وبدأ الوعي بالحريّة ينبثق من ممارستها بعد تخبّط.

بعد تزمت، وفي لحظة انكشاف، رأى الشعب مكانة الفرد فيه، مكانة الإنسان.

التزم المعبد الصمت في البداية وراقب من بعيد، خلف خوفه
لطوي، بعدما فهم عدم قدرته على إندماجي في منظومته،
الخوف يفقد مركزه في المجتمع لدرجة خطيرة، لقد غيّر
وف مكانه، السلطة خائفة الآن، خائفة من مواجهة الخوف
ـر لديها، السقوط، سقوط أصنامها واحداً تلو الآخر في خيال
ىب، وحينها، عندما اشتدّ الحراك الفكري، اشتدّت معه تلك
ـم البركانية التي تبدوا على محيى الشعب أثناء الثورات، إنّها
، فكريّة، أرسل جاكوشا رسالة يهدّدني فيها، ويلزمني بإعادة
ور إلى نصابها، بإصدار بيان جديد في خطاب جماهيري،
ـدّ الوقت بعد ثلاثة أيّام، لم أجد جوابًا له، خفت على
شـو، خفت أن أكون قد انقذت شعبًا جاهلا وناكرًا للجميل
خسر طفلاً صغيرًا وصاحبًا للرأس الكبير، ولكنّي وافقت
، كنت أبحث عن طريقة أخرى للإنقلاب عليه أكثر فأكثر.

حضّرت السلطة كل أدواتها من أجل إحياء أكبر خطاب
ميري في تاريخها، حُشِدت كل الطاقات والموارد، ووضعت
اسي والمدرّجات، كان لبدّ للخطاب أن يصل كل أرجاء القرى،
جاكوشا يرى في معركة الوعي الحل الأمثل لإعادة الشعب
طوع الإستعباد، إعادة الحبل لرقبته، إعادته لدرجة الكلب
تعوّد دائمًا أن يكون، إذ يبدوا أنّ الكلمة الحرّة كانت أقوى

من كل ما زرعوه من شر طيلة تلك السنوات، وكان من البديهي استعمال نفس الكلمة لإعادة القطيع إلى الحظيرة، إعادة الوجود إلى المحو، إعادة العيون إلى عميها، إعادة العقول نحو أساورها، إعادة الحريّة إلى سجنها.

وقفت أمام الجماهير مخاطبة، لم يكن لديّ شيء أقوله في البداية سوى تلك المكرّرات العاديّة التي يسمعونها كلّ يوم كانت هذه فرصتي الأخيرة في إبرام تصالح مع جاكوشا والإندماج مجدّدًا في السلطة الحاكمة، خاطبت الشعب لساعات، قصصت عليهم مسلّمات الدين، مسلّمة مسلّمة، كنت مرتبكة لدرجة أنّي كنت أبحث عن أي طريقة كانت من أجل ربح الوقت، قبل أن أضفي لما أراده جاكوشا، لم أكن في استعداد على الإطلاق لنسف كلّ ما حقّقته من تحرير للرب في الوعي العام، وخلع مخالب تلك المنظومة القهريّة التي فرضت نفسها باستعمال المخيّلة المخيفة للشعب، لم يكن بمقدوري أن أشارك في عمليّة دفن العقول الجماعي، لم يكن بمقدوري أن أشارك في خداع هؤلاء البسطاء ولو كانوا أغبياء، كنت أعلم أنّهم سينساقون مجدّدًا وراء أهواء هذه الحثالة البشريّة التي تتحكّم فيهم باسم التماسيح، لن أعيد الأطفال إلى الموت، لن أسمح لأي تمساح بأكل البشر، لن أسمح لأي مقدّس بالتهام الوعي، ولّما اطلت في الخطاب أحضر لي أحد

الرهبان ورقة من السلطة لكي أقرأها على الشعب كتب عليها (يا أيّها الشعب المذلول، لقد عاد الرب إلى صوابه، عاد صنمًا مجددًا، ويعتذر لكم على سوء التفاهم بسبب شربه لكميّات عالية من الكحول قبل تحريركم ويطلب منكم التزام قيودكم الدينيّة والعودة مجددًا للاستسلام الطوعي للتماسيح ولسلطة جاكوشا ولنبذ المعرفة ونبذ الحب ونبذ الحريّة، إنّ الحريّة سم قاتل، والوعي رجس من أعداء التمساح، لا تستخدموا عقولكم، لا تفكّروا، لا تسائلوا، لا تشكّوا، اقتنعوا بما يخبركم به المعبد الديني ونفّذوا ما تطلبه منكم السلطة الحاكمة، القوا أبنائكم للتماسيح، وقدسوا ربّكم الصنم المتخيّل في رؤوسكم ولا تعصوا له أمرًا ، ابنوا له المعابد وأخرجوا له الضرائب وقدّموا أرواحكم فداءً له، واعبدوه، وتقرّبوا منه، وقدّسوا تقاليد أجدادكم والجماعة وامحو الفرد بداخلكم، إن الرب أعلم بكم وبحالكم).

إذن هذا ما كانت تريد السلطة الحاكمة منّي قوله، أرادت أن تعيد الفرد إلى جماعته لتتحكّم مجددًا فيه باسم نفس الجماعة، كانت تريد محو الإنسان مجددًا وكبح قدراته الفكريّة وتوقيف آلية ذكائه، في تلك اللحظة تملّكني رعب شديد، كان عليّ أن أقوم بشيء ما، نطقت بصدمة كبيرة، بحالة مربكة ببعض ما جاء في الرسالة ثمّ تأمّلت صدمة الشعب في حزنه، كانت وجوههم

متحسّرة عمّا قد تخسره من حرّية ووعي وحقوق، لقد تعوّدوا عليها وسار من الصعب تخيّلها تطير من بين أيديهم إلى تمساح السماء ليلتهمها مجدّدًا...

تأمّلت الرهبان، تأمّلت بيترام، تأمّلت أوجاشو، تأمّلت بيشان، تأمّلت الرسالة مجدّدًا، تأمّلت السماء، ذلك السقف المرفوع الذي لا يريد أن يهوي، تأمّلت قلعة الدين والجبروت وأعضاء جبهة انقاذ التماسيح، تأمّلت كلّ شيء، ثمّ مزّقت الورقة وصرخت بقوّة: ﴿الرب لم يغيّر رأيه، أنتم أحرار، ويأمر المعبد بتنفيذ هذا القرار المهم، جاكوشا لم يعد محرّم الظهور، على جاكوشا إظهار نفسه﴾ هتف الجميع سعيدًا في تلك اللحظة وهم ينادون بأعلى أصواتهم: ﴿جاكوشا أظهر نفسك، جاكوشا أظهر نفسك، جاكوشا أظهر نفسك﴾، زاد الهتاف ولم يجد المعبد حلاً سوى بفضّ الجماهير باستعمال حرّاسه وبالهراوات، وحملت بالقوّة إلى مضجعي وزادت الحراسة عليه، قلبت القلعة رأسًا على عقب، لقد تكسّرت أسطورة جاكوشا في لحظة واحدة، تكسّر صنمه، لم يعد له حقّ التخفّي، فلن يكون له الحق في الخلود، لقد أسقطت القناع عنه، لقد وجّهت له أقوى ضربة كان ليتخيّلها، أحسست أنّي انتقمت لكل شيء وصرت متأكّدة أنّه لن يتوانى عن أذيتي أوحتّى قتلي.

ابتداءً من صبيحة ذلك اليوم،تغيّرت الصورة تمامًا، جاكوشا لم يعد مخفيًا بأمر من الرب، لم يعد سوى إنسانًا مثل الجميع، كُسر تمثاله الكبير الذي كان يحول بين الشعب وحريّته، ثار المتطرّفون التمساحيون ضدّ الإرادة الجديدة للرب، لم يكن لذلك التمساح أن يغيّر من طبيعته القهريّة والقمعيّة،حشدت جبهة إنقاذ التماسيح قوّاتها وراحت تحاول قتل اي شخص ينفّذ اوامري، أي شخص يؤمن بحريّته وكرامته، وكل من يؤمن أو تؤمن بالمساواة، لقد كفّرت الخارج عن سيطرة الحاكم واستغلاله، واعتبرت أي شخص يخرج عن طور العبودية ويدخل طور الحريّة مجرّد شيطان وطاغوت، وحرّمت الوعي والمعرفة...

راحت تدعوا الناس بكلّ قوّتها لنكراني ونكران الإيمان بما جئت به لهم، وبإلقاء القدر المستطاع من الأطفال إلى التماسيح للتكفير عن ذنب الإنصياع لأوامري، فبالنسبة لها الرب لا يمكنه أبدًا أن يحرّر الإنسان، بالنسبة لها لا يمكن للرب أبدًا أن يغيّر رأيه، لبدّ دائمًا له أن يكشّر عن أنيابه وأن يأكل الناس، وأن يفرض سلطة الجماعة على الفرد، المجتمع على الإنسان، الدين على العقل، الخرافة على الوعي، الإحتقار على الكرامة، العبودية على الحريّة، الجهل على المعرفة، الإيمان على التكفير....

لقد اتّضح الأمر أكثر وأكثر، لقد كانت جبهة إنقاذ التماسيح متحالفةً مع النظام، مع جاكوشا. لقد كانت مسيّرةً من طرفه، كانوا هم أيضًا جزءًا من تلك الحيل التي يقوم بها معبد القوادة للسيطرة على الشعب وكان واضحًا جدًا أنّ جاكوشا قد حرّكه ضدّي، ضدّ الثورة الفكريّة والثقافية التي نشبت نيرانها في سيطرته، لقد كانوا خونة مستعملين، يرتدون غطاء الدين للسيطرة على الشعب وإعادته إلى حظيرة العبيد وفي الليل جاءتني بيترام تسكنها الرهبة والخوف بعد أن تجاوزت الحرّاس بصعوبة،

قالت لي لاهثةً: ﴿ألجا ألجا أنقذي بجلدك، إهربي سيقتلونك، استرقت السمع

لحضور جاكوشا، لقد سمعتهم يخطّطون لقتلك، سيقتلونك ويقتلون الطفل، ثمّ سيدّعون أنّ الرب قد رفعكما إليه، وأنّك قد تركتِ رسالة للشعب تأمرينهم بالعودة للذل والهوان والرجعية، وقد أحضر أب الطفل لكي يكون هو الناطق الجديد باسمكما لتملى له الأوامر بدلاً عنكما فيما بعد وقد قبل بهذا الدور الخسيس،إهربي يا ألجا إهربي، أنقذي حياتك وحياة الطفل الصغير﴾

سألتها: ﴿هل شاهدك أحدٌ وأنت قادمة صوب معبدي﴾ أجابت: ﴿لا أعرف﴾ فقلت لها: ﴿حسنًا يا بيترام عليك الإنصراف الآن عزيزي قبل أن يراك أحدهم، فكما تعلمين فقد منعوا عنّي

الزيارات﴾ أجابت: ﴿حسنًا، سأذهب ولكن احذري أرجوك، اهربي لا اريد رؤيتك تقتلين﴾، فأجبتها: ﴿لا عليك، هيًا انصرفي الآن عزيزتي﴾

ودّعتني ثم تأمّلتني قليلاً ومن ثمّ جرت نحوي وعانقتني وقالت لي: ﴿شكرًا الجاء، شكرًا لأنّك حرّرتنا، أنت معجزة حقًا، أحبك، لقد انتقمت لي، وانتقمت لكلّ ضحايا التمساح عبر التاريخ،﴾ عانقتها أنا أيضًا ثمّ قلت لها: ﴿ضحايا التمساح اختاروا أن يكونوا ضحايا للتمساح بأيديهم، لم أنتقم لهم، بل انتقمت للأجيال المقبلة حتّى لا يختار أحد بعد الآن إلقاء نفسه للتمساح بيده، الآن إهربي ولا تضيّعي الوقت أرجوك، إهربي ولا تنظري خلفك﴾

بعد مغادرتها، هممت إلى نفسي أفكّر في حلّ جديد، يخرجني من هذه الورطة الدينية السياسية التي وقعت فيها، فمن جهة نظام سياسي يخطط لاغتيالي، ومن الجهة الأخرى جبهة إنقاذ التماسيح تحرّض الشعب ضدّ أفكاري الحداثية ليعود أدراجه ويتنكّر لي، وإن حدث وقتلتني السلطة وخابت خطّتها وكشف الشعب مقتلي، ستلبس السلطة الجريمة في إحدى أتباع جبهة إنقاذ التماسيح وبمباركة هذه الأخيرة، ستصبح الجريمة جريمة تطرّف ديني وليس صراعًا لأجل السلطة، سأمحى نهائيًا وسيهزم

مشروعي أمام جبروت جاكوشا، والأسوء من كلّ هذا أنّهم سيقتلون صاحب الراس الكبير أيضًا لم أكن لأسمع بهذا، أيقظت الراهب الشيطان من غفوته وأخبرته بفكرتي الجديدة: ﴿ انهض يا شيطان، سنفرّ مع بعض إلى أرض الرب أنت وحدك هناك هم يخططون لقتلي،ما العمل؟ يجب أن نفر يجب أن نفر على هنا﴾.

اجاب: ﴿حسنًا، هذا ما أردته أنا أيضًا علينا أوّلاً أن نجد قاربًا لأخذنا إلى نهاية الفرع السابع للنهر، ومن ثمّ من هناك علينا أن نجد أحصنة لأنّ باقي النهر محروس من طرف حرّاس أرض الرب وسيقتلوننا، عندما سنتوغل في الحقول والأراضي والسهول الشاسعة سنصل إلى البوّابة الكبرى وهناك سندخل الباب الصغيرة بجانبها سنحاول رشوة الحرّاس، علينا أخذ ما يكفي من الذهب لذلك معنا﴾

فكان ردّي حسنًا: ﴿ سأبحث عن ردائين أسودين يكفي تغطية وجوهنا أمام الناس، سنفرّ عن طريق بوّابة المعبد لقد نسي جاكوشا وضع حرّاس هناك﴾

دخل بيشان: ﴿ما بك حبيبتي إلى أين أنت ذاهبة؟﴾

أجبته:﴿ سأهرب يا حبيبي سأحاول النجاة فجاكوشا يخطّط لقتلي﴾

أجابني: ﴿وستتركينني وحدي هنا، ساشتاق لكي كثيرًا إن فعلتي، أرجوك لا تهربي، أنت أقوى من الفرار لمن ستتركين كل هؤلاء المؤمنين، كلّ هؤلاء العبيد المذلولين، إنّهم عبيدك﴾

أجبته: ﴿لا يا بيشان لم أحاول يومًا استعبادهم، بل استغللت ذلّهم وعبوديتهم لإقناعهم بالتحرّر وبأنسنة ذواتهم للإرتقاء إلى الحالة البشريّة، لا مكان لي يا عزيزي في هذا المكان الديني الفاسد، مثل هذه البقعة الدينيّة لا تصلح إلاّ للقوّادين مثلك حبيبي، أمّا أنا فحرّة، ربّما هذه الكلمة قذرة وغير مؤدّبة في أعرافكم الدينيّة ولكنّي كذلك، حسنًا يا بيشان أنا أحترم قوادتك للدين وللسلطة، ولكنّي أحمل من الوعي ما يكفيني لأنثر نفسي بعيدًا عن معاجمكم الإستغلاليّة، وداعًا حبيبي سأذهب﴾

سألني بيشان: ﴿ولكن إلى أين ستذهبين؟ العالم ينتهي هنا، إنّه الوطن الوحيد، نحن الشعب الوحيد: والدولة الوحيدة﴾

أجبته باستهزاء: ﴿هذا ما يخيّل لك عزيزي﴾

ثمّ ودّعت بيشان وانصرف بسرعة، بينما عدت لأبحث عن ردائين يفيان بغرض الفرار، حملت أوجاشو بين يدي، عانقته مطوّلاً، خفت أن أفقده، وتذكّرت يوم ارتبط مهبلي بمهبل أمّه بتلك الخيوط الشفّافة التي أحسست بها وهي تشدّ عليّ وتزرع

انقبضاتها في رحمي، شعرت بالم الولادة، الم الدين أيضًا. وفي ذلك الوقت، تسلّمت أمومته أيضًا، إنّه ابني: سنفرّ بعيدًا إلى عالم الرب، إلى أرض المستعمر...

تأمّلت من النافذة، كلّ المنافذ. شاهدت كل نقاط الحراسة، عقدت العزم أن نفرّ في مساء اليوم الموالي، في وقت الصلاة الكبرى التي يقيمها الرهبان في بلاط الحكم بالقلعة..

حاولت النوم قدر الإمكان في تلك الليلة لكن دون جدوى، كانت أفكاري تحاول التقاط أنفاسها بعد حرب ضروس قدتها ضدّ المعبد، حرب فكريّة متعبة، خضت فيها كلّ أوجاعي ضد العالم الديني الفاسد، وبكلّ أفكاري وقدراتي العقليّة. إنّ أقوى سلاح في وجه الجبروت، هو سلاح العقل، هو الذكاء، هو الوعي: لم يكن خيالي أبدًا مربوطًا بحبالهم، لم يكن بمقدوري أن أترك أصابع أمّي تفرّ بعيدًا، عندما أخذني الراهب من طفولتي، كنت متمسّكة بسنبلة قمح خضراء، سنبلة قمح من عالمي ذاك، عالم ما قبل الفساد، أو ما قبل إدراكه، لم أفلتها من يدي، أخذتها معي إلى عالم السواد، إلى معبد التماسيح، كنت أحادثها دائمًا، وضعتها تحت الوسادة، وأخبرتني يومًا ما في حلمي: ﴿التماسيح ليست آلهة، الآلهة نفسها ليست آلهة، كلّ المقدّسات مجرّد أدوات قهر،

كل المناجل مجـرّد أدوات استغلال وحصـد، لا تتركـي أحـداً يسجنك ليحصـدك فيمـا بعـد، هـل تعلمـين فيمـا أخطـات السـنابل لتحبس بين التـراب والمنجل؟ أجبتهـا: ﴿لا﴾ فقالـت لـي: ﴿إنّهـا لـم تقبل الحـراك، أرادت أن تبقـى ثابتـة في مكانهـا، لـم تـرد أن تتخلّص مـن تلـك الطبيعـة المهينـة التـي لأجلهـا تزهـق أرواح النباتـات بـكلّ استهزاء بأرواحهـا وألمهـا، مـن ذلك الجمود النباتـي الخسيس، الـذي يجعل الآخـر يتجاهـل حياتهـا وألمهـا بكلّ احتقـار، ذلك أنّ مـن طبـع النباتـات الصمـت، الثبـات، الإسـتقرار، إنّهـا تمثّـل الجمـود، ومـن عـدم قدرتهـا علـى التعبيـر ونقـد ذاتهـا، ولا محاولـة تغييـر حالتهـا، إستنتج الإنسـان حاجتهـا للمنجـل، ألجـا لا تكونـي جامـدةً، ثـوري علـى كل شـيء، كونـي أوّل ألجـا، أوّل حبّـة قمـح تختـار الحـراك، تختـار الثـورة علـى الفزاعـة، التـي تدّعـي حراسـتها وهـي تخطّط ليـوم الحصـاد، اكسـري المنجـل يـا ألجـا، اكسـري المنجـل﴾

اخترت الحـراك، اخترت الحريّـة، لقـد استمعت للسـنبلة، استمعت لتلـك الثـورة التـي بداخلـي، لرفضـي لذلـك الجمـود، استمعت لقلادتـي، ولصـوت أمّـي والتـي لعنتهـا فيمـا بعـد، استمعت لصـوت المظلومـين، للصرخـة الأولـى لصاحـب الـرأس الكبيـر هـذا بعـد ولادتـه، ولصرختـه الأولـى في رأسـي قبـل أن أصلـب، وكسـرت المنجل، كسـرت كل أدوات القهر والسـيطرة، ثم يا صغيري سأحميك

مجددًا ودائمًا، لن يمنعك أحدٌ عن الحياة ولو ضحّيت بنفسي لأجلك، سيكبر رأسك، وسيكبر عقلك بداخله، وستحطّم جاكوشا وقلعته وستحرّر هذا الشعب المقموع ذلك أن الرؤوس الكبيرة التي تحتوي العقول الكبيرة هي العدو الأوّل لهذه المنظومة التجهيليّة والتركيعيّة...

وقع ما لم يكن في الحسبان، توقّف العالم عن الدوران في عيني، توقفت الحياة والموت، اندمجا الإثنان في انعدام واحد، لقد باشرت السلطة انتقامها، فتحت صباحًا عيني على الضوء، وجدت صندوقًا أسودًا في مضجعي، لا أعلم من قام بإدخاله هنا، قمت من مكاني بائسةً ومحطّمة وكانت أفكار الهروب وخططه تأكل كل عقلي، اتّجهت صوب الصندوق، فتحته، فتحت الموت، وجدت رأس بيترام بداخله، لقد قُتلت، قتلها النظام لأنّها تعاطفت معي، ولأنّها أفشت سرّه،قتل تلك الفتاة الصغيرة التي اختارت أن تصمت من البداية، تلك الطفلة البريئة التي سيقت يومًا ما إلى عالم لا تعرفه، عالم الفضيلة المزيّفة التي تلبس رداء الدين، كان الراهب يحملها على كتفيه، يحملها كما تحمل الأرض وزر البشر، حُملت كذنب يستحقّ اللعنة، ثمّ قُتلت وقُطع رأسها بكلّ احتقار،اختار لها القدر أن تكون عاهرةً للسلطة باسم الرب، استغلّ جاكوشا جسدها وهي صغيرة، وهي لا تعرف شيئًا عن العالم سوى تلك الضوضاء المخفية بين فصوص الكتاب المقدّس،

تلك الضوضاء المتعكّرة في بشر دين التمساح، رضاءً الإرادة نفس التمساح، سقطت مشاهدها على عيني دفعةً واحدة، لقد عانقتني مطوّلاً، رأسها المقطوع، كانت صديقتي، قتلوها، كل شيء تمّ حصره في الصندوق الأسود، ذكرياتها، طفولتها، عهرها المقدّس، كفرها شعرها الطويل وخصلاتها التي راقصها الدم، عيناها المفتوحتان، فمها المبتسم، المرخي، وجهها المزرّق المصفر، إنّه الموت أكل صديقتي الأولى، الوحيدة، الأخيرة، الميّتة، سقطت على الأرض أبكي، أتذكّر، أسترق النظر لخيالي لأبحث لها عن مكان هناك بين كل من ماتوا، بين ضحايا الدين الذين كنت أعدّهم واحداً تلو الآخر، ضحايا هذه السلطة السياسيّة الماكرة: ﴿لقد زهقوا روحك عزيزتي، زهقوا روحك أولائك الأوغاد، أوغاد الدين، أشباه البشر، التماسيح القذرة، يومًا ما سيسقط هذا النظام البغيض وستعلو العدالة يا بيترام، لم يقتلك أحد، ستعيشين للأبد حرّة بعيداً عن ذلك العهر الذي اختير لك باسم المقدّس، لم تكوني أبداً حيّة مثل اليوم، قتلت يوم حملت قهراً إلى هذا المعبد، وامتلأتي حياةً يوم قُطع رأسك، فلتذهب روحك وحياتك إلى قريتك من جديد، فلتحضن إخوانك الثلاث، فلتموتي ميتة الكرامة والنضال، أحبّك صديقتي، أحبّك، وداعًا...﴾

سمعت صوتها في رأسي يقول لي: ﴿ إهربي الآن يا الجا، إهربي الآن، ليس هناك الكثير من الوقت، عليك المغادرة﴾

حملت الصندوق الأسود وكأنّي أحمل كلّ مآسي هذا الشعب، حملت غفرانها وخطاياها، حملت ثقل حياتها ولم أبحث عن باقي الجسد، سأدفن هذا الرأس في أرض الرب، حيث المستعمرون، حيث من خلقوا لنا هذا البؤس الديني الملتهب، ليحرقوا شعبنا للأبد، ليسيطروا علينا للأبد، لكي تستعمري من أرضهم بعض المساحة، لتنتمي لجسدك الذي دنّسوه، سنخترقهما معًا يا عزيزتي

حملت ما يكفيني من ذهب وفضّة، ومن مأونة غذائيّة في كيس قماشي كبير وربطه على ظهري ثمّ ربطت صاحب الرأس الكبير على صدري، وارتديت الرداء الأسود الذي غطّى رأسي، كان عندها الرهبان يحضّرون للصلاة الكبيرة ممّا منحني الوقت أكثر للتخطيط والفرار..

ألبست الشيطان ردائه أيضًا، وحملت صندوق بيترام في يدي، وألقيت الرداء على أوجاشو وقد غطيت فمه بقماشة صغيرة حتّى لا يصدر صوتًا فيفضحنا، وتركت له فتحة في الرداء للتنفس، مررنا على معبدي، أخذت هناك بعض أموال المتبرّعين، وخرجنا خلسة أنا والشيطان سويًا

وأنا أحركه في كرسي بعجلات خشبيّة صنعه له الأطبّاء الرهبان بسبب ركبتيه المهشّمتان، سألته قبل ذلك، ﴿لمّا ننتهي إلى الفرع الأخير للنهر أين سنجد الأحصنة لنواصل المسير؟﴾

أجابني﴿في القرية الأخيرة، والتي تسمى قرية الموت، حيث يقتل تقريبا كل شخص يصل سنه الأربعين سنة، هناك سنجد إصطبل أحصنة يملكها المعبد، سنشتري عربة وحصان بسهولة من هناك، بالرغم من أنّ الأمر ممنوع، ولكن هناك من يقوم بهذا سرًا دائمًا، يكفي فقط أن نسأل ليكون لنا مرادنا﴾

لقد اتّضحت خطّة الفرار أكثر، وثقت في الشيطان كما لم أثق أبدًا في التمساح،خرجنا من القلعة بشقّ الأنفس، مررنا بين الفجوات ببعض الخوف، والكثير من الشجاعة إلى أن انتهى بنا المطاف في المدينة الكبيرة. اتجهنا نحو الميناء الصغير بالنهر، وهناك وجدنا بحّارة يخيطون شباكهم وتفذنا إليهم دون أن يتعرّف علينا أحد، عرضت على أحدهم بيعي قاربه الذي يبدو وكأنّه يكفينا، أعطيته بعض الذهب فوافق سريعًا، هناك خرج بيشان من حيث لا أدري ومعه أربعة حرّاس يطلب مني العودة إلى القلعة: هيّا يا الجا، فلنعد مع بعض إلى المعبد﴾ قلت له بكل براءة: ﴿ولكنّي سأقتل إن عدت يابيشان﴾ أجابني بكلّ خبث: ﴿لا تضطرني لاستعمال القوّة هيّا تعالي معنا دون إثارة المتاعب﴾، لقد وقفت

أمام صدمة كبيرة، لقد خدعني رجل الدين مجدّداً، لقد خدعني وكأنّ الخداع سمةً دائمة في رجال الدين، سألته في ذلك الوقت بكل غضب: ﴿لما تفعل هذا يا بيشان اتركني أنصرف﴾، أمسكني من يدي بقوّة ثمّ قال: ﴿ لقد كانت فكرتي إحضارك للمعبد حتّى لا تشكّلي سلطة موازية في خيمتك في قريّة مهتابا واستحققت فيما بعد بذلك درجة القوّاد، أنا قوّاد يا ألجا، قوّاد، وهذا دوري هنا، هيّا معي الآن ولا تثيري المتاعب﴾ كان السيف يتدلّى من خصره، لم أستطيع تملك نفسي، رميت يدي إليه وأخرجته من غمده وطعنت بيشان به، لقد غرزته في جسده وقتلته، قتلت القوّاد، قتلت المخادع، ثمّ بصقت على وجهه:﴿ فلتأكلك تماسيح السماء أيّها القوّاد الأشم﴾، هاجمني الحرّاس فأشهرت لهم سيفي وأظهرت وجهي للبحّارة مردّدة ﴿أنا حارسة الرب آمركم بقتل الحرّاس فهم يتآمرون علينا وعلى ديننا﴾ اغرورقت عيون البحّارة بالدموع خشيّة وإيماناً ونفّذوا أمري بكل انصياع سقط الحرّاس قتلى كالذباب، لقد ساعدني الإيمان الساذج للبحّارة بالدين على رسم حالة من الخشية في وجههم وانصياع تام من عقولهم وهكذا وبدون تردّد قتلوا الحرّاس بدم بارد ذلك أن جريمة القتل ليست جريمة إن كان المقدّس ما يدعو إليها، و من ثمّ أمّنو لنا الطريق، ساعدوني على وضع الشيطان بداخل المركب ثمّ ركبته بعد تحيّتهم: ﴿ بوركتم أيّها البحّارة، وبورك عملكم﴾ خرّوا

لي ساجدين حينها، ورحت أجدّف وأجدّف بعدها على امتداد قسمات النهر، دون أن يلحق أحد بي،

لقد قتلت بيشان، قتلت ذلك القوّاد الديني بدم بارد، لقد خدعني لم يكن إلاّ جاسوسًا من البداية، لا ينفع رجال الدين سوى للقوادة وللوصصة، هم إحدى استعمالات السلطة، واستعمالات الإستعمار، قدرتهم على إقناع المؤمنين تجعلهم التجارة الرابحة لأي قائد فاسد، هم عنوان الخداع الأسمى ولا ثقة فيهم، اللعنة على بيشان أيضًا، قتلته إلى الأبد، كإنسان وضيع، كتمساح، اللعنة عليه هو كذلك فليمت إلى الأبد جدّفت بين عمي الشيطان وظلم السلطة السياسية،

بين مخاوفي في الإتصال بعالم الموت وشجاعتي في تحطيم أسوار هذه القلعة الدينيّة الإستعماريّة الظالمة، جدّفت بقوّة، بعناء أحيانًا، في عالم ديني جد فاسد، غير أخلاقي، الخيال فيه أداة فرار خطيرة، الذاكرة فيه صناعة قاتلة، التمرّد فيه ثورة هدّامة، البناء فيه مجرّد معابد، جدّفت وكنت قد نزعت القماشة عن فم جاكوشا ساعة قبل ذلك، تركته يبكي في صدري، رأسه الكبير كان يزاحم أثدائي على المكان، تركته يعيش لحظاته التي يمكن أن تكون الأخيرة ليعبّر عنه نفسه، لن أمنعه الصراخ فيتحوّل إلى مؤمن مقموع، لم ارتح للهدوء الذي كان يلف القارب كالضباب، ذاك

الهدوء الغريب كان ينبيء بثورة غضب، سيعلم جاكوشا بالتأكيد بأمر بيشان وحرّاسه، سيحمل جثثهم وسيبحث عنّي، وبين قلقي المتزايد وأفكاري التي تتنبأ بسقوط هذه المنظومة الفاسدة واصلت التجديف، واصلت لأنّي أريد أن أنقذ هذا الطفل أيضًا ومجددًا، كنت منهكةً لم أتعوّد على التجديف بهذه الطريقة، كان القارب يتحرّك ببطء، ابتعدت القلعة قليلاً ولكنّها لزالت تظهر، لازلنا على مرمى رماح ذلك المارد القاتل، بعد ساعة فقط شاهدت في الأفق بعض القوارب تتّجه صوبنا ممّا جعلني أغيّر اتجاهي إلى قرية المحاذية، لم أرد أن أخاطر، قد يكون جاكوشا ورجاله، أو أحد مرتزقة الدين، كنّا في خطر محدق، خطر وشيك، كلّ صلاة تعقد في معبد ما هي سيف يطعن في ثورتنا أيضًا، كل شيء كان يهدّدني، حتّى صورتي في الماء، خفت من كل شيء، وكنت خائفةً أكثر على حياة صاحب الرأس الكبير، نزلنا من القارب، أخذت الكرسي الخشبي المتحرّك للشيطان وفررنا مشيًا حينها، وسط زخم أهالي القرية، تتبّع المبدأثارنا، كان حدسي يفشي لي خطواتهم، مررنا من القريّة الأولى فالثانية، كان علينا أن نشتري العربة قبل القرية الأخيرة، لم يكن بمقدوري أن أمشي على قدماي لأكثر من ذلك لقد تعبت فعلاً... أخذنا الحصان المناسب وعربته المناسبة، وضعت الشيطان وانطلقنا في رحلة امتدّت لأسبوع، قطعنا فيها كلّ مخاوفنا واستطعنا أن ننجو من حرس جاكوشا، كانت معجزة

أخرى حققناها معًا، المتمردة وشيطانها والرأس الكبير باحضاني، ثلاثية من الصبر ومن المقاومة نسجناها معًا لننجو من عالم جاكوشا الفاسد، سيبدو واضحًا الآن، سيعلن المعبد ارتفاعي صوب السماء، وسيقيم بخطّته على جثث الأبرياء، سيعيد الشعب إلى عبوديته وسيعود العالم الديني إلى فساده.

يبدو أنّ أنياب التمساح الأكبر ستعود لمكانها في فاهه، وسيبنى المربّع الزجاجي في السماء مجددًا بعد ان حطّمته، ولكنّهم لن يقتلوا جاكاشو، لن يقتلوا هذا الأمل..

دخلنا الحدود، تلك المساحة الشاسعة من حقول القمح والذرة، وحقول عبّاد الشمس، تلك المساحة التي أطفئت في عقولنا طيلة أجيال متواصلة من التحنيط الديني للفكر والخيال، هذه فرصتي لأعي جمالية تحطيم المخاوف، تحطيم القناعات، العالم لا ينتهي في معبدنا، الحدود لم تكن يومًا ملكًا للرب كما قيل لنا سلفًا في المعبد، بل هي ملك للخوف، للسلطة، للقمع، الحدود أداة حصار، أداة إلمام بالشعب،أداة سجن...

للوهلة الأولى: احسست انّي احطّم مقدّسًا آخر، احطّم تلك الحدود الوهمية التي رسمت لنا عن العالم، ذلك السقف الذي لا يجب أبدًا أن نتجاوزه، ولكن في الوهلة الأخيرة: تفطّنت انّي لم احطّم سوى غباءًا كان يقتل شعبي، كان يكبّلنا ويضعنا عبيدًا لدى

الشعوب الأخرى لضمان حياة رغدة لهم ولأبنائهم، لم تأسرني جمالية الحدود، مهما ارتفعت تلك الورود في السماء، تلك الزهور وسنابل القمح، مهما امتزجت زرقة النهر مع اخضرار الشط وتجبّر السماء، ستبقى الحدود بشعةً للأبد في خيالي

ستبقى كذلك ولن يجعلها أحدٌ في جمالية مظاهرها، العبرى ليست بالألوان، بل بالحريّة، ولن تكون الحدود أبدًا سوى سقفًا يقتلها، يدفنها، لا يحميها ولا يصونها كما كنّا نتخيّل أو بالأحرى كما كان يخيّل لنا

في الليل الدامس، توقّفنا وسط تلك الحقول، لننام قليلاً، كانت تنتشر رؤوس تماسيح كبيرة من خشب على امتداد تلك الحقول، كانت ضخمة جدًا ومنتشرة في كل مكان، ترى بعضها على بعد أميال لضخامتها، لم أفهم سبب وجودها هناك، ولكن حتمًا هناك سبب ما، سألت الشيطان فقال لي أنّ تلك الرؤوس ماهي سوى فزّاعات كبيرة ليس لطرد الطيور، بل لطرد المتمرّدين الذين يحاولون تجاوز الحدود، فبعد فراره إلى أرض الرب، قاموا بوضعها هناك للتخويف، إنّه لعب بالعقول، مجرّد إيهام، صناعة ما يخيف أكثر في هذه الحقول الشاسعة في خيال الشعب لكي لا يتجاوز الحدود، لكي يندم أي شخص يحاول الفرار، لحماية الحقيقة، حماية حقيقة تصنيع ذلك الغلاف الديني الذي يغلّف الخيال المخيف للدين، ففي المتمرّد دائمًا جزءٌ ما يحنّ للإيمان،

جزء قد يجعله يعود أدراجه مجدّدًا نحو الجهل. ذلك الجزء هو دائماً وهم الذاكرة المخيفة التي تمّ حشوها لسنوات بالخوف وضميره، رؤوسٌ تماسيحٍ كبيرة تفي بالغرض لتذكيرهم بتلك الرؤوس الصغيرة التي تعيش بين حفر الشك. في عمق الإلحاد، الكفر هو الوجه الآخر للإيمان وليس هناك ما هو أعمق من ذاكرة دينية يصعب محوها بالتمرّد.

لا أخفي أنّ رؤوس التماسيح تلك قد بعثت في نفسي بعض الرهبة والخوف، إذ لا يزال رغم كل التمرّد، ذلك التمساح الصغير بداخلي يأكل شكوكي ويحاول فرض نفسه مجددًا على ساحة الوعي، أنّ حياة الكفر هي حياة صراع، إذ لا يهم من كفر الإنسان تلك النظرة المستعلية على المقدّسات، بل عمقه الإيماني الذي زرعه المجتمع بداخله، إنّه موروث مخيف، يصعب فصله عن الإنسان، المرتد لا يكفر بل يفهم الدين جيّدا وآلية زرعه بداخله ثمّ يدخل في صراع من أجل نزعه وذلك الصراع هو الإلحاد ليس إلاّ، مهما كانت الحجج ومهما كانت القناعة.

لم نلبث طويلاً هناك، تحركت إحدى بوابات رؤوس التمساح تلك، وخرجت مجموعة ضباع منها، تسمى كذلك تماسيح البرّ، ركبنا العربة ورحنا نفرّ من هناك ولكن الضباع كانت سريعة واقتربت جدًا منّا، لقد أطلقت للبحث عنّا. قبل أن نصل لأرض

ب، لو هاجمت الحصان، ستتوقف العربة وسينتهي بنا الأمر
أنيابها الحادة، كانت تجري وراءنا كما تجري مقدّسات الدين،
مقدّسها الوحيد في تلك اللحظةجوعها، لقد رأت فينا ربّها،
لحتها الحيوانية، كإيمان البشر تمامًا...

قال لي الشيطان: ﴿لن تتوقف أبدًا عن اللحاق بنا، هذه
سباع لا تريد رأسك، لا تريد قتلنا، تريد فقط سدّ جوعها، لا
تّها جاكوشا ولا التمساح، كل ما تريده هو بعض اللحم لتواصل
ياة، وداعًا الجا، وداعًا، اهتمّي لنفسك وللطفل الصغير،
ودي يومًا ما وانتقمي لي، اقتلي جاكوشا ومعبده، اقتلي كلّ
اسيح الأرض﴾ صرخت بأعلى صوتي: ﴿ما الذي تفعله؟﴾، فتح
يطان باب العربة وألقى بنفسه للضباع، لقد ضحّى الشيطان
سه لأجلي، لقد شاهدت الضباع تلتهمه في حين كنت أواصل
روب كما تواصل الحياة، كانت تلتهمه ابتداءً من رجليه، كان
ابه كبيرًا بين أنيابها، ولكنّه لم يصرخ، لم يصدر أنينًا حتّى،
عذابه بين يدي المؤمنين أكبر وأكثر ألمًا طيلة تلك السنوات،
سب من تجربة اللعنة مناعةً ضدّ الألم، فضحّى لأجل أن
صل التمرّد طريقه في وجه الظلم، أنقذني كما أنقذته، منحني
سرّ الكبير ثمّ أكلته الضباع..كان يودّعني بيده المريضة، كان
وت رويدًا رويدًا والضباع تلتهمه بشراهة، تتناوب عليه، كان

مبتسمًا، كان يبدو سعيدًا، لقد محى نفسه، محى الشيطان، لكي يمحي إلى الأبد أسطورةً أخرى.

مسحت ما طفى على عيوني من دموع، وواصلت طريقي، واصلت، لكي يواصل جاكوشا، ولكي يكبر رأسه أكثر ويتحطّم المعبد على جبينه القوي، استمرّت العربة في مسيرها نحو أرض الرب، أرض النجاة، أرض المستعمرين المخادعين.فررت بعيدًا عن أرضي التي ولدت فيها، لم تكن الحدود بعيدةً جدًا، كان عالمنا صغيرًا جدًا، بالنظر لشاعة العالم، حقول عبّاد الشمس كانت أجمل ما شاهدته هناك، لقد رسمت في رأسي لوحة جميلة لأوّل تجربة أخوضها في تمزيق حدود الدين والقانون، وخلق الفضيلة بيدي، فضيلة الهروب، فضيلة الحياة، فالحياة في الحقيقة ليست سوى الهروب، الهروب إلى الإستمرار، والتنكّر للموت، تجاهله، قتله باستمرار أيضًا، الحياة هي المقدّس المكبّل، المقدّس الطبيعي، الذي تفرضه علينا طبيعتنا من أجل البقاء، لا شيء إلاّ الحياة يستحقّ منّا التقديس، فوحدها الحياة هي التقديس النابع من حقيقتنا، وليس من خيال تصنعه المنظومات السياسية والدينيّة والقانونيّة، تلك المنظومات المتعطّشة لعبوديتنا، والتي تفرض علينا التنكّر لمقدّسنا الطبيعي.

كسرت صنم جاكوشا، فكسرت معه صنم السماء، حرّرت الشعب بعدما حرّرت وعيه بالحريّة، فدّست الحياة مجدّدا، ورفعت الإنسان، قطعوا رأس بيترام وغمروها بالحياة، فررنا من قلعة الرضوخ، قتلت بيشان بدم بارد، قتلت ذلك القوّاد الرخيص والمخادع،اتّجهنا نحو حدود رسمتها السلطة السياسيّة في رؤوسنا وتجاوزناها، دنّسناها بالتمرّد، ضحّى الشيطان بنفسه لأجلنا والتهمته الضباع، تماسيح البر، وها نحن ذا أنا وصاحب الرأس الكبير نواصل دربنا إلى أرض الرب، نمضي سويًا إلى رحلة ما قبل إسقاط المنظومة؟ ربّما، وما بعد التحرير.

ساعات فقط، وبدأ السور العالي لأرض الرب يتجلّى للعيان، لقد كان شاهقًا جدًا كان يبدو سلسلة جبلية عنيدة الطول، فرهًا، لا يجدي البصر لرؤيته كاملاً، غمرني شعور ممزوج من السعادة والخوف، السعادة بالوصول إلى نقطة اللارجوع، السعادة بالخروج من عالم التمساح، السعادة بالنجاة، والخوف من المجهول، من هذا العالم الذي لا أعرف عنه شيئًا على الإطلاق، الخوف من الصدمة، والخوف من الموت في يد حرّاسه، لقد كان السور الشاهق لذلك العالم المجهول يزيد من شدّة الخوف في داخلي، يا ريت عيني كان لها قدرة رؤية ما خلف السور لأحضّر نفسي لما سألقاه، قال لي الشيطان قبل ذلك أنّ لغتهم تشبه لغتنا ولذلك لن أجد أي مشكلة

في الإندماج اللغوي معهم، إلاّ إنّ حياتهم متطوّرة جداً وسيصعب عليّ الإندماج فيها، ولذلك عليّ أن أتعلّم كلّ شيء من جديد، ولأجل العيش كأي امرأة هناك فانّ ما أخذته من ذهب سيكفيني لأبدأ أوّل خطواتي في الحياة...

نزلت من عربتي حاملةً أوجاشو في يدي اليمنى، وصندوق يبترام في اليد اليسرى، وكيس الذهب والمأونة الذي أحمله على ظهري، وضعت بعض الذهب في يدي لأسلّمها للحرّاس لأمرّ بسلام لأرض الرب، نزعت وثاق الحصان، وتركته يفرّ إلى حرّيته بعدما شكرته، ومشيت خطوةً خطوة،

بكل شجاعة وبكل خوف، لقد وجدت البوابة التمساحية الكبيرة التي يسقط فيها شلاّل النهر،إذن فالبوّابة الصغيرة ليست بعيدةً جداً من هنا، كانت عيني تراقب المكان بصمت، حين كانت قدماي تتعثّر مع بقايا الشوك على الأرض،بحثت في كل مكان في خيالي عن نجدة ما، عن طريقة ما لأدخل السور إلى العالم الآخر وتجنّب الحرّاس، ولكن لم أجد حلاً إلاّ المرور بشكل قانوني، فقد كان السور عاليًا جداً ولا تكفي مخالب الدنيا لتسلّقه، كان عليّ أن أمرّر خوفي إلى مكان آخر، وأن أسترق السمع للشجاعة الذي بداخلي بين نبضات قلبي المضطربة التي أدماها شوك الفضول، استسلمت للأمر الواقع وتجاوزت مخاوفي خوفًا

خوفًا، كان عليّ أن أطبّق مسار الشيطان وأن لا أجادله في طريقه، فقد قال لي أنّ حرّاس البوّابات الصغيرة فاسدون جدًا ويقبلون أي رشوة كانت للمرور، لقد أخبرني أنّ ما يحكم هذا العالم هو المصلحة، ولا يعاقب القانون هناك الفرد إذا ما اختار مصلحته الشخصيّة على حساب المصلحة العامة، وأنّ لغتهم الوحيدة التي يفهمونها هي لغة الذهب.

ثقتي في النفس كانت في أقل درجاتها، ولكنّ الطريق إلى الحياة كانت مغريةً للمرور، وثقت في الشيطان من البداية وعليّ أن أواصل، مشيت ومشيت، ووجدت البوّابة الصغيرة، وقفت هنيهة أتأمّلها، أتأمّل زفير الخوف بداخلي، وشهيق النجاة، هل سأواصل، أم أنتحر؟ ولكن كيف سيكون مصير هذا الطفل؟ الأجدر أن أواصل، لا حلّ بيدي إلا المواصلة.

كان ضوء برتقالي يخرج منها وكأنّها شمس الشروق،كانت أملاً جديدًا لي، وخوف آخر أيضًا، اقتربت منها أكثر فأكثر، بهدوء، كنت سأسلّم نفسي لهم طواعيةً، لم يكن بيدي أي حيلة أخرى، البوّابة تلك هي منفذي الوحيد، تجرّأت واقتربت أكثر، شيئًا فشيئًا، بدي صوتهم يقترب أكثر لطبلة أذني، كانوا يبدون في قمّة هذيانهم، ضحكهم كان يمرّ في الهواء بشكل متواصل، قهقهاتهم كانت جد عالية، وهم يلعبون النرد، بدت لغتهم أكثر

وضوحًا، كانوا يتحدّثون عن الجنس، في قمّة سكرهم، وفي قمّة رغبتهم الجنسيّة أيضًا، كان يتمايلون من شدّة الثمل، ويتحكّكون ببعضهم البعض أحيانًا أخرى،خفت أن أغتصب بين أيديهم، ولكن ما العمل؟ فلأغتصب إذن وفليعش الطفل، اقتربت أكثر، دخلت البوّابة، تأمّلوني بغضب، حاولوا الهجوم علي، وضعت أوجاشو والصندوق الأسود على الأرض، ونزعت لباسي أمامهم، قال أحدهم: ﴿إنّها روح الجنس﴾ اقترب أحدهم إليّ وقال: ﴿لا يهم المهم أن نتمتّع﴾، تجلّيت عاريةً أمامهم، عاريةً تمامًا، أثدائي منصوبة، شفتي مقلوبة، ووردة الريحان مفتوحة تبحث عن ذكر يشتمّها، ألقيت نفسي عليهم، جلست على حجر أحدهم وقبّلته من فمه تعرّى الباقي بالكامل، ألقوا بأسلحتهم وراحوا يتحسّسونني في البداية ثمّ دخلوا في طور الشهوة الثائرة، وكأنّهم أرادوا الخروج من جلدهم ليسكنونني، كانت أصابعهم تمزّق لحمي، تطبع عليه أشكالها، بعضهم كان يلتهم صدري بكل قوّة، كنت أتألّم، كنت في كامل العهر، وفي كامل القداسة كقضيّة أقدّم لها كل شيء حتّى جسدي، مارست الجنس معهم جميعًا، ومارسوا الجنس فيما بينهم أيضًا، ولسكرهم، فقد تعب الجميع وسقطوا واحدًا تلو الآخر في بحر النوم، أنهكت بين أيديهم، مارست العهر للنجاة، ولكن كان عليّ أن أمارسه لأجل الحياة، لم أفتح أرض الرب بالذهب، بل فتحتها بالجنس، بمهبلي كما فتحت بطن أمّ هذا

الرأس الكبير وحملت الطفل والصندوق بيترام ودخلتها غير آبهة بشيء.. دخلت أرض الرب بسلام.

●●●

الفصل الثالث
سقوط الصنم

ماذا قد يخفي الرب عنّا في هذه الأرض الجديدة؟ ماذا قد خبأ لي في جعبته العجيبة؟، أرواح أموات؟ جبل التقديس؟ تماسيحٌ بشريّة؟ ، جاكوشا من نوع آخر؟،كيف قد يكون شكل النظام هنا؟ قائد لا يظهر ولا يموت؟ شعب مذلول وقنوت؟، ذلٌّ إيماني؟ تقديس الرداءة؟

قبل أن تطأ قدمي أرض ذاك الرب، تجاوزتني قدرتي على التفكير، وامتزجت تخيّلاتي عن العالم الجديد بما كنت قد عايشته قبل ذلك في عالم جاكوشا، وبين ما قاله لي الشيطان في وصف هذه الأرض، لم يكن بيني وبين الباب سوى بضع خطوات، ولكنّها كانت تمرّ ببطء شديد، اقتربت رويدًا رويدًا وكأنّي سأفتح العالم بعد لحظات، وكأنّي سأعلم الحقيقة، كل الحقيقة، وكلّ ما أخفي عن البشر طيلة الأجيال ومنذ بداية الحضارة..

وضعت أوّل خطوةٍ لي بداخلِ أرض الرب، وتزامنت تلك الخطوة مع شروق الشمس من بين الجبال، وضعت يدي على جبهتي لكي أحميها من شعاعها، وإذا بالمدينة تظهر لؤلؤة زجاجية

بين الغابات الخضراء المحيطة بها، كان مشهدها مبهرًا جدًا، كانت المباني زجاجيّة تعكس صورة الطبيعة من خلفها، وأخرى على شكل فطريات الغابة، وكانت بعض البيوت الخشبية ذات القرمود الأحمر تترّفع على تلك القمم الشاهقة التي تبدو من صنع الإنسان أيضًا، كانت المدينة مشعّة بالزهور، لقد فتنتني، لم أرى في حياتي مدينة كهذه، تلوّنت عيني بتلك المشاهد الرائعة، في حين كان الشلاّل يدفع مسنّنات غريبة من الجانب الآخر على الدوران، وكان النهر يستمرّ من الجهة الأخرى غير آبهًا بأحد، وكانت الأنابيب تمتصّ منه ما قد حرّم علينا في عالم الدين الفاسد.

لم أضيّع الوقت، فقد ينهض جنود الزنا من غفوة الحب والسكر، فيلقون القبض على روحانية الجنس التي مرّت لتداعب غرائزهم الحيوانية، كم كان الأمر جميلاً، أن تدخل أرض الرب من خلال فتحات الجسد، من خلال شهوات الأغبياء، لم أستغرق الوقت الطويل لأغيّر العالم بين أرض كان كلّ من عليها يظن العالم ينتهي عنده، ينتهي في تلك التماسيح التي تأكله وتلك السلطة التي تحكمه، وأرض كل ما فيها زجاجي، شفّاف، وجميل، عندما شاهدت بعيني تلك المدينة المبهرة، بت متأكّدةً بكون الحدود التي رسمت في خيالنا في عالمنا الديني هناك لم تكن سوى أدوات

حصر للعقل، لقد وُضع خيالنا في بوتقة مرسومة من طرف سلطة تتحكّم في كل شيء في الإنسان، تروّضه كما تشاء، لتسيطر عليه كما تشاء، تلك السلطة التي لا تسعى سوى لذاتها، سوى لبقائها لأطول مدّة في السلطة وإلى الأبد ولو على حساب الشعب الغبي.

الشعب صناعة، الفرد صناعة، صناعة الوعي المزيّف والخيال الوهمي والذاكرة الموجّهة، كلّ ما في الدولة صناعة موثّقة بعقد يسمّى بالعقد الإجتماعي، إنّ الشعب ساحة حكم، والسلطة أداتها، أمّا الحكم ذاته فتحكمه دوائر خفيّة، دوائر بعضها استعماري والآخر قهري والآخر من داخل ذات الدولة، إنّها دائمًا صراع المصالح أو تجسيدها.

لم تكفني الحريّة لأتجاوز تلك الحدود، لم يكفني التمرّد الخام، كان عليّ أن أصل أيضًا لدرجة معيّنة من الوعي، درجة تسمح لي بالتفكير الغير مظبوط، الغير مقنّن،من خلال إعادة رسم الخيال عبر إيجاد أبعاد جديدة ومن ثمّ إدراكها، ودراسة الذاكرة من خلال قراءة التاريخ بنظرة موضوعيّة نقديّة، وفوق كل هذا فتح السؤال المخيف، السؤال الأكبر، والثقة أحيانًا في من حرّمت الثقة فيهم، علينا دائمًا أن نفهم الحريّة أوّلا قبل ممارستها، ولكن علينا أيضًا أن نمارس الحريّة لكي نفهمها، إنّها حاجة متبادلة، تكاملية، بين الفهم والحريّة، بين الوعي والتمرّد،

وبين السؤال والإدراك، ولكي يتجاوز الإنسان الحدود التي تمليها السلطة عليه، فعليه أولاً أن يتجاوز حدوده النفسيّة، ومخاوفه، وعلى رأسها الخوف من فقدان المكانة الإجتماعية، والخوف من فقدان رضا المجتمع: فالوصول إلى تلك الدرجة يعني بالضبط فهمه العميق والشديد بكون المجتمع مجرّد وهم، مجرّد وحش آخر تخلقه الحاجة الحيوانية لقطيع احتوائي، وكون المجتمع لا يمكنه أن يكون قوّة قهريّة إلا إذا سمح الفرد له بالتوغّل فيه، ومن خلال دعم السلطة السياسية للوحش الإجتماعي بالتدخّل في حياة الفرد.

نزلت من السلاليم الزجاجيّة التي كانت تسقط من الجرف إلى أسفل السهل بطريقة التوائية غريبة ومخيفة، خفت السقوط، لأنّي كنت أرى بعيني ذلك الجرف الهاوي إلى الأسفل من خلال تلك السلاليم الشفّافة، ولكنّي نزلت مسرعةً ودخلت أرض الرب، وهناك سيكير أوجاشو، صاحب الرأس الكبير...

النظام السياسي في أرض الرب كان مختلفًا جدًا، لم يكن للشعب هنا أي تماسيح، وأي مقدّسات، لقد تعلّمت أنّ المقدّس الوحيد هنا هو الحياة، والمعرفة، والإبقاء على نظام التفوّق لاستغلال الشعوب الأخرى وسرقة ثرواتها لضمان حياة سعيدة وفردوسية لشعب هذه الأرض، ولم يكن للبلاد الجديدة أي رئيس،

بـل كان الحكـم جماعيًـا، يفصـل فيـه البرلمـان في قوانـين الـبـلاد، والبرلمان ذاته كان مظبوطًا بقيم أكبر منه، تسمّى دستور الشعب، وكانت تلك القيم، تعلي قيمة الفرد وحرّيته، وتمنع البرلمان عن سن أي قانون أو أوامر بإمكانها التعدّي على تلك الحريّة، كما كان الشعب في درجة عالية من الوعي، تحكمه مجموعة مبادئ حتّى فوق دستوريّة، لم يسمى الإنسان هنا لتدوينها فهي قواعد مجرّدة بطبيعتها الإستنتاجية، وإجبارية بكونها ما يجعل المجتمع هنا متماسكًا وقويًا، إنّها مبادىء عقليّة ذات درجة عالية من التحقيق، وتسمّى بمبادىء الوعي الحضاري البشري، منها: المساواة بين المواطنين، حريّة التعبير، وتحريم المساس بحق الإنسان في الحياة، تحريم المساس الإنسان في التعبير الفنّي، تحريم المساس بحق الإنسان بممارسة الجنس أيًا كان ميوله، ولا مساس بحق الإنسان في الرغبة، ولا مساس بحق الإنسان في المصلحة الفردية ولو تعارضت مع المصلحة العامة في بعض الأحيان، إنّها مبادىء جعلت من الشعب هناك، يعي أن المجتمع مجرّد كيان تنظيمي للأفراد وليس كيان سيطرة وغلق على الأفراد، لذا كان القوس مفتوحًا في هذا المجتمع، ولم تُرسم أي حدود لأفراده بداخله ولا أي خوف كان، وكان الأطفال يحصلون على رعاية ممتازة، رعاية تكفل لهم النشوء في حالة هادئة وحضاريّة تمنعهم التصرّف بعنف وغضب بعد ذلك، إنّ ذلك النشوء الهادىء كان يبني لهم عقولاً قادرة

عليّ استتباب النظام العالمي الذي اخترعه أجدادهم لحكم العالم، وسيجعلهم يفهمون فيما بعد أن التدرّج في قيمة الشعوب، يكمن في قدرة هذه الأخيرة على حكم نفسها بنفسها، وعندما تكون هذه الشعوب غير قادرة على ذلك تتحوّل مع الوقت إلى البحث عن حاكم آخر، وهنا سيكون دور الشعب المتفوّق للتدخل بدعوى حماية الأمن، وهذا ما يدفع بالشعب المتفوّق دائمًا لإقحام نفسه في نظام الشعب المتخلف لسدّ الفراغ، وملأ نظام الحكم بحشوات إستبداديّة تمنع إرتقاء المجتمع المتخلّف إلى حالة حضارية متفوّقة تخوّله لحكم نفسه بنفسه.

إنّ قوّة هذا الشعب، في عبودية الشعوب الأخرى وجهلها، وفي قابليتها للتخلّف وللاستعمار، وسيعمل جاهدًا على الإبقاء على تلك الفجوة بينه وبينهم ولن يسمح هذا الشعب أبدًا بتكوّن بؤرَ ذكاء ما في وعي الشعوب تلك ولا بتطوّر انسجتها الإجتماعية، سيقتل عباقرتها، وسيدمّر أي نواة إجتماعية مثقّفة وواعية وسيجعلها تبدو مهدّدة للوعي العام والإستقرار الشعبي تمامًا مثلما كان يقوم به نظام جاكوشا، سواءً من*خلال حرّاسه وقوانينه القهريّة أو من خلال خلق أدوات قهر مقدّسة، وأدوات أخرى تبدو شعبية في ظاهرها إلاّ إن قاعدتها إستعمارية في الأساس تمامًا كجبهة إنقاذ التماسيح.

هنا في هذه الأرض التي تسمّى في الحقيقة بأرض ليستونا، أو أرض الحاكمين، ترعرع صاحب الرأس الكبير، وتعلّم ما تعلّمه باقي الأطفال هنا، تعلّم أنّه ينتمي للجنس المتفوّق، وعلى التفوّق أن يتواصل في هذا الشعب، بتواصل الخنوع والتخلّف في الشعوب الأخرى وبإخفاء الأسرار العلميّة عنها، فهنا في هذه الأرض توجد طاقة غريبة تسمّى بالطاقة الكهربائيّة، كما لديهم أجهزة تحكّم عن بعد تحرّك الأشياء باستعمال نفس الطاقة المحرّمة لدينا في أرض التماسيح، وهذا ما كان ليفسّر سبب تحرّك الكرة البلورية يوم الإحتفال الأول بمعبد جاكوشا لاختيار أميرته الجديدة يوم اختار شهيدة الوفاء بيترام، بيترام التي دفنت صندوقها الأسود مباشرة هنا بمجرّد إن وضعت أوّل خطواتي بهذه الأرض، لأجعلها تتجاوز الحدود إلى الأبد، بعيداً عن مجلس جاكوشا المغتصب، وهذا ما يفسّر أيضًا تحرّك الجدار بضغطة زر يوم أخذتنا الراهبات في القلعة الكبيرة لاختيار موضع رمادنا بعد الموت.

لقد استطعت أن أندمج هنا وقد أخفيت كنيتي، واسمي، لأحافظ على حياتي وحياة أوجاشو، فكان اسمي مارجا، وتعني العبقرية، فقد كنت بالذكاء المناسب لأستعب القدرة على التلوّن بلون هذا المجتمع وفكره، وفي حين لم يكن مطلوبًا هنا أي أوراق لإثبات الإنتساب لأرض ليستونا، كل ما كان يلزم لذلك

هنا هو إثبات قدرة الوعي الذاتي على فهم الأشياء من حوله على الطريقة الليمستونية، كما أنّ الثروة المالية التي أتيت بها إلى هذه الأرض مكّنتني على العيش بحياة كريمة، ولو أنّي لم أصرف الكثير منها حتّى لا ألفت الأنظار نحوي، بل بحثت أيضًا عن عمل وعملت كمزارعة في حقول القمح تمامًا مثلما كانت أمّي سوامًا أوجاشو فكانت دائمًا مشكلته هي مشكلة اندماج، لقد سبّب له رأسه الكبير مشكلة كبيرة مع زملائه في الدراسة، مشكلة حالت دون أن يمتلك الكثير من الأصدقاء، فقد علمنا هنا أنّ الرأس الكبير ما هو إلاّ حالة مرضية بسبب تكدّس الماء في السحايا بالرأس، وفهمنا أنّ الأمر لم يكن معجزة دينيّة، بل ظاهرة طبيعيّة لها تفسيرها العلمي دائمًا كباقي المعجزات...

لقد سمح الأمر لي لأكوّن صداقة عميقة مع ابني الوحيد، ابني بإرادة الرب الخرافي، كان عليّ أن أغيّر اسمه إلى راسوليم، وذلك يعني صاحب الرأس الأكبر،أو العقل الأكبر، أمّا في البيت فقد كنت أناديه باوجاشو حفاظًا على ذلك الاسم الذي نطقت به يوم تحرّرت من عبوديتي كاملةً لنظام جاكوشا السياسي والديني...

كبر أوجاشو هنا، في هذه الأرض السعيدة والذكيّة، كبر راسوليم، وعلى الرغم منه تعلّم الحيل السياسية في السيطرة على الشعوب، وفهم هذه المنافسة الطبيعية من أجل البقاء بين

القطعان البشرية في السيطرة على مخازن القوى والثروة من أجل البقاء، فهم مبدأ التفوّق، وفهم معه مبدأ الاحتقار، وفهم حاجة ليستونا لماء النهر لتوليد الكهرباء، وكيف يجب أن تمنع الشعوب الأخرى من استهلاكه أو حتّى التفطن لأهميته لكي لا تطلب ثمنًا لقاء ذلك، مثل أرض التماسيح والتي جئنا منها والتي تسمّى هنا بأرض المجانين، الذين صنعت ليستونا جنونهم الديني بالأساس، وفهم أيضًا أنّ حريّة الفرد فوق كل اعتبار، وتعلّم ما تم تسميته لهم في المدرسة بالمكانيزما الإجتماعية، وفهم من خلالها أنّ السبيل لإضعاف الخليّة الإجتماعيّة هي بإضعاف الفرد فيها، وأنّ قوّتها في البحث عن مصلحة جماعية في البقاء سويًا مع الحفاظ على قوة الفرد في الخلية، فالفرد هو الحقيقة وهو الإنتاج، الفكري والمادي، وفهم أيضًا أن الدين يعدّ أداةً جيّدة في السيطرة على الشعوب ومقدّراتها، فوحده الدين ما بإمكانه خلق منظومة أخلاقيّة فاشلة ومقدّسة في نفس الوقت، ووحده الكفيل بتقديس قهر الأفراد وتقديس تخلّفهم وجهلهم وبالتّالي تقديس الإستقرار في الحالة الإستعمارية، فالتقديس هو أداة إيقاف، أداة تثبيط، أداة تثبيت، أداة تكريس لكلّ أنواع الإستبداد والسيطرة والإستعمار، وهكذا تعلّم أيضًا أنّ القداسة قد تتّخذ أشكالاً عديدة ، فمنها القداسة الدينيّة، والقداسة السياسيّة، والقداسة الوظيفيّة، والقداسة الطبقيّة، والقداسة التاريخيّة، وقداسة التقاليد، وغيرها، وتتغيّر

الحاجة في إيجاد نوع القداسة حسب نوع المجتمع، لخلق نوع معيّن من الإنضباط أو من الفوضى لخلق دمار إجتماعي شامل لا يرى بالعين المجرّدة، بعد تغليفه بالحجم الكافي من الفضيلة والأخلاق.

ومن جملة ما تعلّمه هنا أيضًا، أنّ الدين كنظام مقدّس، هو حالة إستعدادية تقدّم لشعب ما لوضع رأسه تحت رحمة سيف الإستعمار، وفهم أيضًا أنّ الدين كدين التماسيح مثلاً بإمكانه إيقاف عجلة التقدّم في مجتمع ما من خلال ضبط المجتمع في بقعة زمنيّة معيّنة هي وقت نشوء ذلك الدين، وبالتالي تحريم أي خروج عن ذلك العصر السحيق وأفكاره البالية، وأنّ الدين في حقيقة الأمر هو من يحتاج الإنسان ليعيش، وليس الإنسان من يحتاج الدين لذلك، فالدين له متوسط عمر، يمرّ من خلاله على ولادته فطفولته فمراهقته فشبابه فكهولته فشيخوخته فموته، فولادة دين جديد، أو نظام مستبدل للنظام الديني يكون أكثر قدرة على ترك المجال مفتوحًا لتطوّر وعي الإنسان، فالإنسان بلا دين سيواصل الحياة حتمًا، بينما دين بدون إنسان يؤمن به سينتهي ويختفي ويموت...

تعلّم الكثير من الأشياء، وكيف تجعل الأوطان حظائرًا مغلقة للسيطرة على الشعوب بداخلها ومنعهم التطوّر وسرقة مقدّراتهم،

وكيف توهم شعبًا ما بكونه أفضل الشعوب لكي يحبس نفسه في تلك النقطة الوهمية من التطور دون الحاجة إلى المزيد من التقدّم...

وكيف تخلق عالمًا خياليًا مثاليًا في رأس الإنسان بعد الموت، وكيف تجعل الدولة في صورة الفضيلة المطلقة ثمّ تفرض على الأفراد المقموعين باسمها الإنصياع التام لها والدفاع عنها، والدفاع عن قمعها أيضًا.

لقد فهم أوجاشو هنا، أنّ التجارب السياسيّة تمتاز بالعمر القصير، ولذلك لإضفاء عمر أطول للتجربة عليها أن تكتسب شرعية مطلقة في البقاء، ومنها عليها أن تبحث عن الشرعية الدينية، والشرعية التاريخيّة، وغيرها من أنواع الشرعيّة المختلفة، ومن ثمّ تكريس الشرعية في وعي المجتمع الحاضن من خلال جعله هو ذاته أداة لحماية تلك الشرعية، ومع الوقت تصبح التجربة السياسية، أكثر من مجرّد تجربة، بل تصبح الدولة في حد ذاتها، إنّها حالة من الازدواج ثمّ الإرتداء ثمّ التوحد، تمحي فيه ركائز الدولة الحقيقيّة ومؤسّساتها لتغدو دولة تجربة، ودولة أشخاص ودولة مصالح كانت المدرسة الليستونية تعلّم الشعب هذه المعارف لتكسبه مناعة ضدّ أي نوع من أنواع الإستعمار، وذلك للحفاظ على المكسب الجماعة في التفوّق على الشعوب الأخرى، لقد فهمت

التجربة هنا أنّ الفرد الذي يفهم اللعبة السياسية جيداً ويفهم أدواتها سيساهم أكثر في بناء دولته، وبناء مجتمعه، بالية تسمح له بالإنخراط أكثر في المشروع الوطني، وبذلك الفرد في حد ذاته هو الإنجاز الذي تسعى له الدولة لحماية وبناء نفسها.

انّ هذه المفاهيم لم تكن صعبة الترسيخ فقط بل كانت أيضًا صعبة الحذف، إنّه اللامجال للعودة للحيوانيّة البشريّة، إنّها اقصى إنواع التحضّر البشري من خلال توجيه الغريزة الحيوانية الأكبر وهي غريزة حب البقاء ليس لقهر الأفراد بداخلها كما تفعل الأنظمة الإستبدادية، بل لتعزيز الفرد بداخلها ومن ثمّ توجيه الوعي العام لاستغلال الشعوب المحيطة.

لم يكن الأمر يبدو عادلاً، ولكنّ المنافسة الطبيعية قد تلزم احيانًا ارتكاب أبشع الأمور لأجل البقاء، إن لم يفعل هذا الشعب هذا ستقوم بذلك حتمًا جماعة بشريّة أخرى بطريقة أخرى، إنّه البحث عن الموارد، البحث عن الغذاء، الجري وراء الحياة ما يفرض على البشر أحيانًا أنسية الطبائع الحيوانيّة كالصيد والمنافسة على الفريسة، وجعلها تدخل في ميكانزمات العلم والحضارة لكن العيش هنا جعلني أفكّر في نظام عالمي جديد، نظام عالمي يسمح لجميع أفراد وشعوب العالم بالعيش حياة رغدة عن طريق تقاسم الموارد دون الحاجة إلى الموروث الحيواني القطيعي المتمثّل في

الصراع من أجل البقاء، ولكن هل من المفروض هذا أن يواصل بنجاح؟ ماذا لو توقّف هذا الحس المنافساتي بين الشعوب، هل كانت لتتطوّر بعض الحظائر البشريّة؟، أظن أنّنا في حاجة أكثر في تنظيم الغرائز الحيوانية بشكل جماعي كبشر أوّلاً ثمّ كشعوب ومنها تنظيم ذلك الصراع الأبدي من أجل البقاء، فتوحد الشعوب لن يخفي المنافسة التي هي فعل حتمي لكائن حيواني كالإنسان، ولكنّها ستعود إلى حالتها البدائية كمنافسة فرديّة شرسة بدون ضابط شعوري جمعوي، هذا الأمر الذي تكون وطأته أقلّ على الفرد باعتباره ممحيًا باسم جماعته، وبكون هذا الأخيرة تنافس بدلاً عنه، ولو أنّ المنافسة ستبقى دائمًا فعّالة بداخل نفس القطيع والجماعة بين الأفراد الآخرين ولكن لن تكون أبدًا تلك المنافسة بمنأى عن ضبط هي حقيقة الإنسان، وذلك في إطار الصراع مع الجماعات الأخرى...

كانت هذه التخمينات نتيجة تطوّر الوعي بهذه البيئة الإجتماعيّة المختلفة عن بيئة المنشأ، فبخروج الوعي من حدوده التي رسمت له، ستفتح له العديد من الأسئلة التي كانت تفتقد للطاقة الكافية للبروز، فالأسئلة هي إجابات مخفية في الحقيقة، السؤال هو إجابة الظروف، إنّها ردّة الفعل الطبيعية لعقل الإنسان عندما تختلف البيئة حوله، والبيئة الجديدة من حولي كرّست

بداخلي جميع الأسئلة وفهمت أكثر من أي وقت آخر طرق السيطرة على الشعوب التي تنتهجها الأنظمة السياسية المتخاذلة ومن ورائها النظام الإستعماري.

هنا بليستونا اكتشفت أنّ بلادنا لم يكن لها اسمًا، سمّيناها أرض التماسيح، أرض النهر المقدّس، ارض جاكوشا، سمّيتها أحيانًا أرض العالم الديني الفاسد. وهنا كانوا يسمّونها بأرض المجانين، في الحقيقة لم أتمكّن يومًا من ملاحظة هذا النقص الفظيع، النقص في امتلاك اسم للبلاد،إلاّ عندما اكتشفت هذا المضاف هنا في هذه الأرض التي تسمّى ليستونا. وفي الحقيقة لم اكن أعلم يومًا أنّ أرضنا كانت بلادًا حتّى، وهنا فقط تعلّمت إن الجماعة البشريّة التي تتخذ سلطة سياسية مستقلة على إقليم مستقل تسمّى الدولة، فلما كانت دولتنا هناك غائبة. ممحيّة باسم الدين، لا اسم لها ولا استقلالية، مجرّد حظيرة حيوانية بشريّة، أرقى ما فيها لم يكن يومًا الإنسان بل التمساح.

ولكنّي لم أنسى يومًا منبتي، حيث كان هدفي من البداية أن أعود إليه لتحرير شعبي، لإسقاط نظام جاكوشا التمساحي، وإعادة النهر إلى شعبه، وجميع ثرواته الأخرى، وإعادة أغلى ما يملكه الإنسان «العقل»، تلك الملكة الّتي كبّلت في بلادنا وغدت جريمة مع سبق الإصرار والترصّد،كان يجب أن أعود يومًا ما، كان

يجب أن أكسّر تلك الأصنام المتخيّلة التي تمنع شعبنا عن فهم الحقائق بنفسه دون الاتّكال على منظومة سياسية متخاذلة...

حضّرت أوجاشو ليلعب هذا الدور، تركته في البداية يتعلّم الحقيقة من الليستونيون وكأنّه واحدٌ منهم، ومن ثمّ، عندما بلغ بعض أشدّه، واجهته بالحقيقة، الحقيقة المرّة، حكايته في عالم المقدّسات والتماسيح المألّهة استجمعت قوّتي وصارحته : «أوجاشو، ابني العزيز، لقد كبرت اليوم، وغدوت واعيًا بالحجم الكافي لتعلم الحقيقة، حقيقتك وحقيقتي»، بقي صامتًا يحدّق بي ثمّ قال لي: «تفضّلي أخبرني هذه الحقيقة التي استحقّت عناء الإنتظار كلّ هذه السنوات»، خفت من ردّة فعله، سكت جموحي في البداية، وتأمّلت رأسه الكبير وعينيه ثمّ قلت له: « إنّها قصّة طويلة يا بني، في البداية أريد أن أخبرك أنّي أحبّك وأنّي فعلت ما فعلته من أجل إنقاذك، اسمعني جيّدًا يا عزيزي، أوّلا كما لم أخفي عليك منذ البداية فأنت لست ابني الحقيقي بل بالتبنّي، ولكنّي سأبقى أمّك إلى الأبد، أمّك التي اختارتك لتكون ابنها بالوعي، أمّا أمّك الحقيقية قد ماتت وهي تضعك في الحياة، هل تعلم من قتلها؟ قتلها الجهل والتخلّف، لولاي يا عزيزي لتمّ رميك مضغة طريّة في فم التمساح في ذلك اليوم البائس، لأنك قتلت أمك أثناء الولادة، وبالتالي فكنت في حكم القاتل» بدأت الشكوك

تساور وجه أوجاشو الذي صرخ: «التمساح.؟» ، أجبته: «نعم التمساح يا بني، التمساح، فنحن لسنا ليستونيون، نحن من أرض التماسيح التي درست عنها، تلك الأرض التي لا اسم لها، والتي تسمّى بأرض المجانين، نحن من تلك الأرض المستقلّة، من ذلك الشعب المنوّم، ذلك الشعب المغيّب، وأنت مقدّس من مقدّساتهم يا أوجاشو ويجب أن نعود لكي نحرّرهم، هذا سبب بقائك على قيد الحياة، هل فهمت هذا يا أوجاشو؟ هل فهمت؟» صرخ أوجاشو حينها: «لا، أنا ليستوني، ليستوني، لا أنتمي لشعب الذل ذاك، أخرجي هذه الفكرة من رأسك، لست مجنونًا، أنا ذكي لست غبي، أنا من هنا، هنا أنتمي حيث الأذكياء مثلي،لست أحمقًا ولا حيوانًا شبه بشري لأنتمي لتلك الحظيرة الحيوانية.». فكان ردّي: «بل أنت من هناك، ولست غبيًا، لا أحد يولد ليكون غبيًا، الشعوب صناعة، إنّهم منتوج،للأسف ليستونيا تقوم باستغلال كل شيء من أجل فرض سيطرتها على الشعوب الأخرى لتدمير ذكائهم ومصادرة خيراتهم، لقد درست هذا وتعلمته جيّدًا يا أوجاشو، لقد تعلّمت أن الشعب هناك قد توارث الغباء وصوّر له على أنّه ذكاء مطلق، إنّ شعبك، شعبك الحقيقي أقصد، ضحيّة يا أوجاشو ضحيّة وعلينا العودة لإنقاذهم، من مخالب نظام جاكوشا»

لـم يسـتطع أوجاشـو أن يهضـم الحقيقـة، لقـد انعـزل لأيّـام في غرفته، وهـو يصـارع أفكاره، كان شـعوره بالعـار مـن انتمائـه الدنـيء ثقيـلاً جـداً عليـه، فبالنسـبة للمنظومـة السياسـية والإجتماعيـة التـي تحكمـه وتحكـم وعيـه كان الانتسـاب للشـعوب الغيـر متفوّقـة والمحتقـرة يدفـع للخجـل، لقـد جُرحـت مشـاعره، كان يبـدو محطّمًـا بشـكلٍ كلّـي، لقـد عـاش حياتـه وهـو يتوهّـم إنتمائـه للجنـس المتفـوّق، ليصطـدم بواقـع آخـر، بكونـه كان ينتمـي للشـعب الـذي لا اسـم لـه، للشـعب المحـي، للشـعب الغبـي، كان الأمـر مدعـاةً للتقـزز، وللغضـب، لقـد صـوّرت لهـم ليسـتونا الشـعوب الأخـرى بطريقـة محتقـرةٍ جـداً، لكـي تضمـن توليـد حـس استعلائـي لـدى شـعبها يمنعـه الشـفقة علـى باقـي الشـعوب المستغلّة، وبالتالـي الإبقـاء علـى أخلاقيـة المنظومـة الإسـتعمارية لـدى الشـعب المتفـوّق.

ولكـن مـع مـرور الأيّـام، استسـلم أوجاشـو لحقيقـة انتمائـه، استسـلم لتلـك الفكـرة العويصـة التـي أبـت دخـول عقلـه في البدايـة، إنّهـا حقيقـة الإنتمـاء، وعندمـا اقتنـع بكلماتـي، غـدوت أكثـر حريّـة معه،أكثـر صراحـةً معـه، وأكثـر شـجاعة كذلـك، شـرحت لـه النظـام التمسـاحي جيّـداً هنـاك، شـرحت لـه كيـف انقلـب ألـم التمسـاح إلـى خيـال متعـة، وكيـف غـدى الشـعب عبيـداً لـدى نظـام جاكوشـا الدمـوي، قصصـت لـه كلّ تجاربـي، وأخبرتـه عـن حالـة التقديـس التـي كانـت

تفلّتنا أنا وهو كلانا في ذلك العالم الفاسد، وكيف حاول جاكوشا استغلالنا لينقلب كلّ شيء عليه، ومنذ ذلك الوقت رحنا نخطّط للعودة إلى بلادنا،

لى أرضنا التي لا اسم لها، لكي نحرّر شعبها من قيوده الفكرية ولكي نجعل لها اسمًا بين البلدان...

لم يكن تخطيطنا عشوائي أبدًا، بل إعتمدنا على قاعدة البيانات والمعلومات التي استطعنا تجميعها هنا بأرض الشعب المتفوق، ومن خلال تجاربي السابقة لطريقة ما لنسترجع بها كرامة شعبنا الغبي والمتخلّف، والّذي للأسف يحمي منظومة الإستعمار والإستغلال بيديه دون أن يدرك ذلك، بفسح المجال للسلطة الحاكمة بالدوس عليه عن طريق استعمال مقدّساته، وبطريقتها الدينية في الحفاظ على حجم متدنّي من الذكاء الجمعي من أجل أن يبقى الشعب أسفل خط الذكاء البشري العادي ممّا يجعله دائمًا في حاجة ماسة للسلطة لضمان سيرورته والحيلولة دون بروز حضارة بشريّة فيه، استطاعت أن توهمه بأنّه مركز الكون، وأنّه مندمج في ربّه بالحجم الكافي ليكون في معزل عن أي غزو كان، وهو غير مدرك تماما للغزو الذي يستعمره، الغزو الفكري اللاواعي والذي لا تستعمل فيه السيوف، بل سلاحه هو السيطرة على العقول عن طريق المقدّسات الدينيّة.

قال أوجاشو: « أمّي، إن كان شعبنا في حاجة لي، سأضحّي لأجله، لأجل الشرف، سأحرق نفسي لأجل الثورة الفكريّة فيه، لأجل الدفع بالعقل الجمعي فيه إلى التطوّر والتقدّم، لا حاجة للشعب في نظام يستبده،بل هو في أتم الحاجة لمفكّر يدفعه نحو تكسير قيوده الفكريّة ولو باستفزازه، لا شيء سيقضي على الركود الفكري سوى بخلق حركية الأسئلة فيه، ولكن هذا لن يكون إلاّ باستعمال مقدّساته أوّلا، فلا يوجد ما هو أصعب في شعب متديّن من خلع تلك المقدّسات المتخلّفة التي يحميها بيديه، سيتألّم في البداية، سيتخبّط في مكانه كجثة تقارب الموت، سيدافع عنها، سيقتل لأجلها، ولكن سرعان ما ستدفعه تلك الحركيّة إلى إنعاش خلاياه العقليّة وجعلها أكثر انفتاحًا، تفكّراً وتفكيرًا، وأكثر قابلية للنقد وللدراسة.

.. قبل إنقاذ الشعب يا أمّي علينا إنقاذ عقولهم، فما تفتقده الشعوب الإستهلاكية ليست البطون ولا الثروة، بل العقل»

قلت له حينها: « نعم يا ابني العزيز، يحتاجون العقول، يحتاجون الأسئلة، يحتاجون الجدل، وفوق كلّ هذا يحتاجون حريّة العقل وحريّة السؤال و حريّة الجدل، الطريق إلى الوعي هي ذاتها الوعي، العقل طريق العقل، السؤال هو إرادة السؤال، لا طريق للأفكار إلاّ نفسها، على الشعب أن يكتسب وعيًا قاعديًا

في البداية يمكّنه من البحث عن الوعي التام، وعليه أيضًا أن أن يستعير نموذجًا حضاريًا في البداية قبل أن يصنع نموذجه الحضاري المستقل، ولذا يا ابني العزيز علينا أن ندخل مجددًا في وعي ذلك الشعب، ولو كمقدّسات، وأن نفتح الجدل مجددًا من الداخل، علينا أن ندفع المنظومة إلى الانهيار، عليها أن تسقط، على الصنم الكبير أن يسقط في مخيّلة الشعب»

قال أوجاشو: « ولكن يا أمّي،عليّ أن أخاف أن يسقط نظام جاكوشا. »

رأس الشعب، فأنت تعلمين كلّ العلم أن النظام الإستعماري سيحمي حالة التخلّف هناك، لن تسكت ليستونا في وجه أي حركة فكرية أو ثورة شعبية، ستتدخّل هذه الدولة المتفوّقة في شؤون بلادنا، وستعمل على خلق قيادة مختلفة في كل شيء إلاّ في الانصياع لها، ستتدخّل باسم ضمان الإستقرار وحماية الشعب، وستدمّر غايات الثورة وتعيد برمجتها بما يتناسب مع الإبقاء على تفوّقها الدائم والقلق على المجتمع باسم حماية الثورة مجددًا، وللحفاظ على التخلّف ستصنع مقدّسات جديدة وأصنام جديدة ومخاوف جديدة، وستبقى العجلة الإستعمارية الإستغلالية تدور إلى الأبد لصالح الشعب المتفوّق»

فقلت له: « ولكن يا ابني العزيز، لن نتمكّن ليستونا من السيطرة على الثورة وعلى التدخّل، ما دامت قيادة التغيّير هناك، قيادة الثورة، مستقلّة عنها، وغير قابلة للمساومة، قد نبيع الثورة وقد نشتريها، ولكن الثورة الحرّة لا تباع ولا تشترى، أنت من سيقود الثورة هناك، وأنا متأكّدة أنّك لن تبيع شعبك ولا مستقبل الأجيال المقبلة، أنت تعلم الكثير ممّا قد تمّ إخفائه عن شعبنا هناك، وثورتنا هي ثورة وعي، ثورة أفكار، عندما سيوضع الشعب في الصورة سيتجاوز جهله، سيبحث عن أدوات التغيير بنفسه، سيصدّر ثورته الأجيال التي بعده، إنّ الثورة الحقيقية يا أوجاشو هي إعادة صناعة الإنسان، رسكلة أفكاره، وإعادة تكوين الركائز الفكرية للشعب وإعادة برمجته بما يسمح له بالتقدّم، وبما يسمح له برؤوية أخطائه وتصحيحها، وبما يتيح له كذلك بنقد تاريخه، ونقد مقدّساته وحمل رؤية تليق بالتطوّر الزمني التي شهدته ومستشهده دائمًا الأجيال المتعاقبة، يا ابني العزيز، إنّ أكبر خوف لدى شعبنا، هو خوف الصنم الأكبر، وعلى ذلك الصنم أن يحطّم، ثمّ ستتحطّم الأصنام الأخرى تبعًا واحدًا تلو آخر»

خطّطنا معًا لليوم المنشود، وخطّطنا للهروب مجدّدًا من ليستونا أرض الرب، إلى الأرض التي لا اسم لها، أرض العبيد، ولم يمضي الوقت الطويل حتّى انتهكنا مجدّدًا السور الكبير،

خرجنا منه وضربنا الليستونيون عرض الحائط، استبدلنا حياة التفوّق بحياة النضال، لأجل غدٍ أفضل لشعبنا المقهور، لقد اخترنا شعبنا، كرامتنا وحريّتنا، مررنا على نفس حقول القمح وعبّاد الشمس، على نفس الصبّار والشوك، على نفس زرقة النهر ورؤوس التماسيح، كان موعدنا حينئذ مع الشعب المذلول، الشعب المغيّب، المستعبد، المستغل، ذلك الشعب الذي لا يجيد سوى الاستهلاك؛ استهلاك المقدّسات، استهلاك الأوامر، استهلاك التفاخر بالأمجاد المزيّفة، استهلاك الأحقاد، استهلاك الجهل بكلّ أنواعه، استهلاك الموت، استهلاك الرب، استهلاك التمساح..

ما هي إستعمالات الرب هنا؟ القهر، التزييف، السرقة، التجهيل، احتقار الذات وظلم الآخر وإلغائه والاستعمال الأوفر حظًا هنا هو المحو والإبادة، يستعمل الرب هنا كأداة لإجبار الإنسان على إطفاء وعيه، وجعله أكثر طواعية للسلطة الحاكمة، علينا أن نغيّر شكل الإستعمال، على الرب أن يصبح اليوم في صف المظلومين لكي يستهلك بطريقة أحسن..

دخلنا الأرض ولم نفصح عن هويّتنا في البداية، رحنا نستمع لأنبائنا بين الناس، وكان يبدو أنّ النظام قد استعمل نفس الخطّة التي أخبرتني بها بيترام قبل سنوات، انتشرت روايته المزعومة عنّا؛ لقد رفعنا إلى السماء وعاد الحكم كاملاً إلى جاكوشا، وأمّا

أب أوجاشو فكان حسب الكذبة الجديدة يلعب دور الوسيط بيننا وبين المؤمنين، وأصبح مقدّسا بكونه قد أصبح كليم السماء، وأمّا الخنافس العمياء فقد عادت لتبني جدران القداسة الدينية على نفسها، لقد عاد الشعب إلى ذلّه ، واستعباده، وزادت المقدّسات، وزادت معها المخاوف، وزادت الضرائب، وكثر القتل والتعذيب، وزاد عدد التماسيح في النهر.

أمّا نحن فقد كنّا نراقب من بعيد بكلّ تخفّي، بقينا وقتًا كافيًا لدراسة سلوك العامة، لدراسة نظام جاكوشا وما آل إليه، فكلّ هذه السنوات التي مرّت بالتأكيد قد صنعت تغيّرات كثيرة في صلب النظام وطرق تطويعه للشعب، وبالتأكيد قد عرف النظام طرق حصر العقل وإعادة المخاوف إلى مكانها لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقًا وأشنع، فما أوقعته تجربتي في تحرير الرب وتحرير الوعي لدى الشعب سابقًا كان كفيلا بالإلقاء بضلاله على تصرّفات نظام الحكم فيما بعد، وبالتأكيد فقد كان جاكوشا يعلم كل العلم أنّي اختفيت ولم أقتل ولم أرفع وبالتالي فقد كان يتوقّع قدومي يومًا ما...

لقد اكتشف أوجاشو شعبه، ورأى بعينه بؤسه وتخلّفه، رأى بأعين يملأ الدم شعيراتها حزنًا أولائك الأطفال وهم يلقون للتماسيح، ورأى المرتدين وهم يقطّعون، رأى الجهل وهو يتفشى

في النهر كالنار في الهشيم، ورأى تقديس الشعب ليؤمنه وتخلّفه، وتسلّط جاكوشا على هؤلاء الفقراء والمساكين باسم التماسيح حينها فقط استفاقت كلّ مشاعره الثوريّة، كلّ قدراته العقليّة، وبدأنا معًا رحلة التغيير؛ ذهبنا إلى قرية ميهتابا حيث كانت معجزتنا في البداية، اخترنا المكان لرمزيته التاريخية، وقفنا في نفس المكان الذي كنت لأصلب فيه، ورحنا نصرخ في الناس:« لقد عادت روح الرب وحارستها، أعادنا رب التماسيح بعد أن رفعنا إليه، ها نحن ذا ألجا ابنة كيشاريتي ومعها صاحب الرأس الكبير الذي غدى رجلاً بأمر الرب فهل تسجدون؟»، تجمّع الناس حولنا مدهشين، لم ينتظر أحدٌ عودتنا الآن، ومع تغيّر الأجيال لم يتأكّد العديد منهم من شخصيتنا، ثمّ راح أحد المتجمهرين حولنا يصرخ: « لقد عادت الحارسة، عاد صاحب الرأس الكبير، أعاد رب التماسيح مجدنا وكرّر معجزته لنا ليجعلنا نتوب عن خطايانا» أمسكت أوجاشو من يده وابتسمت له ثمّ راح شخص آخر يصرخ: «نعم إنّها هي ألجا، إنّها المقدّسة، وهذا هو أوجاشو انظروا لرأسه الكبير» ثمّ سجد لنا الجميع وحينها تأمّلني أوجاشو حزينًا حسرةً على جهلهم فقلت له في أذنه: « لا بأس يا ابني غدًا عندما سيكتسبون الوعي اللازم سنخبرهم بالحقيقة»، عندها نصبت الخيمة مجددًا لنا وراحت القرى ترسل وافديها إلينا، وعدنا إلى قدسيتنا وكأنّنا لم نرحل أبدًا وهناك بدأت فكرة الثورة الشعبيّة لإسقاط نظام جاكوشا الاستعماري تتضح أكثر فأكثر...

لم يمر وقت طويل لوصول خبر عودتنا أنا وصاحب الرأس الكبير، فهبّ قوّاديه لملاحظة الأمر عن كثب، كنت أشعر بخطر الموت يقترب شيئًا فشيئًا لنا ولكن لا حل لا يجب أن نعود إلى الوراء الآن، أرسل المعبد حرّاسه، وهدّدنا بالعودة للمعبد وتسليم أنفسنا أو القتل، ولكنّنا كنّا قد مضينا في خطّتنا ورفضنا الإنصياع لأوامره، وطلبنا من الشعب الثورة لقلب نظام الحكم، وادّعينا أنّ جاكوشا قد أغضب الرب وقد نزع عنه هذا الأخير الحصانة.

حاول نظام جاكوشا الدفاع عن نفسه، ولكنّ الذكاء كان في صالحنا هذه المرّة، اتّبع الشعب كلماتنا، صدّقنا، و وقف الشعب معنا، لماذا؟ لأنّه يقدّسنا، يقدّسنا أكثر من جبهة إنقاذ التماسيح ومن جاكوشا وسلطته الحاكمة ومعبده، كنّا أكثر قداسة من نظام الحكم وباعترافه السابق فسرنا سكينًا حادًا حُشر في ظهره.

حاول جاكوشا ومعه متديّني جبهة إنقاذالتماسيح وبعض الرهبان بكلّ قوته الإنتقام منّا وقتلنا، كان عليه إيقاف نيران هذه الثورة الفكرية التي باركها الشعب، ولكن القمع لم يصمد طويلاً أمام ضجيج التقدّم والفكر الحر..

شكّلت الجماهير طوقًا لحمايتنا، لم تخضع هذه المرّة لأوامر المعبد الكبير ولا لتهديداته، عرفت بعض الحقيقة وكان ذلك كفيلاً بجعلها تثور على بعض قيودها ولو إنّها استبدلتها بقيود

جديدة، ففي النهاية السلطة ليست الجدران ولا المؤسسات ولا الأجهزة الأمنية والقمعية والقضائية، السلطة هي الشعور الجمعي بضرورة الانصياع للقائد، إنّها شعور في الأساس، إحساس بوجود حبل متخيّل في يد شخص ما ليجرّ الرقاب، والسلطة الجديدة اليوم التي اختارها الشعب كانت في الضفة الأخرى للمعبد كانت أنا وصاحب الرأس الكبير...

راح الشعب يهاجم مراكز الحكم بعد أن فقد آخر اعتقاداته في قداسة السلطة السياسية وبعد أن هزم مخاوفه اتجاهها، وفي وقت قصير فقد جاكوشا قدرته على السيطرة على الشعب، لقد خطّط أوجاشو لذلك، خطّط للإنقلاب عليه بهذه الطريقة وهو ينفّذها الآن، لقد خلق نظام حكم موازي، أكثر قدسيةً من نظام الحكم الحالي، ومن ثمّ أوهم الشعب أن الرب يقف معهم ضد جاكوشا، وكانت تلك هي الطريقة التي أسقطت الخوف من نظام الحكم، باستعمال نفس أدوات القهر التي كان يستعملها، باستعمال نفس المخيّلة، كان الحبل في يد جاكوشا فغدى في يد أوجاشو، وبعد فترة من ثورة الشعب، راح الرهبان والحرّاس ينشقّون واحداً تلو الآخر عن نظام المعبد الكبير، إلى أن خسر جاكوشا كلّ أدوات قهره وسيطرته وفرّ أعضاء مجلسه جميعا إلى ليستونا، إلى أرضهم الأصلية بعد أن استنفذوا كل الطرق لإخماد فتيل الثورة ولم يتبقّى لهم سوى طلب المساعدة من الوطن الأم.. لقد فرّ اللصوص، فرّ

الكذبة، فرّ المخادعون والظلمة، فرّ السجّان وتحطّمت قيوده بثورة فكرية كانت أقوى من جميع الثورات.

حينها فقط حملنا الشعب إلى القلعة الكبيرة على الأكتاف بعد حرب قاسية للإنقلاب على نظام الحكم، وراح الجميع يهتفون باسمي وباسم أوجاشو، فُتحت القلعة للناس أجمعين، وحرّر الأطفال، حرّرت الحرية وتحرّرت السماء، لقد عادت لعليائها بعد أجيال من الدنو والإنكماش على رؤوس المستعبدين، ولكنّ الإيمان بالصنم المتخيل كان ليزال قويًا في مخيالهم الجمعي، وما حرّكهم ضدّ جاكوشا لم يكن كرههم في جبروته وتسلّطه بل كان فقط إتباعهم لمن كانوا يظنّون أنّه يمتلك شرعية الحكم أكثر باسم الرب، وكان علينا الآن أن نحقّق الجزء الأهم من الثورة، تكسير الصنم إلى الأبد.

صعدنا أنا وأوجاشو قبّة الصنم وأخرجناه من غفوته، وراح صاحب الرأس الكبير يخاطب الشعب بالمفرد كما لو كانوا واحدًا وهو يحمل فأسًا في يده:يا أيُّها الشعب المستغلّ، المستعبد، ها قد ثرت على الطاغية الذي كبّل يداك، وكبّل عقلك وخيالك، وعيك وفكرك، هل أنت مستعد اليوم للثورة الأكبر، ثورة العقل، ثورةالحياة؟، الثورة الفكريّة التي ستعيد لك مجدك، وتبني لك حاضرك ومستقبلك، الثورة الفكريّة التي ستجعلك ترتقي من

شعب مستهلك إلى شعب متفوّق.هل أنت مستعدّ لثورة التغيير الكبرى؟ فتغيّر أسلوب حياتك، وطريقة تفكيرك، لتحرّر نفسك من النمطيّة الموروثة والروتينيّة الدينيّة المتجمّدة. يا أيّها الشعب، ها أنا الآن أمام قبّة الصنم الأكبر. أمام نفس الصنم الذي لطالما تخيّلتموه بأشكال مختلفة دون رؤيته أو لمسه. ها هو أمامكم حجارة فقط. حجارة من كهوف التزييف والتوريث حيث يختفي خوفكم الأكبر. هنا بهذا المعبد المحرّم. ها هو الصنم في غشائه، في مخبئه، يخفي عنكم حقيقته. حقيقة إنّه لم يكن سوى دميّة حجريّة تم حشوها بمخاوفكم. حقيقة إنّه لم يكن سوى خيالاً قدّستموه فوضعتم أمركم، حياتكم، مستقبل أبنائكم، في فم التمساح وبيد مغتصبيم ومستعمركم باسمه. تحرّروا الآن وارتقوا» رفع أوجاشو اللثام عن الصنم الذي لم يكن سوى صنمًا صغيرًا برأس تمساح، وراحت الجماهير تناشده متألّمةً:« اترك الصنم وشأنه لا تكسره يا أوجاشو» تردّد أوجاشو حينها مع مناشدة الجماهير المتعالية له وهي تترجاه في ترك الصنم وشأنه. قمت من مكاني وصرخت في وجهه بكل حزم: «الآن فقط بدأت الثورة الحقيقيّة. حطّم الصنم يا صاحب الرأس الكبير» أغلقت الأعين من شدّة الألم المتخيّل. خلع الخوف الأكبر منها كما يخلع الضرس الفاسد. ورفع أوجاشو الفأس عاليًا وانقضّ عليه فحطّمه.

●●●

الفهرس الصفحة

إهداء:..	٥
الفصل الأول: الظهور المقدس:......................	٧
الفصل الثاني: ثورة التمساح:........................	١١١
الفصل الثالث: سقوط الصنم:.........................	٣٤٣

ما يخفيه اللّه عنّا

من وحي تلك المضايقات التي اكتوى بنارها، والتجارب الكافكاوية التي عانى من عبثيتها الفاقعة، استوحى أنور رحماني أجواء روايته الجديدة «ما يخفيه الله عنا». رواية يحس قارئها بأنها خرجت من معطف فرانز كافكا أو جورج أورويل. هي تنتمي الى تقليد الأدب الديستوبي Dystopique ، أي الأدب الغرائبي القائم على ابتكار عوالم ودول وأنظمة خيالية تسودها قيم ومفاهيم غير معقولة ومخالفة للمنطق والمألوف. أدب يتخذ من هذا النوع من التخييل الغرائبي تورية رمزية للتحذير من مخاطر التسلط والاستبداد. تدور أحداث «ما يخفيه الله عنّا» في بلد خيالي يسوده الفساد، ويتبع شعبه ديناً غريباً يُؤمِن أتباعه بأن أكل التمساح للإنسان يجعل هذا الأخير يشعر بالمتعة، اذ أن متعة التمزّق بين فكي التمساح، في معتقداتهم، ألذ مئة مرّة من الجنس! هذا البلد الفاسد، الذي لا نعرف له اسماً، يحكمه زعيم اسمه «جاكوشا»، وهو رئيس شفّاف ومتوارٍ عن الأنظار، لا أحد يراه لكن الجميع يُؤمن بأنه «زعيم أبدي لا يظهر ولا يموت». لإحكام قبضته على البلاد، يسلط «جاكوشا» رهبانه الفاسدين على الشعب، من خلال ديانة التماسيح التي تمجد الخضوع وتقدّس التبعية العمياء، حيث يسعى الجميع للتدرج في سلك الخنوع، بغية بلوغ منزلة «القوّاد»، وهي الفئة الأعلى في المنظومة الدينية والسياسية الحاكمة! وإذا براهبة متمردة تدعى «ألجا» تشق عصا الطاعة على الاستبلشمت الديني، منادية بتحرير البشر من عبادة التماسيح. فيلقى عليها القبض، لتقام لها محاكمة جائرة، ويصدر بحقها حكم بالإعدام لأنها تجرأت على الترويج للفكر الحر، لتكتشف أسرارًا أكبر بعدها

عثمان تزغارت

رئيس التحرير السابق لقناة فرانس 24 على جريدة الأخبار اللبنانية عن رواية ما يخفيه الله عنا